العلاقة

بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي

في العصر الأيوبي

تأليف

دكتور

فايد حماد محمد عاشور

ماجستير في الآداب من جامعة عين شمس

دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس

دكتوراه في التاريخ الوسيط من جامعة الإسكندرية

تقديم

دكتور جوزيف نسيم يوسف

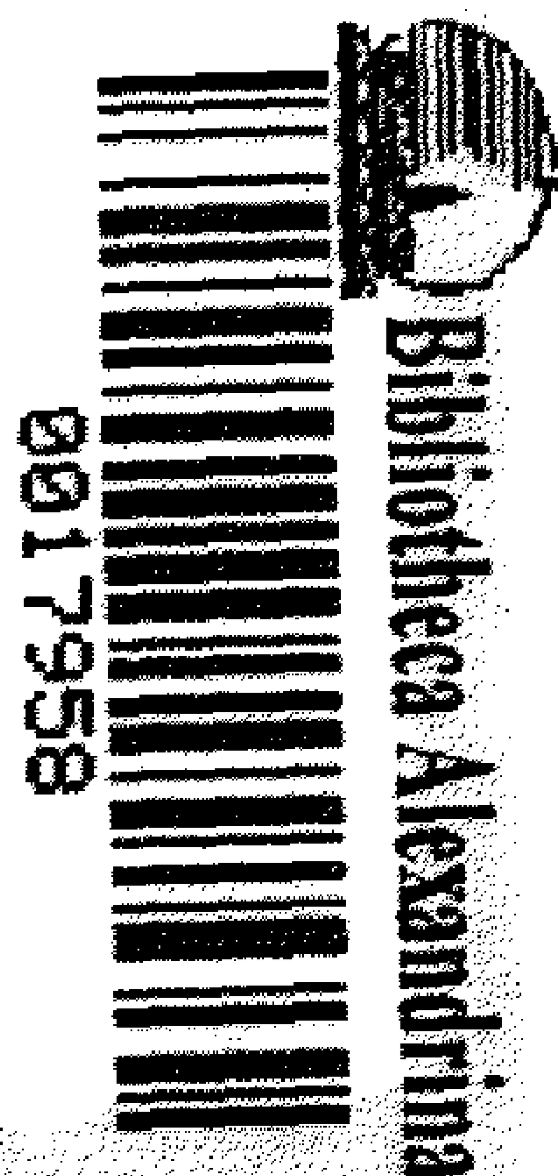
استاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٠



دار المعارف



العلاقة
بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي
في العصر الأيوبي

تأليف
دكتور
فايد حماد محمد عاشور
ماجستير في الآداب من جامعة عين شمس
دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس
دكتوراه في التاريخ الوسيط من جامعة الإسكندرية

تقديم
دكتور جوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعارف

تقديـــم

الدكتور فايد حماد محمد عاشور في غني عن التعريف • تخرج في قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية في يونيو ١٩٦٤ • وفي سبتمبر ١٩٦٩ حصل على درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي من كلية الآداب بجامعة عين شمس في موضوع « العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الاولى » تحت اشراف الاستاذ الدكتور حسن حبشي ، استاذ التاريخ الاسلامي ورئيس قسم التاريخ السابق بآداب عين شمس • واسعدتني الظروف ان أكون عضوا في لجنة مناقشة الرسالة المذكورة التي تولت نشرها اخيرا دار المعارف بمصر في سلسلة « مكتبة الدراسات التاريخية » • وفي أغسطس ١٩٧٢ حصل الدكتور فايد عاشور من جامعة عين شمس على درجة الدكتوراة في التاريخ الاسلامي في موضـوع « التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية : دراسة مقارنة » ، تحت اشـراف الاستاذ الدكتور حسن حبشي • وكنت ايضا عضوا في لجنة مناقشة تلك الرسالة التي سوف تظهر ، هي الاخرى ، في شكل كتاب مطبوع لتسد فجوة واضحة في مكتبة التاريخ الاسلامي الوسيط •

وقد ابى الدكتور فايد عاشور الا ان يجمع بين شقي العصور الوسـطى : الاسلامي والاوروبي ، الشرقي والغربي ، بالتحضير لدرجة الدكتوراه ، للمـرة الثانية ، بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، ولكن هذه المرة في تاريخ العصور الوسطى • وفعلا بعد اجتيازه بنجاح امتحان مادة اللغة اللاتينية التي قررتهـا الكلية عليه في العام الجامعي ٧٤/١٩٧٥ ، قيد تحت اشرافي لدرجة الدكتوراه في موضوع « العلاقات بين البندقية والشرق الادنى الاسلامي في العصر الايوبي (١١٦٩ ـ ١٢٥٠ م/٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ) » • وفي سبتمبر ١٩٧٨ حصل عـلى الدرجة العلمية بمرتبة الشرف الاولى •

وبكل اعتزاز يسعدني ان اقدم الى قراء العربية هذا البحث القيم • وهو

ينقسم الى فصول خمسة ، تسبقها مقدمة وعرض وتحليل للمصادر ، وبآخرها خاتمة وثبت بأسماء المصادر والمراجع من عربية وأجنبية ٠

وفي المقدمة كشف الباحث عن أهمية الموضوع ، والجديد فيه ، وسبب اختياره له ، مع عرض واضح للمنهج الذى اتبعه ٠ وانتقل بعد ذلك الى عقد دراسة تحليلية مقارنة بين مصادر البحث من عربية واجنبية ، خطية ومصورة ومطبوعة ٠ ومن بينها مصادر المعاصرين من شهود العيان ممن شاركوا في احداث ذلك الزمان ، فضلا عن مصادر المتأخرين زمنيا عن الفترة موضوع البحث ممن نقلوا عن أصول مفقودة وحفظوا لنا مادتها من الضياع ٠ وقد ناقش الباحث مختلف الروايات والاسانيد مناقشة موضوعية متعمقة من بطون اصوله ومصادره التاريخية ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة ٠ وتمكن عن طريق المقارنات والموازنات التاريخية من الكشف عن اصوب النتائج وأسلمها ٠

أما الفصل الاول وعنوانه « احوال الغرب اللاتيني والشرق الاسلامى منذ قيام الحركة الصليبية وحتى نهاية الخلافة الفاطمية (١٠٩٥ ـ ١١٦٩ م / ٤٨٨ ـ ٥٦٤ هـ) ، فقد قسمه الى قسمين رئيسيين : القسم الاول وبدأه باستعراض أحوال البندقية وموقعها الجغرافي ونموها كقوة بحرية كبرى في البحر المتوسط ٠ ثم اشار الى طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بينها وبين الدولة الفاطمية فى مصر والشام حتى قيام الحركة الصليبية ، والتى كانت في جوهرها علاقات طيبة تقوم على المصالح المشتركة لكليهما ٠ وأوضح كيف تأثرت هذه العلاقات بعض الشيء بعد قيام الحركة الصليبية سنة ١٠٩٥ م/٤٨٨ هـ وحتى نهاية الخلافة الفاطمية عام ١١٦٩ م/٥٦٤ هـ ٠ واستعرض بعد ذلك احوال بقية دول الغرب اللاتيني ، وموقفها من الحركة الصليبية ، ومدى اسهامها فيها ، ودور البندقية فى هذا الصراع ٠ أما القسم الثانى فقد تحدث فيه الباحث عن مصر وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وموقفها هى والقوى الاسلامية الاخرى فى الشرق الادنى من الاحداث التى كانت المنطقة مسرحا لها ابان تلك الفترة من الزمن ، وانعكاسات ذلك على موضوع البحث ٠

وبعد هذا المدخل الطبيعي ، عالج الدكتور فايد في الفصل الثاني وعنوانه « البندقية وموقفها من الصراع الصليبي الاسلامي في العصر الايوبي » ، سياسة البنادقة القائمة على شعارهم المعروف « نحن أولا بنادقة ، وبعد ذلك مسيحيون » ، مع بيان اثر هذا الشعار على تكييف مواقفهم من الايوبيين والصليبيين على السواء. وتناول الباحث بالتحليل العميق موقف البنادقة من الحملات الصليبية التي تعرض لها الشرق الادنى في العصر الايوبي ، واثر ذلك على علاقاتهم بالايوبيين . وتوصل الى أن تلك العلاقات كانت تتارجح بين العداء والصفاء وفقاً لمقتضيات الظروف والاحوال وقتها ، ووفقا لما كانت تمليه عليهما مصالحهما المشتركة .

واستعرض الدكتور فايد في الفصل الثالث وعنوانه « العلاقات السياسية بين البندقية والمشرق الاسلامي في العصر الايوبي » ، عدة نقاط تتميز بأهميتها البالغة من بينها الاتصالات والسفارات والمكاتبات المتبادلة بين البنادقة والايوبيين، وكذلك المعاهدات المعقودة بينهما والتي تبين أن مصالحهما المشتركة كان لها اعتبارها الخاص ، وتبين في ذات الوقت أن العلاقات بينهما ، ان سلما أم حربا ، كانت تتكيف وفقا للظروف الموضوعية القائمة وقتها من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها ، ونتيجة تغير ميزان القوى بين طرفي الصراع . ففي فترات الضعف المحدودة التي مرت بها الدولة الايوبية كان البنادقة يساندون بني جنسهم من اللاتين . وفي اوقات القوة والتماسك التي تمتعت بها دولة بني أيوب، كان البنادقة يقفون منها موقفا متوازنا ، ويحجمون عن تقديم العون الى الصليبيين خشية فقدان مصالحهم في مصر .

وفي الفصل الرابع وعنوانه « العلاقات التجارية بين البندقية ومصر في العصر الايوبي » عالج الباحث الشق الآخر من العلاقات الايوبية البندقية . فتناول بالدراسة الجادة الهدن التي عقدت بين الطرفين ، والظروف التي تمت فيها، وماتضمنته من بنود تجارية . وكشف عن دور الرحالة والتجار من بنادقة ومصريين ، واثره في ازدهار الحركة التجارية بين الشرق والغرب . كما اشار الى أهم طرق التجارة البحرية آنذاك ، وأشهر محطاتها ومراكزها ، والاساطيل

التجارية المستخدمة وأنواعها ومسمياتها ونظمها . واستطرد بعد ذلك الى الحديث عن العملات المستعملة فى كل من مصر والبندقية ، واثر ذلك على العلاقات الاقتصادية بينهما . كذلك اثبت ان البندقية ، وهى ترسم سياستها حيال مصر ، لم تنس اطلاقا ان مصر كانت تعتبر قلب العالم الاسلامى النابض بالحركة والحياة . ومركز امداده المستمر بالمال والرجال والمؤن والسلاح . وانها هى التى بيدها قرار الحرب ومفتاح السلام .

أما الفصل الخامس والأخير وعنوانه « الجالية البندقية فى مصر » ، فقد تناول فيه باحثنا عدة نقاط هامة شيقة ، من بينها الامتيازات التى حصل عليها التجار البنادقة فى مصر ، والفنادق والنزل الخاصة بهم فى الاحياء والموانى المصرية التى كانوا ينزلون فيها اثناء اقامتهم فى البلاد . وأوضح أن البنادقة ، دون غيرهم ، هم الذين سمح لهم الايوبيون بالاتجار فى بلاد مصر كلها ، وذلك توثيقا للصلات والروابط الطيبة القائمة بين الطرفين ، والتى جعلت الجالية البندقية فى مصر تتمتع بالمركز الاسمى بين الجاليات الاجنبية الاخرى . وقد اختتم هذا الفصل بالحديث عن نظم التجارة ، والقناصل ، وأهم السلع والبضائع التى كان البنادقة والمصريون يتعاملون فيها بالبيع والشراء حسب احتياجات كل منهما .

وفى دراسة جادة متأنية تناول الباحث فى ختام رسالته أهم النتائج التى توصل اليها ، وأبرز الآراء والافكار التى تمخضت عنها هذه الدراسة المتعمقة القيمة . ومن بينها ان البنادقة كانوا يرتمون فى أحضان بنى جنسهم من الفرنج اذا كان فى ذلك مصلحة لهم . وكانوا يتخلون عنهم ويتفاهمون مع الايوبيين اذا وجدوا ان كفتهم هى الراجحة . وكان الايوبيون ، بدورهم ، يتعاونون مع البنادقة بهدف الحصول على المواد الاستراتيجية اللازمة لبناء قوتهم العسكرية ، كالخشب لبناء السفن والمعادن لصنع السلاح . ومن بينها أيضا ان موقف البنادقة من الحملات الصليبية ومن تهديدات البابوية لمن يتعامل مع مصر ، كان يتشكل وفقا لمصالحهم وللظروف القائمة . وقد خلص الباحث الى انه فى معمعة الصراع

العسكرى كانت تتم اللقاءات السلمية بين دولة بنى ايوب في مصر والشام وبين البنادقة ، سواء اكانت تلك اللقاءات في شكل سفارات ومكاتبات ، أو على هيئة هدن ومعاهدات ، او اتصالات تجارية ٠

والخلاصة ان الدكتور فايد عاشور تصدى لموضوع صعب هادف ، لم يتناوله الباحثون والدارسون الحديثون ، في كتبهم وتاليفهم ، في الشرق والغرب على السواء الا عرضا أو في أسطر معدودات ، أو في فصل أو بعض فصل ٠ ويعتبر هذا الكتاب الذى نقدمه ، لاول مرة ، الى قراء العربية ، هو أول دراسة علمية مستقلة قائمة بذاتها ، تتناول هذا الموضوع الحيوى الهام ، من كافة جوانبه وزواياه ، في دراسة جادة موثقة ، تعبر عن وجهة نظر متكاملة مستمدة من بطون المنابع والاصول ، من عربية وأجنبية ٠ ولا شك ان هذه الدراسة تعتبر اضافة جديدة لها وزنها الى المكتبة التاريخية بصفة عامة ، ومكتبة التاريخ الوسيط على وجه الخصوص ٠

وأخيرا ، وليس بآخر ، يكفى القول أن نشاط الدكتور فايد عاشور ، في مجال البحث العلمى والدراسة الاكاديمية الحقة، يمتد قرابة العشرين عاما متصلة، كان فيها مثالا رائعا للباحث المتنسك داخل محراب العلم ، يعمل في صمت وسكون ٠ لذا ، لا غرابة ان يقدم لنا اليوم هذه الدراسة القيمة التي اترك للقارىء العزيز فرصة الاستمتاع بها والافادة منها ؟

دكتور جوزيف نسيم يوسف
استاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الاسكندرية في أول يناير ١٩٨٠

المقدمـــة

موضوع هذا البحث « العلاقات بين البندقية ومصـر فى العصـر الايوبى (١١٦٩ ـ ١٢٥٠ م/٥٦٤ ـ ٦٤٨ هـ) » ٠

ولقد شهدت تلك الفترة صراعا طويلا وخطيرا ترك أعمق الاثر فى تكييف العلاقات بين الشرق والغرب بصفة عامة ، وبين الدولة الايوبية والبنادقة على وجه الخصوص ٠

وكان الايوبيون هم الطرف الرئيسى فى الجهاد ضد الصليبيين الدخـلاء ، بينما كان البنادقة طرفا هاما فى تقديم العون بمختلف أنواعه للصليبيين مـن ناحية ، وفى اتخاذ مواقف متأرجحة فى علاقاتهم بالايوبيين من ناحية أخرى ٠

ومن الصعب حقا والحالة هذه ، أن تنشأ علاقات طيبة وطيدة وودية مستمرة بين البلدين لارتباط كل منهما بالتزامات نحو شعبه وبنى جنسه ، فالايوبيون يجاهدون بكل الوسائل ضد العدو الاجنبى ، والبنادقة يسعون بكل الوسائل من أجل الربح والكسب ٠ فكان على الدولة الايوبية أن تبذل الكثير من أجل كسب قضية الجهاد ضد اللاتين وأعين العالم الاسلامى كلها تتجه اليها ، وكان عليها فى نفس الوقت محاولة اقامة علاقات طيبة مع البندقية استمرارا للعلاقات التى كانت قائمة بين البندقية ومصر حتى قبل قيام الحركة الصليبية ، وضمانا للحصول على ما فيها من المواد الاستراتيجية كالخشب والحديد التى كانت تعينها على الصمود فى وجه الفرنج ودفع خطرهم ٠

وكان ذلك يعنى بشكل غير مباشر اضعاف للدور البندقى فى مساعـدة الحركة الصليبية ، خصوصـا وأن الدولة الايوبية قامت بعملية توحيد الجبهـة الاسلامية واحاطة الصليبيين بالمجاهدين وأطبقت عليهم بحزام قوى من الشمال

والجنوب ، مما أدى الى انقلاب فى ميزان القوى فى الشرق الادنى ٠

وأصبح المسلمون يباشرون الهجوم والغزو ، ويحققون الانتصارات ، ويلحقون باللاتين اشنع الهزائم ، بينما التزم الصليبيون بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن اماراتهم ومعاقلهم فى الشام بوجه عام وكان ذلك عاملا هاما فى التأثير على العلاقات بين البندقية والايوبيين من الناحيتين السياسية والاقتصادية ٠

فالبنادقة يخشون ضياع الممتلكات الصليبية فى الشرق ، فيفقدون بذلك مصدرا هاما للربح كانوا يحصلون عليه من امتيازاتهم العديدة فى الامارات الصليبية ٠ ولذلك وجدوا انفسهم مضطرين لمساندة الصليبيين من أجل المحافظة على تلك المكاسب ولكنهم فى نفس الوقت كانوا لا يريدون لعلاقاتهم بالدولة الايوبية ان تنقطع أو أن تصل الى طريق مسدود ، خصوصا وانها كانت تسيطر على طرق تجارة البهارات والتوابل وبضائع الشرقين الاقصى والادنى ٠ وكانت التجارة الشرقية مصدرا ثانيا للربح والكسب بالنسبة للبنادقة ٠

وفى ضوء هذه الاوضاع والمفاهيم كانت العلاقات بين البندقية والايوبيين تتأرجح ايجابا أو سلبا وصعودا أو هبوطا وفقا لهذه الظروف التى شهدها مسرح الاحداث آنذاك والذى كان فى الواقع يغلى غليانا ٠

ولقد تعرض البنادقة لموقف الكنيسة اللاتينية والبابوية وقرارات الحرمان المسلطة على رقابهم لمنعهم من التعامل مع الايوبيين وضمان عدم امدادهم بالمواد الحربية ، فى محاولة من الغرب الاوروبى هدفها اضعاف مصر عسكريا واقتصاديا حتى يسهل عليهم احتلالها وتحقيق كافة اطماعهم ٠

ولكن موقف الدولة الايوبية القوى من هذه القرارات وعدم ثقة البنادقة بامكانية الصليبيين احتلال مصر بعد اعتدال ميزان القوى فى الصراع الدائر بين الطرفين ، كل ذلك جعل البنادقة يحرصون قدر استطاعتهم على وجود علاقات طيبة مع السلاطين الايوبيين بما يعود عليهم بالفائدة رغم اعتراضات البابوية ، خصوصا وان مصر في العصر الايوبي اصبحت قلب العالم الاسلامي ومركز

امداده بالمال والرجال والسلاح والاقوات لهذا كان تركيز الغرب الاوروبـي عليها منذ اواخر القرن الثاني عشر الميلادى (اخريات القرن السادس الهجرى) وحتى نهايةالدولة الايوبية سنة ١٢٥٠ م/٦٤٨ هـ ٠

فهم تارة يفرضون عليها الحصار الاقتصادى واخرى يمنعون عنها المواد التى تخدم الحرب ، ومرات عديدة يهاجمونها بالاساطيل والجيوش ، ويكفى آن نقول ان الحملات الصليبية من بعد الحملة الصليبية الثالثة كانت تهدف الى احتلال مصر والقضاء على الايوبيين ٠

ولكن المسلمين جعلوا هذه الحملات جميعا تنتهى الى الفشل ، الذى أدى الى تغير فى طبيعة العلاقات بـين البندقية والدولة الايوبية ، وجعل البندقية تميل الى البحث عن مصالحها التجارية ولو عند أعــداء الصليبيين ، والمقصود بذلك الايوبيين ٠ ومن ثم عقدت المعاهدات مع الايوبيين ، وكانت تجدد تلك الاتفاقيات من حين الى آخر ٠ وحصل البنادقة على امتيازات تجارية فى مصر حتى أصبحوا يحتلون المركز الاول بين الجاليات الاجنبية فى البلاد ٠

واذا كانت الدولة الايوبية قد قامت على اساس الجهاد فى الاسلام ضـد الغزاة ، فقد عاشت سنواتها الطوال وهى فى جهاد فى جميع الجبهات والمجالات ، وانتهت وهى فى ميدان الجهاد حيث كانت هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وعلى ضفاف النيل فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) ٠

لقد بدأت دولتهم بالانتصارات على الصليبيين ، وانتهت بالانتصار عليهم أيضـــا ٠

فى ضوء هذا المفهوم كان منهج البحث وخطته ، لقد قسمته الى فصول خمسة مهدت لها بعرض وتحليل لاهم المصادر والمراجع ، وذيلتها بخاتمة وبقائمة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها : ـ

الفصل الاول وعنوانه : أحوال الغرب اللاتينى والشرق الاسلامى منذ قيام الحركة الصليبية وحتى نهاية الخلافة الفاطمية (١٠٩٥ـ١١٦٩م / ٤٨٨ـ٥٦٥هـ)

وجعلته في قسمين : الاول خاص بالبندقية : موقعها وأهميته ـ تأسيسها ـ استقلالها وتوسعها ونموها ، ظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ ظهور البندقية كقوة بحرية في البحر المتوسط ـ البندقية والروح الصليبية • ثم استعراض لاحوال بقية دول الغرب الاوربى فى هذه الفترة ، اما القسم الثانى فجعلته خاصا بمصر وظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى نهاية الخلافة الفاطمية •

ثم تناولت الجهاد في الاسلام وأثره فى مقاومة الصليبيين ، وظهور حركة الافاقة الاسلامية في بواكير القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى) ثم تناولت طبيعة العلاقات بين البندقية والفاطميين في مصر حتى نهاية دولتهم ثم تحدثت عن القوى الاسلامية الاخرى فى الشرق الادنى •

أما **الفصل الثانى** فكان عن « البندقية وموقفها من الصراع الصليبى الاسلامى فى العصر الايوبى ـ شعار البنادقة المعروف « نحن أولا بنادقة وبعد ذلك مسيحيون » وأثره على تكييف سياساتهم ومواقفهم حيال الاطراف المعنية • ثم تحليل لموقف البنادقة من الحملات الصليبية التى تعرض لها الشرق الادنى فى العصر الايوبى •

وتناولت فيه أيضا موقف كل من الجهاز الحكومى البابوى والبنادقة من الطرف الاخر فيما يتعلق بسياسة البنادقة حيال الحركة الصليبية •

أما **الفصل الثالث** فكان « العلاقات السياسية بين البندقية ومصر فى العصر الايوبى » • وضمنته السفارات والمكاتبات المتبادلة بين البلدين والمعاهدات المعقودة بينهما مع الحديث عن ديوان الانشاء فى مصر ونماذج من المكاتبات المتبادلة وختمته بدوج البندقية وتأرجح العلاقات بين البنادقة ومصر وفقا لمقتضيات الظروف وتغير المصالح •

والفصل الرابع جاء بخصوص « العلاقات التجارية بين البندقية ومصر فى العصر الايوبى » وبه المعاهدات بين الطرفين وما تضمنته من بنود تجارية بين البلدين ـ الرحالة والتجار البنادقة والمصريون ـ ثم طرق التجارة البحرية ومحطاتها ومراكزها والاساطيل التجارية ودورها والعملات المستعملة فى كل من مصر والبندقية ٠

أما **الفصل الخامس والاخير** فجعلته بعنوان « الجالية البندقية فى مصر » وتناولت فيه امتيازات البنادقة فى مصر والفنادق والنزل الخاصة بالبنادقة والاحياء التى ينزلون بها ونظم التجارة والقناصل ، مع الاشارة الى وظيفة وكيل التجار والسلع التجارية وأهم الصناعات فى كل من مصر والبندقية ٠ ثم تناولت فيه الصراع بين البندقية والجاليات التجارية الاخرى وآثارة على العلاقات بين البنادقة ومصر ٠

وبعد فانى اتقدم بجزيل الشكر والعرفان بالجميل لاستاذى الكريم الاستاذ الدكتور جوزيف نسيم يوسف أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، اذ كان لى شرف التلمذة على يده لمدة عشرين عاما ، تعلمت منه الخلق الكريم والعلم الصحيح والاخلاص والصدق ٠ ولقد غمرنى بكثير من فيض تشجيعه وارشاده ٠

والله أرجو أن يوفقنى الى ما أنا بسبيله ، وما توفيقى الا بالله ؟

د٠ فايد حماد عاشور

عرض وتحليل لمصادر الكتاب

أولا : المصادر الاوربية ٠

ثانيا : المصادر العربية ٠

ثالثا : المراجع العربية ٠

رابعا : المراجع الاوروبية ٠

موضوع هذا البحث هو « العلاقة بين البندقية ومصر فى العصر الايوبى » ٠ ويتضمن فترة زمنية تعتبر من أهم الفترات التاريخية فى العلاقات بين الشرق والغرب فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة وفى تاريخ العلاقات بين البندقيه والدولة الايوبية فى مصر والشام على وجه الخصوص ٠

لقد أصبحت مصر فى العهد الايوبى مركز القوة الاسلامية فى الشرق الادنى ومحط الانظار ومعقدالآمال بالنسبة للمسلمين فيما يتعلق بأمر الجهاد ضد الصليبيين ومن ثم كان اهتمام الكتاب والمؤرخين بالحديث عن دور الايوبيين بالتفصيل٠وكذلك الحال بالنسبة للبندقية القوة البحرية الكبرى ابان تلك الفترة من الزمن ٠

ولقد كثرت المؤلفات حول هذه الاحداث تتناول جانبا من جوانبها أو زاوية من زواياها ٠ ولكن ما أكثر الوقائع التى

لا تزال حتى اليوم بحاجة الى المزيد من الدراسة والبحث لاستجلاء غوامضها وهتك اسرارها والكشف عن أسبابها ومسبباتها توصلا الى نتائجها وخواتيمها ومن بينها الموضوع الذى نحن بصدده • ولا شك أن هذا الموضوع يتطلب من الباحث الرجوع الى المصادر والاصول العربية والاجنبية الشرقية والغربية ، الخطية والمطبوعة ، على حد سواء • وعليه أن يناقش مختلف الروايات والاسانيد فى بطون الاصول والمنابع التاريخية ، المتضاربة منها والمتوافقة ، سعيا وراء الحقيقة التاريخية المطلقة التى هى أسمى من أى شىء ، وذلك عن طريق المقارنات والموازنات بهدف الكشف عن اصدق الوقائع واسلم النتائج التى يتمخض عنها النقد التاريخى السديد •

وقد توخينا فى بحثنا هذا الرجوع الى كافة المصادر والمراجع المتوفرة تحت أيدينا ، شرقية أم غربية عربية أم أجنبية ومن بينها مصادر المعاصرين وشهود العيان ممن شاركوا فى احداث ذلك الزمان • وكذلك منها مصادر المتأخرين زمنيا عن الفترة موضوع البحث ممن نقلوا عن أصول مفقودة أو موجودة ، وكان أن نبدأ بفحص وتحليل المصادر العربية أولا ثم نعقبها بالمصادر الاجنبية •

ولكن بعد الفراغ من جمع المادة التاريخية ، رأينا أن نبدأ الدراسة التحليلية بالاصول الاوربية ثم نتبعها بالمصادر العربية، فالمراجع الثانوية من عربية وأجنبية • والسبب فى ذلك أن المصادر الاوربية كانت تشير فى معظم الاحيان الى الدور البندقى

بوضوح ، فى حين أن المصادر العربية كانت فى معظم الاحيان تشير الى ذلك الموضوع تحت اسم الفرنج تارة ، وأخرى باسم اللاتين ، وثالثة باسم الصليبيين وفى حالات قليلة تتم الاشارة الى البنادقة صراحة • وتلك مشكلة تواجه الباحثين فى المصادر العربية • ولذلك تأتى أهمية المصادر الاوربية فى أنها تكشف حقيقة الأحوال بوضوح ، وتشير الى البندقية والايوبيين بوضوح •

وبالمقارنة والموازنة بين ما ورد فى المصادر الغربية مع ما جاء فى الاصول العربية ، أمكن الوصول الى الحقيقة وتحديد دور البندقية والبنادقة فى كثير من الاحيان ومن هنا تأتى أهمية المصادر العربية فى تقويم بعض تلك الروايات الغربية التى جانبها الصواب فى بعض الاحيان بسبب التزمت الشديد والميل مع الهوى •

ومن المصادر الاوربية المعاصرة للدولة الايوبية كتاب جان دى جوانفيل J. de Joinville حاكم شمبانيا عن تاريخ القديس لويس وهو أهم المصادر عن حملة لويس التاسع المعروفة بالسابعة • وهو أيضا شاهد عيان عرف بالدقة والصدق فيما كتب • وكان يسجل للاجيال الحقيقة كما شاهدها بنفسه أو كما سمعها من معاصريه،ويلى كتاب جوانفيل تاريخ روتلان Rothelin وقد اشترك هو الآخر فى الحملة السابعة على مصر فى ختام العصر الايوبى• وهو تتمه لتاريخ وليم الصورى Guillaume de Tyr ويشغل الفترة الواقعة فيما بين عامى ١٢٢٩ و ١٢٦١ م •

وتتناول تاريخ روتلان الكلام عن الحملة السابعة خصوصا ٠

ولكن الذى يعنينا أن كلا من جوانفيل وروتلان قد أشار ولو باقتضاب الى موقف البندقية من هذه الحملة والى سياستهم عموما حيال الايوبيين ٠

ومن الكتاب اللاتين أيضا الراهب الانجليزى المعروف متى الباريزى Matt paris الذى يعتبر من كبار كتاب القرن الثالث عشر الميلادى فى أوروبا ٠ وكتابه عن تاريخ انجلترا باللغة اللاتينية وقد نقل الى اللغة الانجليزية وهو يبدأ من سنة ١٢٣٥ وينتهي بسنة ١٢٥٩ م ٠ وقد أحسن متى الباريزى معالجة أحوال دول أوربا وظروفها فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وفيه اشارات متناثرة هنا وهناك عن دورالبندقية فيالحركة الصليبية وقتذاك ٠

ومنالمصادر الاخرىماكتبه غليومدىشارتر Guillaume de Chartres الذى كان مرافقا للملك الفرنسى لويس التاسع فى حملته على مصر وهو الكاهن الخاص له ٠

وايضا من المصادر الهامة كتاب روبرت كلارى المسمى « فتح القسطنطينية على يد الصليبيين » والذى نقله الى العربية الاستاذ الدكتور حسن حبشى ، وهو مصدر هام للحملة الصليبية الرابعة لان مؤلفه شاهد الاحداث بعينه وسمع بأذنيه ورأى عن قرب وأبدى رأيه فيما وقع من أحداث ، ويعتبر أصدق المصادر حول هذا الموضوع ٠ وأشار فيه الى الحملة الرابعة والاستعدادات التى

تمت قبل تحركها • كما أشار بالتفصيل الى الاتفاق الذى عقد بين البنادقة والصليبيين ثم اجتماع القوات الصليبية فى البندقية استعدادا للتحرك الى الشرق • ثم تحدث عن تطور الاحداث بالهجوم علىمدينة زارا ومن بعدها غزو الامبراطورية البيزنطية وتأسيس امارة لاتينية بها على رأسها بلدوين• كما تحدث عن الغنائم وما نال البنادقة منها •

وأهمية هذا المصدر تأتى فى أن مؤلفه روبرت كلارى كان مشاركا فى الحملة الرابعة وروى الوقائع كما رآها ، وكشف عن دور البندقية فيها • وغير خاف ان هذا له صلة بشكل غير مباشر بموضوع بحثنا •

ومن المؤرخين الغربيين المعاصرين للحملة الرابعة وشارك فيها جفرىأوففيلهاردوان Jeffrey of Villehardouin وكانأحدالاشخاص الستة الذين أرسلهم الصليبيون الى دوج البندقية للاتفاق معه على دورها فى الحملة الصليبية الرابعة • وكان جنديا شجاعا ورجلا عظيما ، ولكنه لم يكن فى مثل دهاء الدوج العجوز الذى أمكنه قيادة الحملة • وتأتى أهميته فى صدق روايته لاشتراكه فى الحملة من ناحية ولانه ممن أداروا المناقشات مع البنادقة وأبرموا الاتفاق معهم من ناحية أخرى •

ومن المصادر الهامة أيضا تلك التى توجد فى مجموعة مؤرخى الحروبالصليبيةالمعروفة باسم Recueil des Historiens des Croisades التى تتألف من ١٦ مجلدا ضخما ، وبخاصة المجلدات الخمسة الخاصة بالمؤرخين الغربيين التى يجب أن نذكرها فى هذا الصدد

أمثال وليم الصورى وهرقل ومن أهم المراجع التى تناولت تاريخ البندقية كتاب Venice and its story ومؤلفه Okey والكتاب يصور كيفية ظهور البندقية ووجودها التاريخي وتطورها السياسى ثم توسعها وازدهـار تجارتها والاسباب التى أدت الى ذلك • ثـم يتناول دور البنادقة في الحروب الصليبية منذ بدايتها وحتى نهاية الحملة الصليبية الرابعة ، ويوضح الدور البندقى فى كل هذه الحوادث ، ويؤكد أن البنادقة فى الحـرب الصليبية الاولى كانوا يدافعون ويقاتلون ويهاجمون جنبا الى جنب مع الصليبيين، وليس مجرد تقديم وسائل النقل او الامدادات ، أو المشاركة فى المفاوضات وتقرير مصير الاوضاع السياسـية للصليبيين فـى الشرق الادنى • وتناول بالتفصيل كذلك دور البنادقة فى الحملة الصليبية الرابعة وموقف البابا من البنادقة وقرار الحـرمان الصادر ضدهم ، موضحا أن هدف البنادقة الرئيسى هو الكسب المـادى •

وتناول المؤلف توسع البندقية التجارى ونمو اقتصادها حتى أصبحت تصـل اليها البضائع مـن مختلف الجهـات ، وغـدت امبراطورية واسعة وخصوصا بعد احتلال الصليبيين والبنادقة للقسطنطينية عام ١٢٠٤ م •

ومن المراجع الهامة فى تاريـخ البندقية كتابـان للمؤلف Wiel هما : "Venice", "The Navy of Venice" تناول فى الكتاب الاول تاريخ البندقية منذ قيامها وتوسعها وتطورها، وتحدث بالتفصيل عن دور البنادقة فى الحملة الصليبية الاولى وما كان منهم فـى مساعدة مملكة بيت المقدس • كما تحدث عن دور البنادقة فى تدمير

الاسطول المصرى الفاطمى فى البحر المتوسط وكذلك دورهم فى الاستيلاء عن طريق الخدعة على مدينة صور عام ١١٢٤ م بعد حصار دام خمسة شهور .

كما تناول دور البنادقة فى الاستيلاء على عسقلان فى الجنوب ، وهى قاعدة أسطول الفاطميين وبضياعها انفتح الطريق أمام الصليبيين الى مصر . ونتج عن تلك المساعدة أن حصلت البندقية على امتيازات تجارية واسعة فى المملكة اللاتينية ، وتحولت تجارة الشرق الى أيدى شعبها . وبين أثر ذلك الوضع على الامبراطورية البيزنطية حيث ضعفت تجارتها ، وبدأت عوامل الكراهية بين البنادقة والبيزنطيين تأخذ طريقها الى أن بلغت ذروتها بالقبض على البنادقة ومصادرة أملاكهم فى القسطنطينية عام ١١٧١ م . وقد تطور هذا العداء حتى احتل الصليبيون بمساندة البندقية الامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م .

وأما الكتاب الثانى فيتناول بالتفصيل تاريخ البحرية والاساطيل البندقية التجارية والعسكرية . وعالج المؤلف تطور البحرية البندقية منذ العصور الوسطى وحتى سقوط الجمهورية فى العصر الحديث . وتناول فى فصوله تفصيلات عن الدور البندقى الفعال فى الحروب الصليبية ، والامتيازات التى حصلت عليها البندقية مقابل تلك المساعدة . كما تناول الصراع والمنافسة بين البنادقة والجنوية والبيازنة وأوضح كيف كانت هذه المنافسة من أحسن الدوافع فى اقتحام البنادقة مجال الشرق تجاريا وعسكريا ، الامر الذى ترتب عليه حدوث معارك دامية

بين تلك القوى البحرية الايطالية ٠

كما تحدث المؤلف عن دور البندقية فـى الحملة الصليبية الرابعة ، وكيف تمكن الدوج مـن تحويل مسـار الحـملة الى القسطنطينية بدلا من مصر ، وما ترتب على ذلك من نتائج فى كل من الشرق والغرب ٠

وفى هذا الكتاب تفصيلات حول تنظيـم القوافل التجاريـة وحمولتها ونظمها وصفاتها ، وكذلك المواد اللازم الاتجار بها فى الشرق والغرب ٠ ويفهم مما كتبه هذا المؤلف أن موقف البنادقة فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) كان كان موقفا معاديا لمصر مؤيدا للقوى الصليبية فى الشام ، حتى ظهرت قوة الدولة الايوبية فى عصر صلاح الدين ٠

وكتـاب آخـر هـام هـو The Early History of Venice لمؤلفـه F. C. Hodgson
ولابد لمن يريد دراسة تطور تاريخ البندقية من الرجوع اليه ٠ فقد فقد تناول تاريخها منـذ أقـدم العصور الى نهايـة الحملة الصليبية الرابعة ، اذ تحدث عن تجارتها ودورها فى الحروب الصليبية وخاصة فى الحملات الاولى والثانية والثالثة والرابعة ٠ وأعطى تفصيلات واسعة عن الحملة الرابعة ، وأوضح الـدور القيادى للبنادقة فى هذه الحملة ٠ وتكلم عن دور الدوج داندولو فى قيادة الحملة وتوجيهها بما يخدم مصلحة بلاده ٠ كما تناول مسألة الاتفاق بين الملك العادل الايوبى والدوج البندقى والخاص بتحويل الحملة الرابعة عن مصر الى جهة أخرى مقابل حصـول

البندقية على رشوة مالية وامتيازات تجارية فى مصر • وناقش آراء المؤرخين حول هذه الاتفاقية ، واتهم بعض الكتاب البنادقة بالخيانة • كما تناول بالذكر أهم السلع التى تاجر البنادقة فيها مع العالم الخارجى وخاصة مع مصر وسورية • وذكر أيضا طرق التجارة المؤدية الى الشرق والغرب ودور الاسطول البندقى فى هذه التجارة •

كما تحدث عن احتكار البنادقة لتجارة الملح واهتمامهم بتجارة القمح •

وثمة كتاب آخر له أهمية كبرى هو Venice ومؤلفه يدعى Molmenti • وقد تناول فيه تطور تاريخ البندقية منذ بداية عصورها وحتى سقوطها فى العصر الحديث موضحا كل الظروف التى مرت بها عبر هذه الفترة الزمنية الطويلة ويركز الكاتب على موضوع استقلال البندقية عن بيزنطه مشيرا الى أن الدولة البيزنطية عندما اصطدمت بالنورمان طلبت من البندقية مساعدتها ضدهم فتحولت العلاقة بين البندقية وبيزنطة الى علاقة تحالف ضد النورمان الذين لم يكن البنادقة يرغبون فى ازدياد قوتهم وكان لهذاأيضا أثرهبشكل غير مباشر علىالعلاقة البيزنطية البندقية الايوبية •

وفى الكتاب حديث هام حول مهام السفراء البنادقة وحكامها فى مستعمراتها فى الخارج • وأشار فيه كذلك الى أهم السلع التجارية كالملح والدقيق والحبوب • كما تناول قضية الحصار الاقتصادى والعسكرى وحظر تصدير الاسلحة والمواد المعينة على

الحرب الى مصر والبلاد الاسلامية • وتناول بالتفصيل كيفية ممارسة البندقية لرقابتها على تطبيق قوانينها فى الداخل والخارج • وتحدث أيضا عن نشأة الاسواق فى البندقية وتنظيمها ، كما أشار الى أن الدولة تقوم بالاشراف على صناعة الاساطيل السفن وكيف وضعت نظاما دقيقا لبنائها حتى تصلح للسلم والحرب وكيف منعت انتقال صناع السفن البنادقة الى بلد آخر دون الحصول على اذن من حكومتهم • وتناول الكتاب أهم الصفات اللازمة للتجار وقادة السفن والقوافل التجارية ، وتحدث عن النقود وتطور صناعتها عند البنادقة وقيمة كل نوع منها ، وغير هذا وذاك من المعلومات التى تخدم بشكل أو باخر موضوع البحث •

ومن المراجع الهامة فى تاريخ البندقية أيضا كتاب :
The Venetian Republic ومؤلفه Horatil Brown
وللكتاب أهمية فى نواح كثيرة ، منها كيفية ظهور البندقية وتطورها ونمو قوتها البحرية وتوسعها وانتشار تجارتها • كما تحدث المؤلف عن أسطول البندقية العظيم وذكر الكثير من التفصيلات عن الحملة الصليبية الرابعة ونصوص الاتفاق بين البنادقة والصليبيين وتحول الحملة عن مصر الى بيزنطة • وبالكتاب مادة جيدة حول الاساطيل التجارية والحربية للبندقية التى ساهمت فى عظمة الجمهورية •

وثمة كتاب عظيم الاهمية هو The Makers of Venice للمؤلف Oliphant وقد تناول فيه أعمال حكام البندقية وأدواقها العظام، وأوضح دور البندقية فى عهد الدوج ميشيل الذى شارك فى

الحملة الصليبية الاولى فى الاستيلاء على صور بعد معركة بحرية بين المسلمين والصليبيين فى البحر المتوسط . كما تناول الامتيازات التى حصل عليها البنادقة مقابل مساندتهم للصليبيين وتكوين أول مستعمرة لهم فى مدينة صور ١١٢٤ م لتكون مرتكزا لتجارتهم وتوسعهم فى الشرق الادنى وأوضح دورهم فى الحملة الاولى لدرجة أن الصليبيين عرضوا على الدوج البندقى أن يكون ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية .

وكل هذه المعلومات أفادتنا كثيرا فى الفصل الاول من الكتاب . واشتمل الكتاب أيضا على تفصيل للحملة الصليبية الرابعة ودور الدوج داندولو فيها ، كما اشتمل على تفصيل لتوسع البنادقة وسيطرتهم على جزر ومناطق جديدة كانت مصدرا للثروة والتجارة . وقد استعمر البنادقة تلك البلاد الجديدة ونقلوا اليها عائلات وزوجات مع أطفالهم تحت حماية الجمهورية ورعايتها ونظام هذه المستعمرات كان شبه اقطاعى وأشار الى البندقية وتوسعها على أنه كان مصدر قوتها ورخائها ولكنه كان فى نفس الوقت مصدر ضعفها لكثرة مسئولياتها حول هذه المصالح .

وان الحديث عن الحملة الرابعة بالذات يتصل بشكل مباشر بالاتصالات بين البندقية والايوبيين لتحويل مسار تلك الحملة عن مصر الى القسطنطينية . وكانت المصالح المتبالة بين الفريقين من العوامل التى ساعدت على ذلك .

ومن المراجع الهامة عن تاريخ البندقة كتاب Brown بعنوان "The life on the lagoons" وفى هذا الكتاب فصل حول تطور البندقية السياسى والدور الذى قامت به خلال

الحروب الصليبية وخاصة الرابعة • كما تحدث المؤلف عن تطور نظام البندقية السياسى الى الارستقراطية ثم الى الاوليجركية ، وتوسع فى ذكر نموها التجارى ودور كل من الدوج زيانى والدوج هنرى داندولو فى بناء الدولة، وموقف البنادقة من البابوية فى روما والامبراطورية البيزنطية فى الشرق • وتحدث عن مكانة البندقية عندما تمكنت من عقد مجلس صلح بين البابا الاسكندر والامبراطور فريدريك باربا روسا عام ١١٧٧ م كان من نتائجه عقد هدنة بينهما لمدة عشر سنوات • وغدت البندقية أمام أوروبا دولة كبرى لها مكانتها فى العالم الغربى •

ومن الكتب الهامة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث كتاب History of Latin Christianity للمؤلف Henry Hart

والكتاب هام فى معالجة موقف البابوية من البندقية خلال الحروب الصليبية وخاصة الحرب الرابعة وصدور قرار الحرمان ضد البنادقة بعد احتلال زارا وما ترتب على فتح القسطنطينية من آثار • ورغم الادعاء من أن فتح القسطنطينية سوف يؤدى الى تسهيل طريق الصليبيين للاراضى المقدسة ، الا أن الايام أثبتت عكس ذلك • وتضمن الكتاب علاقة البابا الرومانى مع الامبراطور الالمانى فريدريك الثانى وحملته الى الشرق وصدور قرارات الحرمان ضده وما ترتب على ذلك •

ومن المراجع الهامة فى تاريخ العصور الوسطى كتاب ج • ب بيورى J. B. Bury تحت عنوان «تاريخ كامبردج للعصور الوسطى» The Cambridge Mediveval History وهذا المرجع هام تضمن أحوال البلاد الاسلامية والخلافة العباسية ، وركز أيضا على دور

السلاجقة الاتراك فى تاريخ الاسلام وخاصة تلك الفترة التى تتصل بالحروب الصليبية • وأكد المؤلف أنه لولا السلاجقة لانتهت الحروب الصليبية بغير ما حدث فقد أقلقوا القوى الصليبية بسبب جهادهم ومقاومتهم الشجاعة • وارجع الى السلاجقة العناصر التى كونت دولة الاتابكة عماد الدين ونور الدين وقال بان الوعاء الذى ظهرت فيه العناصر الايوبية أى أسرة صلاح الدين ضمن دولة الاتابكة •

واشتمل الكتاب على موقف البندقية من الحروب الصليبية وابان أنه كان موقفا محايدا فى البداية ، ثم انخرط البنادقة فى الصراع الاسلامى الصليبى بسبب منافسة جنوة وبيزا واغراءات الصليبيين بتقديم كافة الامتيازات التجارية لهم • ولهذا شاركوا فى الحملة الاولى عام ١٠٩٩ وفى الاستيلاء على معظم مدن الساحل الشامى ، ونازلوا الاسطول الفاطمى مما أسهم فى اضعاف الخلافة الفاطمية وتشجيع الصليبيين على أخذ مصر • وبه تفصيل للدور البندقى فى الحملات الثانية والثالثة والرابعة وكيفية احتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤ م ، وكيف آلت السلطة فى القسطنطينية للبنادقة والصليبيين حتى سنة ١٢٦١ م •

تلك نبذة سريعة عن أبرز المصادر والمراجع الاجنبية ، أما أهم الاصول العربية المخطوطة التى اعتمدنا عليها فى هذا البحث فهو مؤلف ابن أيبك (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) المعنون « درر التيجان وغرر تواريخ الازمان » ويتحدث فيه باختصار عن تنقل الدول والحوادث الهامة فى أيام الملوك والسلاطين • كما تناول فيه باشارات بسيطة أحوال النيل والاحوال الاقتصادية فى

العصر الايوبى · وله مخطوط آخر اسمه « كنز الدرر وجامع الغرر » ويقع فى ٩ أجزاء يعنينا منها السابع وهو خاص بتاريخ الدولة الايوبية ، وقد كتبه بطريقة الحوليات · ونراه يهتم بالحوادث السياسية والمعارك الحربية ، وبأمر النيل وزياداته ونقصه وأثر ذلك على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد·

ويتحدث فيه أيضا عن الخلفاء العباسيين · وابن أيبك مؤرخ دقيق فى كتابته صادق فى روايته ·

وهناك مخطوط ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) واسمه « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ويبتدىء الكتاب من السنة الاولى للهجرة · ويستعرض من ولى الحكم فى مصر حتى أواخر الدولة المملوكية بقليل وفيه معلومات بسيطة عن الحوادث مع الفرنج ، لكن لها قيمتها التاريخية ·

ومن مؤلفات ابن دقماق أيضا مخطوط « نزهة الانام فى تاريخ الاسلام » وهو يتضمن بعض تاريخ الدولة الايوبية ابتداء من سنة ٦٣٠ هـ الى سنة ٦٥٦ هـ ·

ومن المخطوطات الهامة أيضا كتاب أبى الفداء (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) واسمه « التبر المسبوك فى تاريخ الملوك » ويتميز أبو الفداء بصدق الرواية ودقة الكتابة · وهناك أيضا مخطوط بامخرمه (عاش فى القرن العاشر الهجرى السابع عشر الميلادى) « قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر » ، ومخطوط البغدادى (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) « عيون أخبار الاعيان ممن مضى من سالف العصر والازمان » ، ومخطوط الذهبى (٧٤٨ هـ /

١٣٤٨ م) « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » ، ومخطوط العصامى « سمط النجوم العوالى فى أنباء الاوائل والتوالى » • ومن المخطوطات الهامة كذلك « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » للعينى (٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) وهو تصوير شمسى يقع فى ٦٩ مجلدا وبه تفصيلات عن تاريخ الاسلام والدولة الايوبية والجهاد ضد الفرنج • وهناك أيضا مخطوط المقدسى (١٠٣٣ هـ / ١٦٢٢ م) « نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » ، ومخطوط الملوانى (عاش فى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى) « تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » ، ومخطوط ابن أبى السرور (١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) « النزهة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » ومخطوط ابن بهادر (عاش فى القرن التاسع هـ / الخامس عشر م) « فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر » وهو مختصر من تواريخ قاضى الحنفية بدر الدين محمود العينى الحنفى •

ويبدأ المخطوط بتاريخ السلطان صلاح الدين الايوبى وبه تفصيل لعلاقاته مع الصليبيين والجهاد الاسلامى ضدهم ثم يستمر فى هذا العرض حتى سنة ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م وفيه مادة جيدة تتعلق بموضوع البحث وهو مصدر هام سهل العبارة ثقة فى روايته •

ومخطوط آخر لابن وصيف شاه هو « جواهر البحور ووقائع الامور وعجائب الدهور » يتضمن أخبارا عن مصر والديار المصرية وما ورد بها من الآيات العظيمة والاحاديث الشريفة وما خصت به دون غيرها من البركة وسير الخلفاء والسلاطين • ويبدأ

تاريخها منذ العصر الفرعوني وحتـــى نهاية الدولة المملوكية ، شأنه شأن غيره من حوليات ذلك العصر ·

وما يعنينا هنـــا أن هذه المخطوطات ـ والمخطوطات المصورة التى لم تنشر بعد ـ تلقي ضوءا واضحا على الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، فى مصر والشرق الادنى الاسلامى ابان الفترة موضوع البحث · وبين ثنايا سطورها نجد بعض المعلومات القيمة التى تتعلق بعلاقات مصر بالبندقية فى العصر الايوبى من كافة جوانبها ·

أما المصادر العربية المطبوعة فكثيرة ، ومن أهمها « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » لابن واصل (٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) الذى عاصر الفترة الاخيرة من الدولة الايوبية· وكان ابن واصل ملما بالاخبار وأيام الناس ، له معرفة بالتاريخ ، وكان مقيما بمصر ابان الحملة الصليبية السابعة كما زارها مرات عديدة قبل ذلك ويعتبر حجة لا يستهان به في تاريخ العصر الاخير من دولة بنى أيوب حيث اتصل بالبلاط فى عهد الصالح نجم الدين أيوب وابنه تورانشاه والسلطانة شجرة الدر · وكان من ألزم الناس الى الامـــير حســـام الدين محمد بن أبى عـــلى نائب السلطة فـــى القاهرة آنذاك · ولذلك ترقي روايته عن أحداث ذلك الزمان الى مرتبة الوثائق الرسمية ·

وكتاب ابن واصل يعتبر مكملا لكتاب جوانفيل والاصول الغربية الاخرى · فقد أفادنا فى توضيح أحوال مصر والشام فى أواخر العهد الايوبى وأبرز الدور الذى قـــام به المسلمون فى

الجهاد ضد الصليبيين في عهد الدولة الايوبية. وأمدنا بمعلومات قيمة فيما يتعلق بالمعارك البحرية التي وقعت بين المسلمين والصليبيين وطبيعة العلاقات بين مصر والبندقية آنذاك . في حين أن ابن واصل لم يتناول الحملة الصليبية السابعة بالتفصيل رغم معاصرته لها .

والكتاب مصدر هام في تاريخ الدولة الايوبية وهو بحق أوفى تاريخ لدولة بني أيوب وقد نشر الاجزاء الثلاثة الاولى الدكتور جمال الدين الشيال حتى سنة ٦١٥ هـ ، ونشر بقية الاجزاء نشرا محققا الدكتور حسنين محمد ربيع .

وجمال الدين واصل الى جانب هذا أفاد من معظم من كتبوا قبله عن هذه الدولة ، كما أضاف وخاصة عند كتابته عن النصف الثاني من تاريخ الايوبيين الكثير من مشاهداته وتجاربه ورواياته عن المعاصرين .

ومن المصادر العربية أيضا كتاب أبو شامه (٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » المعروف بالذيل على الروضتين . ولم يتناول فيه وقائع الحملات الصليبية بالتفصيل أو العلاقات الايوبية البندقية . ويتحدث عن وقائع الحملة الصليبية السابعة واستيلاء الفرنج على دمياط وينقل رواياته عن الناس الذين شاهدوا تلك الاحداث حيث أنه كان مقيما بالشام وقتذاك . وللكتاب أهمية في تاريخ الدولة الايوبية لانه كان معاصرا لها .

وللمؤلف أيضا « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » وهو

مصدر هام فى تاريخ دولة نور الدين والدولة الايوبية ٠

ومن المصادر العربية «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى (ت ٨٤٥ / ١٤٤١ م) ولا خلاف فى احتلال المقريزى مركز الصدارة بين المؤرخين المصريين فى النصف الاول من القرن التاسع الهجرى « النصف الاول من القرن الخامس عشر الميلادى) ٠ ويكفى دليلا على ذلك أن فطاحل ذلك الجيل من المؤرخين فى مصر كانوا تلاميذ المقريزى مثل أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) مؤلف كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ٠

ولا خلاف أيضا فى استحقاق كتاب السلوك أن يحل المحل الاول بين كتب التاريخ فى عصره ٠ وقد كتبه المقريزى ليكون خاتمة مؤلفاته فى تاريخ مصر ، اذ ألف كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا» عن تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين ٠ ثم رأى أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك بأخبار الخلفاء فى تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين » ٠ الاكراد الايوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية الى زمنه فى مؤلف مستقل سماه كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك»٠ والكتاب يقع فى أربعة أجزاء كتبه على نظام الحوليات الشائع فى مؤلفات المؤرخين الشرقيين فى القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدة ٠ والكتاب له أهمية بموضوع البحث حيث أنه زودنا بصورة طيبة عن الاحوال السياسية والاقتصادية والازمات التى تعرضت لها مصر فى الفترة موضوع البحث ٠ وتكلم عن دور الصليبيين فى الحرب مع المسلمين وكان يكتفى بلفظ الفرنج للتعبير عن الصليبيين كافة وهو دقيق فى رواياته وثقة

فى كتابته ·

ومن المصادر العربية « النجوم الزاهرة » في ملوك مصر والقاهرة » ومؤلفه جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى (٨١٣ هـ ـ ٨٧٤ هـ) وهو تلميذ المقريزى ويقع الكتاب فى أجزاء كثيرة نشر منها ١٢ جزء والجزء السادس خاص بتاريخ الدولة الايوبية · وللكتاب قيمة تاريخية عظيمة لما يحويه من تفصيلات عن تاريخ الايوبيين وعلاقاتهم بالصليبيين وأحوال النيل وزياداته ونقصانه وأسلوبه سهل العبارة وهو مصدر هام لابد منه لدراسة تاريخ الايوبيين ومن بعدهم المماليك ·

وينقل أبو المحاسن عن مؤرخين ثقة منهم عماد الدين الكاتب الاصفهانى وابن الاثير وابن شداد ·

ومن المصادر الهامة أيضا « الكامل فى التاريخ » لابن الاثير (٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) وهو معاصر للدولة الايوبية ومعاصر للحروب الصليبية وكان يصف الحوادث بدقة ويتوخى الحقيقة فيما يكتب ·

ومن المصادر الهامة « كتاب البداية والنهاية فى التاريخ » لابن كثير (٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) ويقع فى ١٤ جزءا · والكتاب يعالج تاريخ الاسلام والاجزاء ١٢ و ١٣ خاصان باحداث الحروب الصليبية وكان ينقل عن أبى شامه والذين سبقوه وفيه فوائد لدراسة التاريخ الايوبى · والمؤلف يتوخى صدق الرواية وهو حجة فى التفسير وعلوم الدين ·

ومن المصادر الهامة « رحلة ابن جبير » وقد طاف خلالها ابن جبير (٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م) مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية وذلك فى عصر الحروب الصليبية وخاصة فى عصر السلطان صلاح الدين الايوبى ٠

ولد ابن جبير عام ٥٤٠ هـ أو فى أواخر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) وتوفى بالاسكندرية فى (شعبان ٦١٤ هـ / ديسمبر ١٢١٧ م) وكان أديبا بارعا وشاعرا مجيدا سرى النفس كريم الاخلاق من علماء الاندلس بالفقه والحديث ولم يقم ابن جبير برحلة واحدة بل بثلاث رحلات وأهمها الرحلة المشهورة التى بدأها ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) ولما شاع الخبر المبهج بفتح بيت المقدس على يد السلطان صلاح الدين قوى عزمه على أعمال الرحلة الثانية ، فتحرك من غرناطة فى ربيع الاول ٥٨٥ هـ (ابريل ١١٨٩ م) ثم رحل الثالثة بعد موت زوجته عاتكه أم المجد بنت الوزير أبى جعفر الوقشنى فوصل فى رحلته الثالثة مكة وجاور بها طويلا ثم بيت المقدس ثم تحول الى مصر والاسكندرية فأقام بها طويلا الى أن لحق ربه ٠ وقد وصف هذا الرحالة المدن التى مر بها والمنازل التى حل فيها من هذه الاقطار جميعا وصفا يختلف اسهابا وايجازا وفقا لاهمية الموضع ، فقد عنى فى جميع المدن التى وصفها بالمساجد وقبور الصحابة والمشهورين والمستشفيات والآثار المعروفة ، واهتم فى مصر ببعض النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، وفى بلاد العرب بالناحية الدينية ، وفى العراق بالوعظ والوعاظ ، وفى الشام بالنواحى السياسية والاقتصادية والحروب بين المسلمين والصليبيين ٠ وفى صقلية بالمسلمين تحت حكم الملك غليوم ٠

وطبيعي أنه التفت فى كل مدينة بالامر الـذى اشـتهرت به ٠ والحق أن كتاب رحلة ابن جبير يتضمن بعض المعلومات التى لا يمكن أن يستغنى عنها أى مؤرخ أو جغرافى أو أديب يريد أن يدرس هذه الفترة الهامة فى تاريخ الشرق الاسلامى ٠

ومن أقدم الرحلات المعروفة فى التاريـخ رحلة الشاعـر الفيلسوف ناصر خسرو الذى قام بها فى القرن الخامس الهجرى وعلى وجه التحديد فيما بين عامى ٤٣٧ و ٤٤٤ هـ (١٠٤٥ ـ ١٠٥٢ م) وزار خلالها بلاد ايران وارمينية والشام وفلسطـين والحجاز ونجد وجنوبى العراق ثم عاد الى ايران بعـد أن زار مصر وأعطاها النصيب الاكبر من رحلته ٠ فقد اقام بها أكثر من ثلاث سنوات ذهب أثناءها الى الحجاز ٠ وقد كتب هذه الرحلة المعروفة باسم سفرنامه بالفارسية ، وقام بتعريبها الدكـتور يحيى الخشاب ٠

ومن كتب الرحلات الهامة أيضا كتاب ابن بطوطة (الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى) المعروف بتحفة النظـار فـى غرائب الامطار وعجائب الامصار وعجائب الاسفار ، وتقع فى جزأين ولها أهمية فى دراسة هذه الفترة ٠

فكتب الرحلات هذه تتضمن الكثير من المشاهدات الدقيقة التى أغفلتها المصادر التاريخية المعروفة خاصة وان أصحابهـا عاصروا جانبا من الصراع الصليبى الاسلامى الذى كان مسرحه الشرق الادنى ودونوا مشاهداتهم وملاحظاتهم عن بلاد المسلمين والصليبيين والتى أفدنا منها كثيرا فيما يتعلق بطبيعة العلاقات

التى قامت بين الدولة والايوبية وبين البنادقة ٠

ومن مؤلفات القرن التاسع الهجرى الهامة كتاب ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ / ١٢٠٦ م والمسمى « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وكذلك مؤلفات جـلال الدين السيوطى (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) وأهمها « حسن المحاضرة فى اخبار مصر والقاهرة » وتاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ٠ وكذلك كتاب «شذرات الذهب» لابن العماد المتوفى ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م ، وكتاب الشرقاوى ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الخلفاء والسلاطين٠وكل هؤلاء يعتمدون على روايات السابقين من الكتاب وقد كانوا ثقة فيما نقلوا ٠

ومن الكتب الهامة أيضا كتاب ابن مماتى المتوفى ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ، وقوانين الدواويـن ، بالاضافة الى عشـرات الكتب والمؤلفات من خطية ومصورة ومطبوعة والتى لها قيمتها التـى لا تنكـر فـى دراسـة النواحـى التاريخيـة والجغرافيـة والعلاقات بين الشرق والغرب من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها فى عصر الحروب الصليبية بصفة عامة وابان الفتـرة موضوع البحث على وجه الخصوص ٠

أما المراجع الثانوية من كتب المحدثين من مؤلفى الغرب الاوروبى فقد أخذنا منهاهى الاخرى فى نواحى عديدة،ومن أهمها كتاب « ستيفن رنسيمان » « تاريخ الحـروب الصليبية » فـى ثلاثة أجزاء وكتاب ستون عن تاريخ الحروب الصليبية وكذلك كتابى الدكتور عزيز سوريال عطية « الحـروب الصليبية فـى أخريات العصور الوسطى و « العلاقات بين الشرق والغـرب ،

تجارية ، ثقافية ، صليبية » وكتاب كوك وهو
Studies in the Economic History
وكذلك مجموعة كامبردج فى التاريخ الاقتصادى •

هذا بالاضافة الى مجموعة كبيرة من كتب التاريخ الخاصة بالبندقية والحروب الصليبية باللغات الاجنبية ، وعشرات المراجع العربية الهامة فى تاريخ العصور الوسطى وحضارتها بعامة وفى عصر الحروب الصليبية بصفة خاصة •

الفصــل الاول

أحوال الغرب اللاتينى والشرق الأسلامى منذ قيام الحركة الصليبية وحتى نهاية الخلافة الفاطمية

١٠٩٥ ـ ١١٦٩ م / ٤٨٧ ـ ٥٦٥ هـ

أولا ـ البندقية : موقعها وأهميته ـ تأسيسها ـ اسـتقلالها ـ توســعها ونموهــا ـ ظروفهــا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ٠

ـ ظهور البندقية كقوة بحرية فى البحر المتوسط ٠

ـ البندقية والروح الصليبية ٠

ـ استعراض أحوال بقية دول الغرب الاوروبى ٠

ثانيا ـ مصــــر : ظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية الخلافة الفاطمية ٠

ـ الجهاد فى الاسلام وأثره فى مقاومة الصليبيين ٠

ـ ظهور حركة الافاقة الاسلامية فى بواكير القرن السادس الهجرى (بداية القرن الثانى عشر الميلادى) ٠

ـ طبيعة العلاقات بين البندقية والفاطميين فى مصر حتى نهاية دولتهم ٠

ـ القوى الاسلامية الاخرى فى الشرق الادنى ٠

سقطت روما فى يـد البرابرة عام ٤٧٦ م وبذلك انهارت الامبراطورية الرومانية القديمة وقامت على انقاضها فى الغرب الاوربى ممالك جديدة بهـا أنظمة وحضـارة جديدة مغايرة ، وبسقوطها تبدأ البذور الاولى لعصر الاقطاع الذى ساد الغرب الاوربى خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ . وقـد بلغ هـذا النظام ذروته خلال القرن الثانى عشر الميلادى والعقود الاولى من القرن الثالث عشر عندما أصبح يشكل هرما اقطاعيا فـى قمته السادة ملاك الارض (١) . وهكذا ساد الغرب الاقتصـاد الطبيعى أو الاقتصاد الاقطاعى عندما غـدت القرية هـى صلب المجتمع وأصبحت حضارته حضـارة زراعيـة ريفية ، ترتبط بالارض وفلاحتها . وعلى هذا أصبحت التجارة فى حكم المعدومة لان اقتصاد الاقطاع لم يكن يسمح بنموها وازدهارهـا (٢) ، ولكنها لم تتوقف تماما ، فلاشك أنه كانت هناك بعض المـدن هيأت لها ظروفها الاشتغال بالتجارة عـلى الرغم من سيادة نظام

---

(١) Stephenson, Medieval Feudalism, p. 97, Bloch Feudal Society, pp. 59 - 71, Coulton, Mediaval panorama, pp. 45 - 56.

أنظر أيضا : كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ص ١٥ ـ ١٦ .

(٢) Stephenson, Feudalism, p. 97;

انظر :

ديفـز : أوربا فى العصور الوسطى ص ٨٨ ـ ٩٣ ،جوزيف نسيم : دراسات أثرية وتاريخية : علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية ص ٦١ ـ ٦٢ .

الاقطـاع • ومن هذه المدن البندقية بسبب موقعها الجغرافـى على البحر •

فاذا ألقينا نظرة عـلى خريطـة أوروبا نجـد أنه يقع فى شمال ايطاليا سهل منخفض كثير المستنقعات متغير الحال بفعل المـاء ، ويمتد من نهـر رينو Reno الى نهـر ايزونسو Isonzo ومـن بلـدة رافنـا Revenne الى بلـدة أكويليا Aquilee ، وذلك على طول الساحل الشمالى الغربى للبحـر الادرياتي • وفى هذا السهل تنحدر الانهار العظيمة التى تنبع من جبال الالب متجهـة نحو البحـر بطيئة متوانيـة وهى تحمل الغرين الذى جمعته أثناء سيرها الطويل من منحدرات الجبال والسهول فتلقى هـذه الرواسـب قبل أن تختلط بمياه بحـر الادرياتيك • ومن ثم كان اليابس فى هذا الاقليم المنخفض لا يبرح يزحف عـلى البحـر • وتمتد أمـام الشاطـىء خطوط طويلة من الرمال عرفت باسم الليـدى Lidi ، تقطعها مـن مكان الى آخـر مصبات الانهار التى حملت هـذه الرواسب • وخلف هذه الخطوط الساحلية الغرينية تمتـد مسافات واسعة من المياه الضحلة ، وهى عبارة عن خلجـان يتخللها أرخبيـل من الجزر الصغيرة المتناثرة • وبهذا تكون بمحاذاة الشاطـىء سـهلا وسطا بين اليابس والمـاء ، وهو ذلك السهل الذى عرف

باسم « أراضى البندقية المنخفضة » (٣) وتتغير معالم هذا الاقليم مرتين فى اليوم تبعا لارتفاع مياه الادرياتيك وانخفاضها بسبب المد والجزر ، فاذا ما ارتفع الماء طفى على كل شيء ما عدا بضع جزائر تعلوها الابراج ولا يبرز على سطح الخليج الا الاوتاد أو الدعائم التى تقام فوقها الابنية الخشبية والتى تحيط أيضا بالاغوار وتحدد القنوات الصالحة للملاحة • واذا تراجع الماء فى حالة الجزر يظهر سهل تغطيه الاعشاب النباتية الخضراء وتشقه القنوات الملاحية المنعرجة الملتوية •

كما تظهر فى المنطقة أيضا الاغوار تتلألأ فيها المياه الراكدة بالاضافة الى مجموعة من الجزر التى لا يصلها الماء (٤) • وهذا الاقليم متغير الاحوال بفعل ما تجلبه الانهار حينا واغارة البحر على اليابس حينا آخر ، ولهذا السبب كانت مدن فيما مضى تقع على الشاطيء فاذا بها بمرور الزمن

---

(٣) أبوالفداء: تقويم البلدان ص ٣١١،شيخ الربوة: نخبة الدهر فىعجائبالبر والبحر ص ١٤٣ ، شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (الترجمة العربية) ص ٧ _ ٨ راجع أيضا :

Pirenne, Economic and social History of Medieval Europe, p. 27; Pirenne, Histoire Economique de l' ocident Medieval, p. 180; Wiel, Navy of Venice, pp. 314 - 315;

Penrose, A'short History of the Italian people, pp. 88 - 89; Daru, Histoire de Venice, part, I, p. 5, 17 - 18, 34 - 35

(٤) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (الترجمة العربية) ص ٨ •

تبتعد عن البحر وتصبح في داخل اليابس ، وذلك بسبب الرواسب التى تسببها الانهار ، وقد أصبحت تبعا لذلك مدينتا رافنا واكويليا من مدن اليابس . ولو أن البنادقة لم يحولوا مجرى نهرى برنتا Brenta وباكيليونى Becchiiglione الى الجنوب ومجرى نهر سيل Sile الى الشمال لاصبح خليج البندقية ذاته مهددا بالانسداد بفعل الرواسب النهرية كما أن البحر الادرياتيكى يأكل الارض وينقلها فتكون بذلك على طول الساحل اقليم مزدوج سهل منخفض بالقرب من الارض اليابسة تكثر به المستنقعات ويعرف هذا السهل « بالخليج الراكد » . ثم بحيرة كبيرة بالقرب من البحر تنتشر فيها الجزائر الصغيرة وتتصل بالبحر وتعرف باسم « الخليج الحى » ، وذلك نتيجة للمد والجزر والرياح القوية التى تتعرض لها . وعلى هذه الجزر الصغيرة تأسست مدينة البندقية خلف الرمال التى تحميها (٥) .

وأهم المدن الساحلية فى شمال ايطاليا هى رافنا Ravenne والتينوم Altinum وكونكورديا Concordia واكويليا Aquileé ، وهذه جميعا كانت موانىء أمامية على البحر . وقد استفاد أهل هذا الاقليم من الاسماك والملح ولكن تدخل خلجان البندقية القريبة من هذه المدن فى سجل التاريخ الا

---

(٥) Brown, The Life on the Lagoons pp. 1 - 14.

ثم انظر : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية (الترجمة) ص ٨ ـ ٩ .

في بداية القرن الخامس الميلادى ، وذلك نتيجة لتعرض ايطاليا لغزوات البرابرة من القوط الغربيين بقيادة الاريك Alaric والهــون بزعامة أتيــلا Attila وهجمات القوط الشرقيــين والفرنجة واللومبارديين في القرن السادس الميــلادى • ونتيجة لهذه الغزوات حل الدمار وانتشر الرعب في البــلاد المزدهرة واضطر الاهالى الى الهرب فارتادوا ذلك المأوى الطبيعى الذى هيأته لهم جزائر الخليج البندقي ، والتى كانت فى منأى مــن الخطــر فى ذلك الوقت • حقيقة لم تحدث الهجرات الى هــذا الخليج في وقت واحد ، ولكن عــلى فترات متلاحقة ، وكــان المهاجرون يعودون الى مدنهم بعد هدوء الاحوال ، حتى اذا كان الغزو اللومباردى اضطر سكان المدن الايطالية مــن جديد الى اللجوء الى الخليج البندقي ولم يخرجوا منه بعد ذلك • كما نقل الاساقفة الى هذه الجزائر الاثار المقدسة وكنوز كنائسهم حتى يثبتوا أقدامهم فيها لانها أصبحت لهم مستقرا آمنــا بعيدا عن الخطــر (٦) •

ويمكن القول أن تاريخ البندقية يبــدأ بالغزو الهونى • فقد بدأت به عملية نمو البندقية ووجدت شعبا جديــدا مــن المهاجرين الذين آووا الى خليج البندقيــة بحثــا عن الامــان

---

(٦) Daru, Histoire de Venice part, I, pp. 13 - 14, 19 - 20 Brown, The Life on the lagoons, pp. 15 - 16; Venice. past and present, pp. 5 - 12.,

انظر أيضا : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ٩ •

والطمأنينـة (٧) ٠

ولقد آوت بلـدة جرادو Grado الواقعـة فـي دلتـا نهر ايزونسو Isonzo الهاربين من اكويليا ٠ وأصبحت مدينة جرادو كبيرة ولم يلبث أسقفها أن حمل لقب البطريق وصار الرئيس الدينى لاقليم البندقية الجديد (٨) ٠

لقد كانت جرادو هي المركز الدينى لاقليم البندقية فـي مستهل تكوينه ، وذلك في القرنين السادس والسابع للميلاد ٠ أما مركزه السياسى فهو هرقليانا ومركزه التجارى تورشلو(٩)٠ وبقيت الاخيرة حتى القرنين العاشر والحادى عشر أكبر المدن التجارية فى الخليج البندقى ، ثم طغت عليها الرمال تدريجيا وأصبحت غير صحية فهجرها أهلها واضمحل شـأنها فى حـين ازدهرت البندقية وازدادت نموا وتقدما (١٠) ٠

هذه نبذة سريعة عن التاريخ المبكر للبندقية وجغرافيتها وطبوغرافيتها، أمافيما يتعلق بتأسيسها فقدكان حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى بعد غزو الهون لشمال ايطاليا بقيادةأتيلا

---

(٧) Daru, Histoire de Venice part, I, p. 15; Brown, The Life on the Lagoons pp. 17 - 18.

(٨) Daru, Histoire de Venice part, I, pp. 19 - 20.

وانظر أيضا شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ٩ ٠

(٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٠ ٠

(١٠) المرجع السابق ص ١٢ ٠

عام ٤٥١م تقريبا (١١)٠ وكلما أختفت البندقيات الصغيرةالتى كانتالاصول الاولىلمدينة البندقية،فان الاخيرة كانتتزداد نموا وازدهارا مستفيدة من المنافسات التى تحدث بـين مدن الخليج المختلفة التى كانت تتنازع عـلى السيادة ، كما استفادت مـن الصراع العنيف الذى قـام بين هرقليانا وايزولا ٠ فى حـين فتحت البندقية أبوابها للمنفيين الذين يلجأون الى مالاموكو أو ريالتو ٠ ومنـذ سنة ٧٧٤ م أصبحت مجموعة الجزائر التـى يسكنها البنادقة آهلة بالسكان ، فاستوجب ذلك انشاء أسـقفية خاصة لجزائر ريالتو فى أوليفولو منفصلة عن أسقفية مالاموكو، وفى عام ٨١٢ م انتقل مركز اقامـة الدوق الى ريالتو لتبـدأ مرحلة جديدة فى تاريخ البندقية ، وكان قبلا يقيم فى هرقليانا ثم فى مالاموكو ٠

وانتقلت الاسرات الارستقراطية الى ريالتو حيث تجتمع حول الزعيم السياسى فى العاصمة الجديدة للخليج البندقى٠وفى عام ٨٢٨م بنى الدوق جستنيان بارتشياكو « كنيسة القديس مرقص»،فأعطى المدينةهيبةدينية وزادمن أهميتهاالسياسية ، ثم انتقل الى البندقية كل من شعر بخطر على وجوده بعيدا عنها فى الارخبيل البندقى وسكنوا فـى البندقية ، حتـى اذا ما أقبل

---

(١١) Hare, Venice, pp. 5 - 6; Pirtnne, The Tides of History, vol, II, pp. 118 - 119.

منتصف القرن التاسع الميــلادى كانت مدينة البندقية المركــز السياسى للاقليم فى حين اضمحل شأن جرادو منافستها فى ميدان التجارة • وعــلى اطلالها بدأت البندقية تســير نحو مستقبلها المجيد (١٢) •

وأما عن أحوال البندقية السياسية فيلاحظ أنه منذ أن بدأ الغزو اللومباردى عام ٥٦٨ م لايطاليا بدأ ارتباط البنادقة مع بيزنطه وذلك لوقوف البنادقــة الى جانب القائــد البيزنطــى بليزاريوس فى حروبه ضد العناصر الجرمانية • وتحولت علاقة البندقية مع بيزنطه بمرور الايام الى علاقة تحالف وليس تبعية • وفى هذه الفترة بدأ حكم الترابنة ـ أى لجنة مركزية تقــوم بحكم الجزر ـ وذلك حوالى عام ٥٦٨ وكان ذلك هو الشكل الاول لحكومة البندقية • وفى عام ٦٨٧ م تــم انتخــاب أول دوق للبندقية (١٣) • وفى عام ٧١٣ م تقريبا وقع اتفاق بين الدوق الاول للجمهورية البندقية مع ملك اللومبارديين حيث حصــلت

---

(١٢) Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 6 - 8, 20 - 22; Venice; past and present, pp. 5 - 12; Brown, The life on the Lagoons, pp. 21 - 23; Penrose, A short History of the Italian people, p 91; Bury, Cambridbe Medieval History p, 388;

انظر أيضا : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٣ ، ١٦ ،

(١٣) Molmenti, Venice, part, l, pp. 115 - 116; Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 12 - 13; Bowle, The Unity of European History, p. 117;

هذا فى حين ذكر أن أول دوق للبندقية انتخب عــام ٨١١ م

البندقية على امتيازات تجارية فى الموانىء اللومباردية (١٤) ٠

وكان فى البندقية فى هذه الفترة حزبان أولهما يميل الى الارتباط بالامبراطورية البيزنطية كما أنه يؤيد وجود دوق وراثى ويسمى أعضاؤه بالاستقراطيين أما الحزب الثانى فكان يرى أنصاره تدعيم الروابط مع البابوية الرومانية وبعد ذلك مع الفرنجة وذلك على حساب العلاقات مع بيزنطة ، وهؤلاء يسمون بالديمقراطيين ٠ وفى عهد الامبراطور شارلمان ساءت العلاقات بينه وبين البنادقة ، فاضطرت البندقية الى الاتجاه الى بيزنطة ٠ وكان لذلك أهميته فقد تجنبت البندقية بتبعيتها لبيزنطه النظام الاقطاعى وكل العوامل التى أدت الى اضطراب بقية ايطاليا والغرب وأتاح ولاؤها للبيزنطيين الاستقلال والعظمة معا (١٥) ٠

وفى الفترة ما بين سنتى ٨٤٠ و ١٢٢٠ م عقدت سلسلة من المعاهدات مع خلفاء شارلمان فى ايطاليا وكذلك مع الاباطرة والالمان وكانت هذه الاتفاقات تتضمن استقلال البندقية واقامة صلات طيبة مع الاباطرة الجرمان فى القرن العاشر ٠

وبالرغم من هذا فقد كانت علاقات البندقية مع بيزنطه أوثق بكثير ، اذ كانت تضع أساطيلها فى خدمة الدولة

Penrose, A short History of the Italian people p. 91.
Henry, The Historians History of the World, Vol, IX, p. 307.

(١٥) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٨ ـ ١٩ ٠

البيزنطية لقتال القراصنة في البحر الادرياتي ومقاومة المسلمين في ايطاليا الجنوبية • فقد ذهب الدوق بنفسه عام ١٠٠٢ م لنجدة مدينة بارى جنوب ايطاليا وتخليصها من أيدى المسلمين الذين كانوا يحاصرونها • ولقيت البندقية من وراء تحالفها مع بيزنطة ضمانا كبيرا لاستقلالها وميزات لا تقدر لتجارتها ، فقد كانت ثروتها وعظمتها ومستقبلها تتوقف على نموها الاقتصادى المستمد من علاقات البندقية بالشرق وخاصة بيزنطة •

وفي أواخر القرن العاشر الميلادى تمكنت البندقية من اخضاع اقليم دالماشيا لسيطرتها بعد أن قضت على القراصنة هناك وذلك بعد توسعها في البحر الادرياتيكي فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، وأصبح لها قوتها ومكانتها بحيث أطلق على الدوق لقب دوق البندقية ودالماشيا (١٦) •

ومنذ انتخاب أول دوق للبندقية ولمدة قرنين من الزمان تميزت البندقية بنمو تجارتها في المناطق المجاورة ، كما حازت على امتيازات تجارية عديدة • وظهر خلال هذه الفترة ما

---

(١٦) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٩ ـ ٤٠ •
وانظر أيضا :

Molmenti, Venice, part, I, pp. 115 - 116;
Brown, The life on the lagoons, pp. 24 - 27;
Glubb, The Empire of the Arabs, p. 144.

شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٥ ، ٦٧ ـ ٦٨ •
ثم راجع أيضا : Daru : Histoire de Venice, part, I. pp. 23 - 25.

بين سنتى ٨١١ ـ ١٠٣٢ م ثلاث أسرات قوية لعبت دورا بارزا فى تاريخ البندقية وهى أسرة Particiachi وأسرة Candiani والاخيرة أسرة Orseoli وحاولت كل أسرة من هذه الاسرات الثلاث الوصول الى منصب الدوق وجعل هذا المنصب ملكيا وراثيا ، وانتهى هذا العهد بفشل محاولات الارستقراطية فى اقامة دوق وراثى كما تم انشاء مجلس استشارى ومجلس شيوخ (١٧) ٠

وكانت البندقية قد حصلت على استقلالها عن بيزنطه حوالى أواسط القرن العاشر الميلادى وهو الاستقلال الذى ولد من وراء هذا الثراء المادى والكسب التجارى الامر الذى جعل القوى البحرية الاخرى ، وفى ايطاليا على وجه الخصوص . تعلن منافستها بل كراهيتها ومعاداتها للبنادقة ٠ هكذا بدأت البندقية فى تدعيم نظامها وارساء قواعد عظمتها والتوسع فى تجارتها وزادت مكانتها فى القرن الحادى عشر حيث قدمت المساعدات للامبراطورية البيزنطية فى حربها ضد النورمان ، فزاد ذلك فى قدرها وحصلت على امتيازات واسعة عام ١٠٨٤ م حيث سيطر البنادقة تماما على البحر الادرياتى (١٨) ٠

---

(١٧) Bowle, The unity of European History, p. 114.

(١٨) Molmenti, Venice, part, I, pp. 115 - 116, 118 - 119, Crawford Cleaning from Venetion History Vol. I, p. 94; Pirnne Medieval Cities, p. 61, Tides of History, Vol, II. p. 84; Bury, Cambridge Medieval History, p. 395 - 396;
Lewis, Navel power and Trade, p. 71; Glubb, The Empire of the Arabs, p. 146; Cambridge Economic History vol, III. p. 61; Elton, Medieval Monarchy in Action, p. 42.

وبقيام الحروب الصليبية في أواخـر القرن الحادى عشر عشر الميلادى ومشاركة البنادقة فيهـا ، استفادت البندقية بأن حصلت على امتيازات تجارية فـى عدد من مدن الشـام الساحلية مثل صيدا عـام ١١٠٢ م / ٤٩٦ هـ وصـور عـام ١١٢٣ م/ ٥١٧ هـ • وبنهاية القرن الثاني عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) وصلت البندقية الى درجة عظيمة فـى قوتها البحرية ونشاطها التجـارى وخاصـة بعد احتـلال الصليبيين للامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤ م / ٦٠١ هـ ، كما حصلت على امتيازات هائلة في موانيء الشام اللاتينية • ومن أشـهر حكام البندقية في هذه الفترة الدوق هنرى داندولو ١١٩٢ - ١٢٠٥م، الذى وضعأساس عظمة البندقية وكان نموذجا لاولئك الاشراف مـن البنادقة الذين جمعوا بـين التجـارة والسياسة والجندية والدبلوماسية ، والذين استطاعت ارادتهم وعزيمتهم أن تشكل الحوادث في سبيل خـدمة الجمهورية ، ومنذ هـذه الفتـرة يبـدأ فـى البندقية عصـر يتميز بالبنـاء والضغط الاوليجاركى المتزايد بحيث تطورت الحكومة حتى أصبحت هيئة مساهمة مقصورة على الاسر الكبرى • وكان هذا بداية النضال ضد القوى البحرية المنافسة وخاصة جنوه الذى اشـتد معهـا الصراع فـى النصف الثانى مـن القرن الثالث عشر الميـلادى (والنصف الثانى من القرن السابع الهجرى) ، ولاشك أن هذا الصراع كان من أهم أسبابه ان لـم يكن أهمها عـلى الاطلاق ،

المنافسة على ميادين التجارة وأسواقها بالشرق الادنى وخاصة فى مصر الايوبية (١٩) ٠

وأما موقف البندقية من الصراع الذى قام بين الامبراطورية والبابوية فقد استطاعت عام ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ ان تظهر بمظهر المحايد وأمكنها أن تسوى الخلافات بين الامبراطور فريدريك بارباروسيا والبابا اسكندر الثالث وذلك فى مؤتمر خاص عقد لهذا الغرض فى البندقية (٢٠) ٠

ولقد أعجب بها من زارها وأشاد أحد المؤرخين بقوله « وكانت الجمهوريات الكبيرة الايطالية محكمة الاساس ثابتة النظام زيادة عن اخواتها فى الجمهوريات الصغيرة ٠ فكان أول هذه الجمهوريات فى حسن النظام وجودة الاحكام جمهورية

---

(١٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٤ ـ ١٧ ، ٤١
ورنسيمان : الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ وراجع أيضا :
Daru : Histoire de Venice, part, I, p. 40;
Okey, Venice and its story, pp. 57 - 59, 69 - 70 ;
Venice past and present, pp. 25 - 28;
Brown, The life on the legoons, pp. 24 - 27;
Balzani, Italy, pp. 292 - 293.

(٢٠) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٩ ٠
سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ ، ٣٨٧ ٠
وانظر أيضا :
Bury, History of the Middle Ages, pp. 303 - 306; Brown, The Life on the lagoons, pp 27 - 39; Henry Hort, History of Latin Christianity, vol, III, pp. 535 - 538.

فينيسيا .... مع أنها كانت مستقلة فعلا الا أنها كانت اسما تحت طاعـة الامبراطور الشرقـي (أى البيزنطى) . وبسبب حيادها وابتعادها عن الحروب التى رجت ايطاليا فانها استمرت مدة ستة قرون من انشائها مستقلة بأعمالها عاكفة على تقدم تجارتها حتى صارت فى القرن الحادى عشر أقوى مملكة فـى ايطاليا ودامت عـلى اشغال تجارتهـا المشهورة ، وكانت هـى الجمهورية الوحيدة الايطالية التى « ما طأطأت رأسها لطاعـة الامبراطوريات الجرمانية ولا استقر قـرار أى دولة أو شوكة أجنبية فى داخل أسوارها لحد ذلك الوقت .. » (٢١) وقـال المؤرخ الفرنسى « شارل ديل » لقد أصبحت البندقية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر احدى الدول الكبرى فى العالـم الاوروبى » (٢٢) . وشهد أحد أعـداء البندقية بعظمتها وهو « وليم الابولى » النورمندى فوصفها بأنها المدينة « الغنية بالمال والرجال » واستطرد قائلا أنه « ليس فى الوجود شعب أشـد من البندقية شجاعة فى الحروب البحرية وأوفر علما وفن قيـادة السفن » (٢٣) ، ووصلت البندقية فـى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (أواخر القرن السابع الهجرى) الى درجة عالية من القوة ، فقد وضع البنادقة فى ذلك الحـين أسس جمهورية تجارية تتحكم فى تجارة الشرق كله . فكانت لهـم مستعمرات

---

(٢١) محمود فهمى : البحر الزاخر جـ ٣ ص ٤١ .

(٢٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٩ .

(٢٣) انظر قول وليم النورمندى فى كتاب شارل ديل ، وانظر أيضا :
Daru, Histoirede Venice, part, I, pp. 38 - 47.

تجارية واسعة فى شرقى البحر المتوسط وكذلك الحـال فى كل من بحر ايجـه والبحـر الاسود (٢٤) ٠

وأمـا أحوال البندقيـة الاقتصادية فانها كانت تعتمد فـى الدرجة الاولى على التجارة ٠ وأما بالنسبة للزراعة فان مدينة البندقية لم تكن ذات أراض زراعية ولعل هذا السبب كان مـن العوامل الجوهرية فى نهضتها التجارية تعويضا عن قلة أراضيها الخصبة ٠

هذا بالاضافة الى أن المدن فى العصور الوسطى وخاصة فى القرن الثانى عشر الميـلادى كان العامل الاساسـى فـى قيامها وازدهارها هو نشاطها التجارى (٢٥) ٠ فضلا عن أن النظـام الاقتصادى القائم على النشاط الزراعى كان يتعارض مع حياة المدن التى تقوم أساسا عـلى التجارة والصناعة ٠ ولذلك اضطر أهلها الى ركـوب البحـر بسبب موقع بلادهـم وضيق المساحة وأحوالهم السياسية (٢٦) ٠ ولقد كانت البندقية فى حاجة الى

---

(٢٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٠٢ ٠

(٢٥) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية فى العصـور الوسطى ص ٢٦ ،
هارتمان : الدولة والامبراطورية فى العصـور الوسطـى ص ١٥٨ ،
Pirenne, Histoire Economique, pp. 180 - 181;
Stephenson, Medieval Feudalism p. 93; Jacob, The legacy of the middle Ages, p. 437.

(٢٦) Pirenne, The Tides of History, vol, II, p. 80, Bowle, The unity of European History, pp. 165 - 166,Elton Medieval Ponorama, p. 294; Newton, Travel and Travellers in the Middle Ages, p. 113; Lewis, Shipping and Commerce in Northern Europe, p. 184;

المنتجات الزراعية ولذلك اضطرت الى الاخذ بنظـام الاقتصاد النقدى • ولذا كان لابد لهـا من أسطول بحـرى تجارى ليزيد من قوتها التجارية التى ازدادت بالفعل منذ عام ٨٤٠ م بفضل الامتيازات التجارية والاعفاءات التى منحها لهـا الاباطـرة فى القسطنطينية (٢٧) وقال « أرنست باركر » ولـم يكن لـدى المدن الايطاليـة ، باستثناء البندقية المحظوظة مـا نالته مـن احتكارات، من الدواعي ما يجعلها في ود مع مدينة القسطنطينية المشهورة باحتكاراتها » (٢٨) •

وكانت الحروب الصليبية فرصـة طيبـة لتحقيق مكاسب تجارية فى الشرق اللاتينى ، فكان للبنادقة دور بارز فى الحملات الصليبية الاولى ، وحصلت على امتيازات تجارية فى المدن التى شاركت فى احتلالها وذلك مقابل خدمـات تؤديها للصليبيين • وكانت قد عقدت صلات تجارية مـع المسلمين بالرغـم من أن التجارة مع المسلمين كانت محرمة بقرارات بابوية فـى بعض

---

(٢٧) هارتمان : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ص ١٥٦ ،
Lewis, Naval Power and Trade, p. 158; Lewis, Shipping and Commerce, p. 445; Prenne, Histoire Economique, p. 181.

(٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٩ ـ ٢٠ ،
أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ٣٤ ، سعيد عاشور : النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى ص ٢٧ ، ثم انظر :
Heyd, Histoire du commerce, vol, I, pp. 142 - 143;
Brehier, L'Eglise et L'orient au Moyen Ages, les croisades. p. 322.

الاحيــان • وكان للبنادقة فى أواخر القرن العاشر ـ أى قبل قيام الحركة الصليبية بقرن من الزمان ـ قد أرسلوا سفراءهم الى حلب ودمشق والقاهرة والقــيروان وبالرمو فــى صقليه ، وحصلوا مــن الحكام المسلمين عــلى امتيازات تضمن الترحيب بالتجار البنادقة فــى البلاد الاســلامية المذكورة (٢٩) • وكانت البندقية هــى الوسيط الوحيد بين الشرق والغرب وبكلمة أخرى كانت همزة الوصل بين شقى العالم وقتذاك ، كما كانت أسواقها من أنشط أسواق الغرب التجارية • ومما يدل على حب البنادقة جميعا للتجارة أن الدوق نفسه كان يشتغل بالتجارة ، ومن ثم ساهم الشعب بجميع طبقاته فى بناء عظمة البندقية (٣٠) وتبعا لتنظيم التجارة ونموها ازدادت المدن تقدما، كما اتسعت الحاجة الى المنتجــات الزراعيــة ونهضت الصناعــة وتقدمت الاعمــال المصرفية (٣١) •

---

(٢٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٠ ، رنسيمان : الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٦١ ،
Bury History of the Middle Ages, pp. 278 - 279;
Heyd, Histoire du Commerce, l, pp. 142 - 144;
Guillaume de Tyr, pp. 459, 579;
Michaud, Histoire des Croisades, vol, II, p. 63.

(٣٠) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٠ ـ ٢١ •
Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, pp. 34 - 35.

(٣١) Pirenne, Histoire Economique, p. 181;
Pirnne, The Tides of History, vol, II. p. 119; Jacob, The Legacy of the Middle Ages, pp. 437 - 443.

وأما بخصوص الصناعات البندقية فـي ذلك الوقت فقـد استغل البنادقة الاموال التى حصلوا عليها من الكسب التجـارى فى اقامة المعامل والمصانع التى تعود عليهم بالغنـى وتنميـة الثـروة (٣٢) ٠

وأما عن الاحـوال الاجتماعية فى البندقية فـان المجتمع البندقى كان منظما مترابطا كما هو الحال فى التنظيم الاقتصادى وكان البنادقة يحرصون على ذلك لمـا لـه من أهمية فـى حفظ كيان جمهوريتهم وتحقيق مآربهم ودفع عدوهم ٠ وعلى الرغـم من أن الطبقة الارستقراطية كانت قليلة العـدد بالنسبة لبقية الطبقات الاخرى فانها لم تستطع الادعـاء بأنها وحدهـا تؤلف المدينـة كلهـا ٠ ولذلك تمكن الاشراف ببراعتهـم أن يجعلوا للطبقات الاجتماعية الاخرى نصيبا معينا فـى العمل المشترك الذى يعود بالنفع على الجميع ٠ ومن ثم سادت روح التعاون بين جميع الطبقات وأصبح هدف الجميع حماية البندقية والمحافظة على عظمتها (٣٣) ٠ وقد لقى كل فرد فى المجتمع البندقى جزاء نشاطه عملا مجزيا ، ولـم تعرف البندقية قط طبقة الفقـراء المعدومين وجميع طبقات الشعب كانت تؤثر المصلحة العامة أولا وقبل كل شىء (٣٤) ٠

---

(٣٢) محمود فهمى : البحر الزاخر ص ٣ ـ ٤٢ ٠
Venice, past and present, pp. 51 - 52.

(٣٣) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

(٣٤) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٩٠ ـ ٩١ ،
Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 15 - 16.

ولا شك أن البنادقة اعتمدوا على قوتهم البحرية فى توسعهم فى الخارج وحفظ بلادهم فى الداخل وحماية مصالحهم فى كل مكان . كما أن سياستهم كانت تقوم على ضرورة المحافظة على القوة البحرية ، فهى مصدر النشاط الاقتصادى علاوة على أهمية أساطيلها فى ابراز مكانتها السياسية والعسكرية . ومن ثم فان البنادقة اهتموا ببناء أساطيلهم منذ البداية وعن طريقها أمكنهم الحصول على الثروات ، وقاموا باتصالات تجارية فى مختلف البلاد / وان امتلاك البندقية لعدد ضخم من السفن جعلها فى مركز قوى فى السياسة والحرب والتجارة على السواء. فقد كان عند البنادقة ثلاثة آلاف سفينة تعرف باسم Vessel (٣٥) تحمل سبعة عشر ألف بحار ، ولهم أكثر من ثلاثمائة وخمسة وأربعين سفينة من النوع المسمى Galleys (٣٦) مزودة بتسعة عشر ألف بحار وستة عشر ألف نجار يعملون فى ترسانة

---

(٣٥) سفينة ذات حمولة كبيرة تسير فى البحار تستعمل فى الحرب والاغراض السلمية .
انظر :
A new English Dictionary on Historical prenciples, vol, x, part, I, p. 158.

(٣٦) سفينة حربية كبيرة استخدمها البنادقة فى العصور الوسطى . وتسير بالمجداف انظر :
A New English Dictionary vol, IV, part II p. 24 - 25
انظر أيضا : تاريخ البحرية المصرية ص ٤٠٠ ـ ٤٠٢ .

السفن ، وكانت البندقيـة تضرب من النقـود سنويا مليـون دوكات (٣٧) من الذهب ومائتى ألف قطعة فضية وثمانين ألف من الصولدى (٣٨) وكانوا يدفعون حوالى خمسـين ألفا مـن الدوكات لمصر وسـوريا سنويـا قيمة بضائـع يشترونهـا من البلدين (٣٩) • وكان البنادقة مهتمون بتطوير بحريتهم حتى ينافسوا بها خصومهم •

لعلنا نخلص من العرض السابق الخاص بتاريـخ البندقية وموقعها وجغرافيتها ونموها التجارى الذى جعلها تتفوق عـلى منافسيها من المدن التجارية الاخرى ، كيف قـدر لهـا أن تلعب دورا كبيرا وخطيرا فى ذات الوقت عندما احتدم الصراع الصليبى الاسلامى فوق رقعة الشرق الادنى منذ بداية الحركة الصليبية فى أخريات العصر الفاطمى اذ عندما قامت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى) اشترك فيها بعض الامراء وكثير من الناس من فرنسا وايطاليا وأسبانيا وأيضا من البلدان البعيدة •وكانت القوى

---

(٣٧) الدوكات عملة ذهبية استخدمت فى معظم أوربا استخدمت فيها الفضة فى ايطاليا• قيمتها حوالى ٣ شلنات واستخدمت فى عهد الدوج داندرلو فى البندقية الدوكات الذهبية وكانت تعادل ٩ شلنات ، أنظر :
New English Dictionary vol, III, p. 699.

(٣٨) الصولدى عملة ذهبيـة استعملت فى الامبراطورية الرومانيـة ثم فى البندقية • أنظـر :

New English Dictionory, vol, LX p. 401.

(٣٩) Venice, past and present, pp. 51 - 52.

البحرية الايطالية فى مقدمة البلاد التى ساهمت فى تلك الحروب منـــذ بدايتها وذلك يرجع الى قوتها البحرية التى قامت بدور فعال فيها (٤٠) ، خاصة وان الصليبيين كانوا فـــى حاجـــة الى مزيد من الرجال والعتاد حتى تتمكن القوى اللاتينية من البقاء فى الشرق الاسلامى • وكانت المـــدن التجاريـــة الايطالية قد وجدت ترحيبا وتشجيعا من السلطات الفاطمية من أجل التبادل التجارى ، وارتبطت البندقية فـــى العهد الفاطمـــى مع مصر بعلاقات تجارية أسوة بباقى الدويلات الايطالية الاخـــرى مثل جنوه وبيزا وامالفى والدولة البيزنطية وكان لكل هؤلاء جالية خاصة لها فنادقها وامتيازاتها التجارية فى الاراضى الفاطمية • واستمرت البندقية تتوسع فى أعمالها التجارية فـــى مصر حتى سقطت الخلافـــة الفاطمية ســـنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م وقامت الدولة الايوبية على أنقاضها فازدادت المنافســـة بـــين الجاليات التجارية حدة وعنفا ، كما ازدهرت التجـــارة تبعا لذلك (٤١) لقد ظهرت قوة البندقية البحرية فى علاقاتها مع الشرق الاسلامى منذ بداية الحركة الصليبية ، ففى عـــام ١١٠٠ م / ٤٩٤ هـ حصل البنادقة على امتيازات تجارية وذلك أثناء حصار الفرنج

---

(٤٠) Runciman, A History of the Crusades, vol, 1, p. 112.

(٤١) عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ١٧٣ — ١٧٦ •

ســـرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٥ وانظر أيضا :
Wiel, Navy of Venice, pp. 322 - 323; Cook, Studies in the Economic history of the middle East, p. 66; Pirenne Economic and Social History of Medieval Eurupe, pp. 1 - 717.

لمدينة يافا . وكان عدد سفن الاسطول البندقي حوالى مائتى سفينة وهذا يدل على قوة البندقية البحرية والدور الذى تريد أن تلعبه فى الشرق فى مساعدة اللاتين ولتحقيق المكاسب وذلك أسوة بما فعلته الجمهوريات الايطالية الاخرى . ثم هاجم هذا الاسطول عكا وتركها وهاجم حيفا لقربها من القدس وكانت تابعة للفاطميين أنذاك ، سقطت فى أيديهم فى أغسطس ١١٠٠ م / ٤٩٤ هـ كما وصلوا الى مركز فريد عام ١١٢٤ م / ٥١٨ هـ عندما وقعوا اتفاقا مع الصليبيين قبل الهجوم على صور حصلوا بموجبه على امتيازات كثيرة . فقد قاد الدوج بنفسه الاسطول البندقى وبفضل قوته سقطت صور فى يد الصليبيين (٤٢) وتحولت مدن الساحل الشمالى التابعة للفاطميين بعد انتقالها الى اللاتين الى مراكز تجارية وحربية فى نفس الوقت فقصدتها السفن التجارية من مختلف أنحاء العالم المسيحى وبخاصة السفن القادمة من جنوا والبندقية وبيزا ، لاحضار الحجاج المسيحيين من ناحية ، وتزويد مملكة بيت

---

(٤٢) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥١٨ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر حوادث ٥١٨ هـ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ ، ثم راجع أيضا :

Guillaume de Tyr, pp. 459, 574 Michaud;
Histoire des Croisades Tome, II, p. 63; Brehier, l'Eglise et L'orient au Moyen Ages Croisades, p. 322;
Heyd, Histoire de commerce, Tome, I, pp. 137, 142 - 144;
Grousset, Histoire des Croisades, vol, I, p. 200;
Setton, A History of Crusades, vol, I, p. 380;
Runciman, A History of Crusades, vol, I, p. 312 - 313.

المقدس الصليبية مـا احتاجت اليه مـن امدادات مـن ناحيـة أخرى (٤٣) ·

ولقد ترتب على ضياع مدن الساحل الفاطمية فى الشام الحاق الضرر بتجارة الدولة الفاطمية والمسلمين فى الشرق الادنى · اذ استطاع الصليبيون أن ينفذوا خطتهم بحرمان المسلمين من الارباح · ولذلك تعاون اللاتـين مـع الجمهوريات الايطالية صاحبة التفوق البحـرى فى البحـر المتوسط عندئذ (٤٤) · وأدى ذلك الى عدم وصول الامدادات والمؤن مـ نالاسكندرية الى باقى البلاد الشامية التى كانت لا تزال فى قبضة الفاطميين ، مما جعل هذه البلاد تسقط فى يـد الصليبيين دون عناء · كما تركز النشاط التجارى فى بلاد الشام فى أيدى اللاتين بعامـة والايطاليين بخاصة دون المسلمين (٤٥) ·

مما تقدم تتضح أهمية القوة البحـرية للبندقية ودورهـا فى اقامة ممالك اللاتين فى الشرق الادنى والعمل عـلى المحافظة عليها ·

بعد أن تناولنا القوة البحريـة للبندقية يمكن القـول أن

---

(٤٣) Grousset, Histoire des Croisades, vol, I, pp. 182;
Heyd, Histoire, du Commerce, Tome, pp. 135 ? 136:
Stevenson The Crusades in the East, p. 39.

(٤٤) Heyd . Histoire du Commerce, Tome, I, pp. 134 - 136.

(٤٥) Grousset, Histoire des Croisades, vol, I, p. 191; Setton A History of Crsades, vol, I, p. 377;
History of crueades vol, I p. 377;
Rurciman, A History of the Crusades, vol, I, pp. 299, 310.

ظهور الروح الصليبية عند البنادقة كان من أسبابها وجود تلك القوة البحرية • ومن هنا كانت البندقية عاملا مؤثرا فى الحروب الصليبية فى معظم الاحيان ، على الرغم من وجود علاقات تجارية طيبة بينها وبين المسلمين تجنى منها الارباح والثراء الذى ساهم فى اتساع نفوذها فى كل من البحر المتوسط والبحر الادرياتى وسيطرتها على دالماشيا • وما ان جاء عام ١٠٤٣ م / ٤٣٥ هـ حتى أصبح الايطاليون ، وخاصة البنادقة ، هم فقط الذين يمتلكون أقوى الاساطيل البحرية التجارية والحربية فى حوض البحر المتوسط (٤٦) • ونتيجة لذلك كانت عيون الغرب الاوروبى ترنو اليهم من أجل المعاونة والاستفادة من قوتهم فى حرب المسلمين • ولكن موقف البندقية كان حرجا فى بداية الامر ، فاذا هى وقفت الى جانب الصليبيين بقوتها وأساطيلها ، باعتبارها دولة مسيحية كاثوليكية مثلهم فانها تخاطر بمصالحها التجارية المزدهرة مع المسلمين وخاصة مصر • وفى هذه الحالة عليها أن تواجه أيضا العداوة والبغضاء من جانب البيزنطيين الذين بدأوا يشكون فى النوايا الصليبية منذ اللحظة الاولى والذين كانت لهم جولات وصولات مع الصليبيين ، علما بأن البنادقة كانت تربطهم علاقات قوية بالامبراطورية البيزنطية • فلم يكن بوسعهم معاداة البيزنطيين واللاتين الغربيين فى ذات

---

(٤٦) Okey, Venice and its story, p. 38;
Bury, The History of middle Ages, p. 273; Atyia, Crusade in the Later Middle Ages, p. 114; Lewis, Naval power and Trade, pp. 199 - 201.

الوقت يضاف الى ذلك أن طريقها التجارى عبر البحـر الادرياتى كان بعيدا عن الامان ، فكان المجريون يهـددون دالمـاشيا من وقت لآخر ، بينما لا زال النورمان يقصدون شواطىء الادرياتى ومداخله ويهددون تجارة البنادقة • ولهذه الاعتبارات السالفة آثرت البندقية أن تقف على الحياد فى مطلع الحرب الصليبية ، وعلى أن تبقى على علاقاتها الطيبـة بالصليبيين والمسلمين عـلى السواء لتستفيد من الجانبين • وهذه من صفات التاجر والسياسى الحاذق الذى يؤثر الكسب المادى عـلى أية اعتبارات أخـرى • والمعروف أن البنادقة كانوا يفضلون الكسب والربح على أية دوافع أخرى ولـو كانت دينيـة (٤٧) • ولذلك فقـد كانت البندقية فى بداية الامر على استعداد أن تقدم وسـائل النقـل للصليبيين طالمـا سيدفعون لهـا الاجر ، ولكنها لـم تكن لترفع السيف ضد المسلمين لانها كانت تعلم مقدما الثمن الذى سوف تدفعه (٤٨) • ولكن مشكلة البندقية كانت أيضا فى منافسيها من المدن التجارية الاخرى وخاصة جنـوا وبيـزا • فقد وجدتا فرصتهما فى الحروب الصليبية ومساندتها منذ البداية بوضوح كامل • اذ اشترك الجنويون فى الحملة الاولى منذ الايام الاولى وشارك مهندسوهم فى حصار القدس عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ •

---

(٤٧) **The Cambridge Medievel History, pp. 409 - 410;**
Setton, A History, of the Crusades, vol, II, 161;
Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe, p. 29; Ferlane, Italy, pp. 251 - 252;
Penrose A short History of the Itlaian people, pp. 90 - 913.

(٤٨) The Cambridge Medieval History, vol, 5, pp. 409 - 410.

فاضطرت البندقية أمام ذلك أن تشارك فى الحروب الصليبية حتى لا تكون بمنأى عن منافسيها ، وأيضا بسبب الاغراءات والامتيازات التجارية التى عرضها الصليبيون على هذه الجمهوريات مقابل مساعدتهم • وبناء على ذلك انحرفت البندقية عن الحياد الذى رسمته لنفسها فى البداية واشتركت مع غيرها فى الحروب الصليبية ولم تترك فرصة فيها كسب مادى أو نفوذ سياسى الا وشاركت فيها ، ولكن اتسم موقفها وقتذاك بشىء من الحذر • ولقد كانت أمالفى والبندقية الوكلاء الرئيسيين فى امداد الغرب الاوروبى بثروات الشرق • ولذلك أرسلت البندقية عام ١١٠٠ م / ٤٩٤ هـ أسطولا مكونا من مائتى سفينة حربية من مختلف الانواع والاستخدامات حيث ساهم فى حصار المدن الساحلية فى الشام وطارد الاسطول الفاطمى فى البحر المتوسط وحطم معظم سفنه • كما أثار هذا الاسطول الحماس فى أوروبا كلها • وحصل البنادقة على ربع مدينة عكا بالاضافة الى حرية التجارة فى مملكة بيت المقدس • كما شاركوا فى احتلال يافا وحيفا وغيرها من مدن الساحل (٤٩) • بمعنى أن ذلك كان تشجيعا

---

(٤٩) Venice, past and present, pp. 18 - 24;
The Cambridge Medieval History, vol, 5, pp. 328 - 329, 410;
Penrose, A short History of the Italian people, p. 93;
Pirenne, Economic and Social History, pp. 29 - 31; Atyia, The Crusade in the Later Middle Ages. p. 54; Farlane, Italy, pp. 252 - 255.

للصليبيين على الغزو والقتال • كما أن دعم الصليبيين بالقـوة البندقية كان عاملا على رفع الروح المعنوية الصليبية وتدعيما للوجـود الصليبى خوفا من الضياع • وظهر ذلك واضحا فـى الدفاع عن المدن الساحلية وخاصة عكا بعد استعادتهم لهـا فى عهد صلاح الدين • وكان الصليبيون فى الشـام فـى حاجـة دائمة للامدادات من الغرب الاوروبى ، وكان البنادقة من أهم وسائل هذه الامدادات ، بالاضافـة الى جنـوا وبيـزا وقـوى الغرب الاوروبى الاخـرى (٥٠) •

لقد أفادت البندقيـة كثيرا من معاونتها للصليبيين وخاصة فى الحملات الصليبية الثلاث الاول • فقد حصلت على امتيازات تجارية منها حـى بندقى وكنيسة وسوق ومخبز فى كل المـدن السـاحلية التـى شـاركت فـى أخذهـا ، وكونت البندقيـة امبراطوريتها الاستعمارية بعد الاستيلاء عـلى كل من صيـدا عـام ١١٠٢ م / ٤٩٦ هـ وصـور عـام ١١٢٤ م ٥١٨ هـ وبدأت تتعرض لغضب بيزنطـة لانهـا آخـذت تنافسها فـى تجارتها فى الشرق (٥١) وهنـا تتشابك المصالح وتتداخل •

---

(٥٠) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٣ ، ٣٣٥ ، سـالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فـى العصـر الاسـلامى ، ص ١٢٠ _ ١٢١ • أنظـر أيضا : Carlton, History of Europe, p. 235

(٥١) Venice, past and present, pp. 18 - 24;
Brown, The life on the lagoons, pp. 27 - 39;
Bury, The Cambridge Medieval History pp. 354, 409;
Atyia, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 114;
Ashiely, Medieval Civization pp. 474 - 475;
John Kills, History of Political Economy, pp. 25 - 26;

ولقد تطــور هذا الغضب الى نزاع مسلح ثم الى احتلال بيزنطة نفسها عــام ١٢٠٤ م / ٦٠١ هـ بواسطة البنادقة والصليبيين . ولمــا قامت الحرب الصليبية الاولى ١٠٩٦ ــ ١٠٩٩ م / ٤٩٠ ــ ٤٩٣ هـ كان الدور البندقي واضحــا في هزيمــة المسلمين . وكانت تساهم في الحــروب الصليبيــة تــارة بوسائل النقــل البحرى وأخرى بالاساطيل الحربية والمقاتلين والوقوف جنبا الى جنب مــع الصليبيين دون أن تكترث بمــا يصيب علاقاتهــا مع مصر الفاطمية بعد أن ذاقت طعم المكاسب ، لان الخلافة الفاطمية كانت في هذه الآونة في سبيلها الى الزوال وعلامــات الضعف والانهيار ظاهرة بعد أن أصبح الخلفاءألعوبة لا حول لهم ولا طول (٥٢) . وفي عهد الدولة الايوبية لم تتوقف البندقية عن دعم الصليبيين مع انها بدأت تعمل ألف حســاب لموقف الدولة الايوبية منها ، وهى تعلــم تمامــا أن الدولــة الايوبية قامت أساسا على فكرة الجهاد ضد الصليبيين . ولذلك نراها في الحملة الصليبية الرابعة تعمل على تحويلها الى بيزنطة بــدلا من مصر تحقيقا لمطامعها في بيزنطة من ناحية وارضــاء لمصر وابقــاء لمصالحها فيها من ناحية أخــرى . واســتطاعت الدبلوماســية

---

(٥٢) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي والرأى العام الغربى ، ص ٣٢ ــ ٣٣ ، ٣٥ ، شــلبى : التاريخ الاسلامى جـ ٥ ص ٤٣٧ ــ ٤٣٩ ، ٤٤١ ــ ٤٤٩ ، سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٢٤ ــ ٤٣٨ . Brown, The life on the Lagoons, pp. 27 - 29; Bury, The Cambridge Medieval History, p. 410; Briton, A History of Civilization, vol, I, pp. 346, 351 - 354; Atya, The Crusade in the later Middle Ages, p. 114.

الايوبية أن تنجح فى ابعـاد الخطـر عن مصر بالسياسة واعطاء البنادقة الامتيازات مقابل ذلك العمل (٥٣) ٠

وجملة القول أن البندقيـة كانت تغلب عليها روح المنفعـة الخاصة ومن ثم اتخذت من الحـروب الصليبية وسيلة للحصول عـلى الثراء والتوسع ٠ وكانت تتبع سياسة مزدوجة ذات وجهين فهى تحرص فى غالب الاحيان على علاقاتها مع الدولة الايوبية ضمانا لمصالحها التجارية ، وفـى نفس الوقت لا تريـد زوال الصليبيين لان فى زوالهم ضياع لمصالحها فى الامارات اللاتينية فى الشرق الادنى ولان عدم وقوفها الى جانبهم سيؤدى الى اثارة الغرب الكاثوليكى وعلى رأسه الجهاز البابوى ضدها ٠

تلك هى قصة علاقـات البندقية بمصر حتـى قيـام الدولة الايوبيـة وسياستها المتلونـة حيـال الصليبيين والمسلمين فـى الشرق الادنى ، والتنافس المرير بينها وبـين جيرانها من المدن

---

(٥٣) ابن أيبـك : درر التيجان ورقة ٥١٥ ، الذهبى : دول الاسلام ورقة ٦٦٣ ٠ روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٣٦ ـ ١٣٩ ، ١٤٧ ٠

Okey, Venice and its story, pp. 67 - 83;

Brown, Venetion Repuplic, pp. 53 - 55;

Diehl, Byzantine Empire, pp. 138 - 140;

Carlton, History of Europe, p. 238,

Penrse thravel and discovery, p. 16;

Pirenne, The Tides, of History, vol, II, p. 195.

Runciman, A History of the Crusedes, part, III, pp 115 - 116, 121.

البحـرية الاخرى • واذا انتقلنا الى بقيـة أجـزاء الغـرب ، نجد أنه ينقسم الى مجموعة من الدول لكل منها مصالح مختلفة عن الاخرى ونظام حكم يتفق وظروفها كما يفصل كل دولة عن الاخـرى منطقة عريضة من الاراضى المتنـازع عليها (٥٤) • وان نظرة سريعة مركزة الى أحوال هذه الدول ستلقى الضوء على بعض جوانب العلاقات بين البندقية ومصر الايوبية • فالمعروف أن فرنسا هى التى قامت بالدور الرئيسى فى الحروب الصليبية ، لقد عقد مؤتمر كلـير مونت بها عندما خاطب البابا أوربـان الثانى المسيحيين فى عـام ١٠٩٥ م / ٤٨٩ هـ ودعاهـم لحمل الصليب والتحرك الى الشرق لقتـال المسلمين والاسـتيلاء عـلى الاراضى المقدسـة ، ومنها تحركت معظم الفرق العسكرية فـى الحملة الاولى • وبعد احتلال عماد الدين زنكى لامارة الرهـا عـام ١١٤٤ م / ٥٣٩ هـ كان لويس السابع ملك فرنسا عـلى رأس الحملة التى تحركت لاستعادة الرهـا ولانقـاذ الامارات اللاتينية فـى الشـام والمعروفـة بالحملـة الصليبية الثانيـة (١١٤٧ ــ ١١٤٨ م / ٥٤٢ ــ ٥٤٣ هـ) وفى الحملة الصليبية الثالثة(١١٨٩ــ١١٩٢م / ٥٨٥ــ٥٨٨هـ) شاركت فرنسا بقيادة ملكها فيليب أغسطس • كما بـدأت بـذور الحملة الصليبية الرابعة فى فرنسا ، ويمكن القول أن الحملة الصليبية الرابعة كانت فرنسية فى كل شىء ونتيجة لانحرافها الى القسطنطينية قامت من فرنسا والمانيا حملة الاطفال عام ١٢١٢ م / ٦٠٩ هـ • ورغم فشلها فهى تعبير عن الـدور الذى قامت بـه فرنسا فـى الحروب الصليبية • كمـا أن الملك لويس التاسع قـاد حملته

---

(٥٤) ديفـز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٥٧ •

المعروفة بالسابعة الى مصر ١٢٤٩ ـ ١٢٥٠ م / ٦٤٧ ـ ٦٤٨ هـ بقصد احتلالها وذلك في أواخر عهد الدولة الايوبية فلم يوفق في خطته وفشلت الحملة . ويتضح من الاحداث السابقة أن فرنسا في هذه الفترة كانت متحمسة للحروب الصليبية « فان الحروب الصليبية تعتبر مشروعا فرنسيا ونشاطا حربيا فرنسيا وكانت الانتصارات التي حققها هذا النشاط انتصارات لها الطابع الفرنسي » (٥٥) .

ولكن يجب أن يكون معلوما أن ظروف فرنسا وقتها هي التي هيأت الى القيام بهذا الدور ، ونتيجة لذلك كانت الامارات التي أنشئت في الشرق عقب انتصار الصليبيين فرنسية اللسان والعادات والمظاهر فهي امارات فرنسية الحسنات والسيئات ، وما من شك أن ذلك يرجع الى أن فرنسا كانت أقدر من سواها في تلك الآونة على تغذية الحروب الصليبية بالقادة والامراء والمحاربين وما يلزم لهذه الحروب (٥٦) .

---

(٥٥) شلبي : التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٤٤٠ ، وراجع أيضا :
Michaud, Histoire des Croisades, vol, I, pp. 92 - 94, 105 - 106;
Grousset, Histoire, des Croisades, vol, I, pp. 4 - 5, 12;
Chalandon, Histoire de la premiere croisade, pp. 37 - 14;
Runciman, History of Crusades vol, II, pp. 114 - 115; Setton, History of Crusades, vol, I, p. 78; Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol, II, p. 402;
Cambridge Medieval History, vol, 4, pp. 272 - 273.

(٥٦) جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص ٣٣ ـ ٣٥ ،
شلبي : التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٤٠ ، راجع كذلك :
Matt. Paris, English History, vol, II, pp. 1 - 3, 35 - 36,48 - 49, 67 - 73, 77 - 86;
Grousset, Histoire des Croisade, vol, I, p. 12.

أما انجلترا فقد انشغلت بنزاعها مع فرنسا خلال فترة الحروب الصليبية الذى حال بينها وبين المشاركة الفعالة فى تلك الحروب ، واشتدت المنافسة بين الدولتين خاصة وان انجلترا كانت تطالب بنصف أراضى فرنسا تقريبا • وتطور هذا التنافس والعداء بينهما من مرحلة الى أخرى خلال فترة امتدت أربعة قرون حتى استطاع شارل السابع ملك فرنسا (١٤٢٢ ـ ١٤٦١ م) انهاء حروبه مع انجلترا بعد انتصاره عليها (٥٧)•

ورغم هذه الظروف فان الجزر البريطانية قامت بدور هام في الحملة الصليبية الثالثة ، اذ سار الى الشرق الملك ريتشارد على رأس قواته وشارك في حصار عكا واستردادها كما تمكن من عقد صلح الرملة مع صلاح الدين عام ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ ، الذى سمح للمسيحيين بزيارة القدس عزلا من السلاح كما ضمن للصليبيين وجود منطقة ساحلية حفظت كيانهم قرنا من الزمان • وقفل بعد ذلك عائدا الى بلاده • ونظرا لمشاغل انجلترا ومشاكلها فى الداخل والخارج لم تتمكن منذ ذلك التاريخ فصاعدا من القيام بدور فعال فى الحملات الصليبية التى تحركت الى الشرق (٥٨) •

---

(٥٧) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ص ١٥٧ ـ ١٥٩ •

(٥٨) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ ، أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٨٩، الاصفهانى : الفتح القسى ص ٢٩٣ ، جوزيف نسيم : العدوان على مصر ص ٣٢ ، سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ وراجع أيضا :

Grousset, Histoire des Croisades, vol. III, pp. 18-25, 49, 63-71, Archer, The Crusades, pp. 316 - 317. 331, Setton, History of Crusade, vol, II, pp. 50 - 53,

Runciman, History of Crusades, vol, III, p. 57.

أما المانيا مقر الامبراطورية فقد لعبت دورا هاما في الحركة الصليبية منذ البداية اذ شارك كونراد ملك المانيا مع لويس السابع ملك فرنسا في قيادة الحملة الصليبية الثانية التي بدأت زحفها الى الشرق في صيف عام ١١٤٧ م / ٥٤٢ هـ وكان الامبراطور الماني فردريك بارباروسا أحد الملوك الثلاثة الذين قادوا الحملة الصليبية الثالثة من أجل اعادة غزو بيت المقدس ومحاربة صلاح الدين الايوبي · ورغم أن فريدريك بارباروسا غرق في نهر سالف بآسيا الصغرى فان بعض قواته واصلت سيرها الى بلاد الشام وشاركت في حصار عكا والاستحواذ عليها (٥٩) ·

وأما ايطاليا ففيها روما مركز البابوية والكنيسة اللاتينية وكانت مكانا هاما في توجيه المقاتلين الى الشرق الاسلامي ومساندة الصليبيين · ولقد تأثرت ايطاليا بالصراع بين البابوية والامبراطورية · وكان لهذا الكفاح عواقبه السيئة بالنسبة للحركة الصليبية ابان الفترة موضوع البحث ، فقد استنفذ موارد كل من الكنيسة والامبراطورية وشغلهما عن مساندة الصليبيين في وقت كان فيه مصير الشرق اللاتيني يتوقف على مقدار المساعدة التي يقدمها له الغرب الاوروبي · وأضعف

---

(٥٩) الاصفهاني : الفتح القسي ص ٢٩٣ ، أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٨٩ ، شلبي : التاريخ الاسلامي جـ ٥ ص ٤٢٤ ، وراجع أيضا :
Archer, the Crusades, p. 331; Grousset, Histoire des Croisades; vol, III, p. 49.

هذا الصراع كلا من المانيـا وايطاليا فأصبحتا مسرحا للفوضى ولحق بهما الدمار ، هذا بالاضافـة الى الانقسـامات الداخلية والثورات الاقطاعية ممـا صرفهما عن الاشتراك فـي حروب خارجية ·

وأما أسـبانيا ، فقـد كانت الممالك المسيحية فـى الشمال في صراع عنيف ضد القوى الاسلامية التى كانت لا تزال قائمة في بلاد الاندلس · وحاول الاسبانامتلاك شبه الجزيرة الايبرية من المسلمين (٦٠) لذلك كانت فـى شـغل شـاغل عن الصراع الصليبى الاسـلامى الذى دار فوق رقعة الشرق الادنى ·

واذا انتقلنا الى شرق أوروبا حيث الدولة البيزنطية نجد أنها كانت في أواخر القرن الحادى عشر تعانـى من الضعف · وقد جسد هذا الضعف الهزيمة الكبرى التى ألحقها بها الاتراك السلاجقة فى عـام ١٠٧١ م / ٤٦٤ هـ فـى موقعه ملاذ كـرد ولذلك بدأت تتطلع الى الغرب الاوروبى بالرغـم من العـداء السياسى والدينى بين الطرفين الذى ترجع جذوره الى قـرون عديدة مضت · فلجأت الى البابوية فى رومـا تطلب مساعدتها لدفع خطر السلاجقة عنها · وشاركت بدور فعال فـى الحملة الصليبية الاولى ، فلما تبين لهـا فيما بعد أن الصليبيين لم يردوا

---

(٦٠) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٣٢ ، ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، وراجع أيضا :
Grousset, Histoire des Croisades vol, III, p. 426;
Tout, Empire and Papacy, pp. 370 - 375.

لها ممتلكاتها التى استولوا عليها مــن المسلمين تنفيذا للقسـم الاقطاعى الذى أدوه لها أصبح موقفها سلبيا فــى معظم الاحيان مما جعلها فى موقف حرج باستمرار حتى طمع فيها الصليبيون فى مطلع القرن الثالث عشر الميــلادى واستولوا عــلى عاصمتها القسطنطينية عــام ١٢٠٤ م / ٦٠١ هـ ، وأقاموا بهــا مملكة لاتينية استمرت حتى عــام ١٢٦١ م / ٦٦٠ هـ ٠ وحتــى بعد ســقوط القسطنطينية عــام ١٢٠٤ م / ٦٠١ هـ فــى قبضــة الصليبيــين لم يكن باستطاعــة هــذه المملكــة اللاتينيــة الجديــدة أن تســاهم مـــع ممــالك الغــرب المسيحــى وشعوبه فــى حملة صليبية ضــد المسلمين فى الشرق الادنى ، نظرا للهجمات المتكررة التــى كان يشنهــا عليهــا البيزنطيون أصحابها الاصليون بقصد طرد اللاتين المحتلين منها واســتعادة ســلطانهم ، ولا شك أن البندقية ونمو علاقاتها مع المسلمــين فى الشرق الادنى فى العصريــن الفاطمى والايوبــى كان مــن الاسباب الهامة فى الوضع الذى ســاد الامبراطورية البيزنطية خلال النصف الاول من القرن الثالث عشر الميلادى (٦١) ٠

ممــا سبق نلاحظ أن أوروبــا المسيحية بقسبميها الغربــى والشرقى كانت منــذ بداية الحملة الصليبية مسرحــا للقلاقــل والفوضى والاضطرابات والاختلافات والصدام بين البابوية من

---

(٦١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٣٣ ، شلبى : المجتمع الاسلامى ص ٢٧٦ ، وراجع أيضا :

Grousset, Histoire des Croisades, vol, I, p. 15;

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol, I, pp. 311, 356.

جهة والممالك والاباطرة من جهة أخرى مما أثر على الحياة العامة فى مختلف النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والفنية (٦٢) • ولعل هذا كان من بين الدوافع التى أدت الى قيام تلك الحركة ، كما أتاح هذا الوضع الفرص أمام البنادقة للتوسع فى التجارة البحرية واقامة المستعمرات والحصول على الامتيازات حتى غدت البندقية امبراطورية عظيمة مرهوبة الجانب ومن ثم كانت من أولى القوى البحرية ابان الفترة موضوع البحث التى تتصرف بحريتها التامة دون أن تحتسب لاى من القوى الدينية أو الدنيوية فى الغرب أى حساب الا بالقدر الذى يعود عليها بالفائدة • وعندما استجاب البنادقة للمشاركة فى الحرب الصليبية الاولى كان ذلك يعنى موقفا جديدا للبندقية فى علاقاتها بكل من الشرق الادنى والغرب الاوروبى المسيحى •

هذا عن ظروف البندقية وبقية أوروبا منذ بداية الحركة الصليبية • أما مصر فقد كانت أحوال الخلافة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى (أخريات القرن الحادى عشر الميلادى) وحتى سقوطها سيئة للغاية لقد كانت شبحا يحتضر • ودليل ذلك ما أحرزه الصليبيون من انتصارات فى البحر والبر ضد الفاطميين خلال سنوات قلائل • وكان الضعف قد أصاب

---

(٦٢) Matt. Paris, English History, vol, II, pp. 165 - 166; Lewis et Rambaud, Histoire Genrale, vol, II, p. 335.

انظر أيضا : جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٣٠ ـ ٣٣ •

الدولة الفاطمية منذ عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) وذلك نتيجة ثورات قـام بهـا الاتـراك وانتشار القحط والمجاعة فـى عهده • كل هذا أدى الى انتقال العباسيين • ويعزى ذلك الى السلاجقة الذين كانوا قد استولوا على بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأخذوا يوسعون أملاكهـم شرقا وغربا ، على حساب كل من العباسيين والفاطميين ، فقـد قطعت الخطبة الفاطمية من مكـة سـنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م واصبحت للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، كما فقد الفواطـم معظم ممتلكاتهم فى الشام ، وأدى ذلك الوضع الى ضعفهم فى حين زادت قوة السلاجقة بانتقال الاراضى الفاطمية فى بـلاد الشام الى أيديهم • وفى زحمـة اضطراب الاحوال الفاطميـة وانقسام السلاجقة الى دويلات كذلك ، ظهـر العدو الصليبـى مغتنما فرصة الضعف العـام فى الشرق الادنى الاسلامى سياسيا ومذهبيا • وفى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٩ م تحت ظل هذه الظروف سارت الحملة الصليبية الاولى الى بلاد الشـام وسقطت القدس فى أيدى الفرنج سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٦ م ثم استولوا عـلى أملاك الفاطميين فى الشام وكان آخرها عسقلان التى وقعت فى قبضة اللاتين سنة ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ التى تعتبر الحـد الفاصل بـين

مصر وأملاك الصليبيين فـي بـلاد الشـام (٦٣) • واسـتمر التدهور في مصر الفاطمية نتيجة للاوبئة والقحط واختـلاف الوزراء واستبدادهم بالخلفاء • ولم يحل في ذلك الوقت بـين الصليبيين ومصر سوى قيـام الدولة الزنكية وظهور قوتها أيام عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود مما شغل الصليبيين بالانصراف الى مواجهة عماد الدين وتأجيل الاستيلاء عـى مصر لعدم خطورة الدولة الفاطمية آنذاك • الا أن خوف نور الدين عـلى مصر جعل الصليبيين يسرعون من أجل السيطرة عليها ، مستغلين الوضع السيىء الذى كانت تعانى منه « فتحرك طمعهم فيها وحدثوا نفوسهم بتملكها وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها والمضايقة لهـا » (٦٤) •

وكان لمقتل الوزير الافضل (١١٢١ م / ٥١٥ هـ) فـى القاهرة بمثابة بداية النهاية فـى تاريخ الخلافة الفاطمية ، اذ لم يشغل المنصب بعده أحد من الوزراء الاقوياء ، فأعطى ذلك الوضع الفرصة للصليبيين في بداية القـرن السادس الهجـرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) من أجل الاستقرار وتقوية أنفسهم ، فى حين تدهور نفوذ السلاجقة والعباسيين فى الشرق

---

(٦٣) ابن الاثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٦ ، ٤٥ ، ٦٣ ، ١١٧ ، أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ، وراجع أيضا :
Runciman, History of the Crusade, vol, II, p. 340; Lane people, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 163 - 165; Barken, The Crusades, pp. 25 - 32.

(٦٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : حوادث ٥١٨ وحوادث سنة ٥٤٨ هـ •

وضعف نفوذ الفاطميين في الغرب (٦٥) ٠

وبدأت القــوات الصليبية تتطلع للاســتيلاء عــلى مصــر للاستعانة بها على المسلمين ، ولمنعهم مـ ن استخدامها ضد الصليبيين ومن ثم بدأ نور الدين يفكر في ضرورة انقاذ مصر في الوقت الذى أرسل فيه العاضد آخر خليفة للفاطميين فى مصر يستنجد بــه ٠

أما عن أحوال مصر الاقتصادية فلم تكن أفضل من الاوضاع السياسية ، فقد أصابها الفقر والقحط وانتشرت الاوبئة وخاصة فى أيام الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤م) وهذا بدوره أدى الى سوء الاحوال الاجتماعية وتفكك عناصره لدرجــة ان صلاح الدين عندما قطــع الخطبة للخليفة العاضد وخطب للخليفة العباسى لم يكترث بهذا الامر أحــد ، كما أن الصراع الذى نشب قبل ذلك بين الوزيرين شــاور وضرغــام كان دليل انقسام ووهن ٠

وجملة القول أن تدهور الاحــوال السياسية والاقتصاديــة والاجتماعية فــى أواخــر عهد الخــلافة الفاطمية كان ينــذر

Grousset, Histoire des Croisades, vol, I, p. 530.

بسقوطها بين يوم وآخر (٦٦) ، وظهور أوضـاع جديدة فـي الشرق الاسـلامي سوف تتـرك آثارها عـلى الصراع الصليبي الاسـلامي بصفة عامة ، وعـلى العلاقات بـين البندقية ومصر على وجه الخصوص في عصر الدولة الايوبية .

لقد قامت الدولة الايوبية عـلى أسـاس الجهاد فـي سبيل الله والدفاع عن الديار والمقدسـات ضد المعتدين . لذلك كان طبيعيا أن يدعو الاسـلام الى الجهاد باعتباره مبـدأ وعقيدة ، دفاعا عن الدعوة وتأمينا لها ودفعا للمعتدين عليها . لقد كان لفكرة الجهـاد أهميتها البالغـة أثنـاء العدوان الصليبي الذى تعرض له الشرق الادنى الاسلامي .

قال تعالى « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فـي سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » لقد كان ظهور الاسـلام فـي شبه الجزيـرة العربية واقتضـى الحـال بعـد انتشاره بها أن يقوم المسلمون بالدعوة للاسـلام خـارج شـبه

---

(٦٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ١١ ص ١٤٥ ، ابن شامه : الروضتين ص ١٣٤ ، ١٣٩ ، ١٤٤ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٢٠ — ٢١ ، ٢٤ — ٢٦، حسن ابراهيم حسن :الفاطميون في مصر ص ٢٩٤ — ٢٩٥ ، وراجع أيضا :

Guillaume de Tyr, tome, VI p. 48, 898, 910 - 913 (R.H.C. occ) Schlumberger, Campagnes du roi Amaury, pp. 48, 116-127; Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, p. 136; Stevenson, Crosaders in the East, p. 186.

الجزيرة العربية فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده الرسل يحملون الكتب والرسائل الى ملوك العالم المعروف في ذلك الوقت ، يدعونهم الى الدخول فى الاسلام ، فقبل البعض واعتنق الدين الجديد وسانده ، بينما رفضت جماعة ثانية قبوله ، وبدأوا فى التأهب والاعداد من أجل محاربة المسلمين والقضاء على الاسلام • فتقرر الجهاد فى الاسلام ، ونزلت آيات القرآن الكريم تسمح لهم بذلك دفاعا عن أنفسهم وعقيدتهم الاسلامية ، وبدأ الجهاد في الاسلام، وليس هناك أسمى من الجهاد بالمال والانفس كما جاء فى القرآن الكريم ، ذلك أن المؤمنين كلفوا بذلك ، فعليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله باخلاص ، وأن يجودوا بالمال والانفس ومن لم يفعل ذلك فقد قصر فى واجب عظيم ، لان الاسلام لابد له من قوة تدفع عنه المعتدين وترد كيد المهاجمين ، وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرحون بالجهاد لان من قتل أثناء القتال فهو شهيد، والشهداء لا خوف عليهم ولاهم يحزنون وأنهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون، بمعنى أن الجهاد في سبيل الله كان رمز الايمان الصادق وتعبير عن قوة ايمان المؤمنين ، والجهاد المشروع فى الاسلام يجب أن يكون فى اطار التقوى ، فان خرج عن هذا الاطار لم يكن جهادا مشروعا فى الاسلام (٦٧) • وشرع قتال الكفار والمشركين كافة وجهاد القتال نفسه ليس مرتبة واحدة ولكنه مراتب متعددة وصور مختلفة

---

(٦٧) انظر : الموسوعة فى سماحة الاسلام ـ المجلد الثانى ص ٧٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٣ ، ابن الوردى : تتمة المختصر فى خبار البشر ج ٢ ص ١٨٢ •

رتبـه التشريع الاسـلامي جعـل فريضتـه وحتميتـه آخـر مراتب عموم الجهاد طلبا وآخر صوره وقوعا ، والقتال نوع من أنواع الجهاد لان الجهاد أعم وأشمل ، وأعـلى مراتب الجهـاد محاربة الكفار لاجل نصر دين الله وذب الاعداء عن الهجمات فى الدين والتفانى فى خدمته والتضحية فى أعـلاء كلمته واعزاز اسـلامه والرباط لانتظار الدفـاع فـى ميادين القتال (٦٨) ويكون القتال أيضا دفاعا عن النفس وردا للاعتداء ومقاومة الظلم وانصافا للعدل والحق من أهل الباطل وفقا لطريق الدعوة الى الله وازالة العقبات التى يضعها أعداؤه فى طريقها (٦٩) ٠

وهكذا بدأ المسلمون الجهاد منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ، ثم الدولة الاموية العربية ٠ وتاريخ الاسلام زاخر بأخبار المجاهدين والابطال ٠ وان اتساع الدولة الاسـلامية فـى الشرق والغرب وسيطرتها عـلى الدول والممالك وهزيمتها للفرس والروم ، وظهور القـوة الاسـلامية بمظاهر حضارتها المختلفة ، ان ذلك كله تم فى وقت قوة المسلمين وتماسكهم ٠ ومن هنا كان للجهاد أهميته البالغة فى حث الناس للدفاع عن الديار وقتال أعداء الله ٠

ولكن عندما انشغل المسلمون عن الجهاد وطمع الاعـداء فيهم وذلوا تطبيقا لحديث شريف يقول : « ما غزى قوم فى عقر دارهم الا ذلوا » وكان الضعف ظاهرا فى أواخر القرن الحادى

---

(٦٨) الموسوعة فى سماحة الاسلام ، المجلد الثانى ص ٧٨٦، الترغيب والترهيب ص ٢٥٧ ٠

(٦٩) الموسوعة فى سماحة الاسـلام ـ المجلد الثانـى ص ٨٠٠ ، الترغيب والترهيب ص ٢٤٢ ـ ٢٥٧ ٠

عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) بدأت أوروبا المسيحية فى الدعوة الى الحروب الصليبية للاستيلاء على الاراضى المقدسة ، فتحركت جموع الصليبيين فى الحملة الاولى ١٠٩٦ م / ٤٩٠ هـ وأمكنها تحقيق انتصارات سريعة متلاحقة خلال سنوات قليلة على المسلمين • وسقطت القدس فى أيديهم عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ وكونوا مملكة بيت المقدس اللاتينية بالاضافة الى امارة الرها فى أعالى الفرات ، وامارة انطاكية فى أعالى الشام وامارة طرابلس الشام على الساحل وكان ذلك الانتصار السريع دليلا ناطقا على ضعف وتفكك المسلمين •

ولكن تلك الكارثة التى لحقت بالمسلمين والتى أدت الى التقاعس عن الجهاد أثارت اهتمام بعض المخلصين من المسلمين بما يشبه اليقظة أو الافاقة • فطالب بعض المسلمين خليفة بغداد العباسى المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ) بضرورة مواجهة الصليبيين وقتالهم حتى اضطر الى اغاثة الحلبيين الذين جاءوا الى بغداد يحثونه على الجهاد (٧٠) لقد أدى الخطر الصليبى الى الافاقة

---

(٧٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ •
جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٢٦ •
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٤ ـ ١٧ •
الشيال : تاريخ مصر الاسلامية جـ٢ ص ٣ ـ ٧ •
المؤلف السابق : تاريخ الدولة العباسية ص ٨٩ •
العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٥ ـ ٨ •
Lane poole, Saladin, pp. 7 - 8; Youssefe, Arab awaking during the Crusades, pp. 12 - 14.

الاسلامية ، وبـدأ التفكير فيما ينفع لمواجهة الصليبيين • ولم يلبث أن ظهر أمـير بعث الامل من جديد وهو يعتبر من أقـوى الشخصيات الاسلامية التى ظهرت على مسرح الاحداث فى النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى (النصف الاول من القرن السادس الهجرى) وهذا الامير هو عماد الدين زنكى الذى قـام بالجهاد من جديد (٧١) والذى عـين أتابكا على الموصـل سـنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م • وأخذ يفكر فى انشـاء القوة الاسلامية الموحدة التى يمكنها ردع الصليبيين ودفع خطرهم فبـدأ يقوى نفوذه فى النواحى التى تحت سلطانه أولا ثم حاول ضـم ما يمكن ضمه من البلدان الاسلامية التى سوف يعتمد عليها لتموين قواته عند اصطدامه بالفرنج • فبدأ سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م بتأمين حـدود ولاية الموصـل من الشمال حتى أصبح عـلى مقربة من امـارة الرهـا الصليبية • ولكن كان عليه أن يضم الشام ، كما طمع فى حلب التى كثرت فيها الفتن الداخلية وقتذاك ، كذلك طمع فيها الصليبيون فاتخـذ ذلك ذريعة للتدخل فى شئون حلب فاستصدر مـن السلطان السلجوقى عـام ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م

---

(٧١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٩ ،
ابن الاثـير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٣٣ •
ابن الاثـير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٣٣ •
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ـ ٢٦٩ ـ ٢٧١ •
ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٩ ـ ١٩٦ ، انظر أيضا :
جوزيف : الوحـدة وحركات اليقظة العربية ص ٢٧ •
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسـلامية جـ ٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩ •
Youssef, J.N., Arab awaking during the Crusades, pp. 18-19.

منشورا بأن تكون حلب من بين البلاد الخاضعة لحكمه · وبعد حلب بدأ يفكر فى دمشق لانها من الامارات الاسلامية الهامة بالشام ، ثم جرت حوادث كبيرة حاول خلالها عماد الدين زنكى أخذ دمشق دون جدوى ، وكان الخليفة العباسى المسترشد بالله يخشى من نفوذ عماد الدين زنكى المتزايد ، ومع ذلك لم تلبث الفرصة ان خدمته ، اذ اغتيل محمود صاحب دمشق يوم ٢٣ شوال ٥٣٣ هـ / ٢٢ يونيو ١١٣٩ م على يد ثلاثة من عظمائه ، فأرسلت والدته زمرد خاتون الى عماد الدين زنكى غلمانه ، فأرسلت والدته زمرد خاتون الى عماد الدين زنكى بالاستيلاء على بعلبك ، وأحسن أهل دمشق بقرب عماد الدين منهم وخافوا على مدينتهم فتحالفوا مع الصليبيين ضده وكانوا قد وضعوا عليهم حاكما اسمه « أنر » ووصلت امدادات الصليبيين الى دمشق لدفع عماد الدين زنكى عنها · فلما رآهم تراجع عنها مظهرا الخوف منهم ، فلما اطمأنوا الى ذلك كر عليهم مهاجما وحاصرهم وقطع عنهم الامدادات حتى أكلوا لحوم الخيل والحمير · ولكن عماد الدين زنكى أمام التحالف الصليبى مع دمشق آثر أن يفك الحصار ويؤخر محاسبة دمشق ليوم آخر يكون فيه أحسن حالا وأقوى جندا (٧٢) ·

---

(٧٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٨٣ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث ٥٣٣ هـ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٦ ، أنظر أيضا : جوزيف نسيم : الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى ص ٢٧ ـ ٢٨ ·
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٢٢ ـ ٣١ ·
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ·
Lane poole, Saladin; p. 55.

وتأكد عماد الدين زنكى أن الموقف يحتم عليه تكوين جبهة قوية لدفع الخطر البيزنطى من الشمال واستئصال قوة الصليبيين فى الغرب والجنوب · فتقدم بقواته أول جمادى الاخرة ٥٣٩ هـ / ٢٨ نوفمبر ١١٤٤ م نحو الرها وسلمت له المدينة يوم ٢٦ جمادى الآخرة ٥٣٩ هـ / ٢٣ ديسمبر ١١٤٤ م بعد حصار عنيف حتى « صار الطائر لا يكاد يقترب منها خوفا من صوائب سهام منازليها ويقظة المضيقين عليها » (٧٣) فكانت أول ثغرة نفذ منها المسلمون الى غيرها من المدن الواقعة فى حكم الصليبيين التى لم تلبث ان سقطت فى يد عماد الدين زنكى · وقد أدى ذلك الى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين (٧٤) وبموت عماد الدين زنكى فى ٦ربيع الثانى ٥٤١هـ / ٤سبتمبر ١١٤٦م انقسمت مملكته الى قسمين: الشرقى وعليه ابنه الاكبر غازى ويقيم فى الموصل، والقسم الغربى وعليه ولده نور الدين محمود ومركزه مدينة حلب (٧٥)

---

(٧٣) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ٩٤ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ ، أبو شامه : الروضتين ص ٨١ — ٨٢ ·
أنظر : محمد الشيخ : الجهاد المقدس ص ٣٢٩ — ٣٣٤ ، حبشى : نورالدين والصليبيون ص ٣١ — ٣٧ ، وراجع أيضا :

(٧٤) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : حوادث ٥٣٩ هـ ،
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٣٧ — ٣٨ واجع أيضا :
Guillaume de Tyr, I, p. 709.
Runciman, History of Crusades, vol, II, p. 237; Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 307, Setton . History of Crusades, vol, I, p. 459;
Grousset, R., Histoire de Croisades vol, I, 172 - 173.

(٧٥) على دده : محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر ورقة ٤١ — ٤٢ ·
وراجع أيضا :
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٤٠ — ٤٢ ·

وكان نور الدين محمود يرغب في التفرغ لمحاربة الامارت الصليبية الباقية،وكان ذلك يتطلب اكتساب عطف وتأييد المسلمين وخليفة بغداد . كما اعتقد ان سياسة الحرب ضد القوى الصليبية لن يقدر لها النجاح الا بعد توحيد القوى الاسلامية فى جبهة واحدة متحدة من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب تستطيع الدفاع ثم الهجوم .

وحدث ان جاءت الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ م / ٥٤٢ هـ من أوروبا لانقاذ امارة الرها ، وبدأت بتوجيه هجومها ضد التحالف بين نور الدين وأنر صاحب دمشق حتى ساءت أحوالها وتقدم نور الدين بقواته لانقاذها . وعلم الصليبيون باستعداد نور الدين ومسيره نحو دمشق ، فآثروا الانسحاب ورحلوا عنها يوم الاربعاء ٢٨ يونيو ١١٤٨ م / ٧ صفر ٥٤٣ هـ (٧٦) وبقى نور الدين يتحين الفرص للاستيلاء على دمشق لانها حتى الآن كانت لا تزال فى حلف مع الصليبيين . فهاجمها نور الدين ودخلها بعد حصار وقتال شديدين وهرب أبق حاكمها الى بغداد سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م . وهكذا قضى نور الدين على أسرة بورى الحاكمة فى دمشق . وكان ذلك فتح الفتوح ، وصارت المملكة

---

(٧٦) على دده : محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر ورقة ١٢٩ .
أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٥٢ ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص٤٣ ـ ٦٠ ، ابن منقذ : كتاب الاعتبار ص ٩٤ ـ ٩٥ . وانظر أيضا :
Guillaume de Tyr, pp. 758 - 759, 766;
Grousset, Histoire des Croisades, tome I, pp. 255, 263 - 264;
Setton, History of Crusades, vol, I, p. 505.

النورية قطعة واحدة متصلة مـن الشمال الى الجنـوب (٧٧) ٠ وهذا أثار قلق الصليبيين لاحساسهم تزايد قوة نور الدين مـن ناحية ولعلاقاته السلمية مع بيزنطة حتـى يأمن خطرهـا عـلى حدوده الشمالية من ناحية أخرى ، ولكى يتفرغ للجنوب خصوصا وأن الصليبيين بدأوا يفكرون في أخذ مصر بعد أن ظهرت عوامل الضعف فـى الخلافة الفاطمية فـى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى (أواسط القرن السادس الهجرى) مـن ناحية ثالثة ٠ وكان الصليبيون يراقبون مجرى الاحداث فـى مصر وخاصـة أمورى والذى أصبح ملكا عـلى بيت المقدس منذ عـام ١١٦٢ م/ ٥٥٧ هـ ، ورأى ضرورة ضم مصر لمملكته ليحقق بذلك أهدافـا عدة منها توسيع ملكه وتحقيق أحلام الصليبيين بفتـح البـلاد الجنوبيـة ثم الاستفادة من الثروات الاقتصادية فى مصر فضلا عن منع قيام دولة اسـلامية قوية فى مصر تستطيع ايقاع الهزيمة بالصليبيين ٠

ومما لا شك فيه أن احتـلال مصر سوف يمكن الصليبيين من احتلال البحـر الاحمر وبالتالى بلاد الحجـاز ، ولذلك بـدأ أمـورى عـام ١١٦٣ م / ٥٥٨ هـ فى طلب الجزيـة التى كان قد تعهد بها الفاطميون للملك بلدوين الثالث عـام ١١٦١ م / ٥٥٦ هـ ٠ وسواء صح موضوع الجزية أو لم يصح ، فان الملك أمورى طمع فى مصر وأعـد لذلك حملة عسكرية لارغامها عـلى

---

(٧٧) أبو الفداء : التبر المسبوك ورقة ١٩ ،
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٩٢ ، أنظر كذلك :
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ٦٢ ـ ٧١ ٠

دفع الجزية وتحرك بقواته في أول سبتمبر ١١٦٣ م / شـوال ٥٥٨ هـ ، والتقى بالجيش الفاطمى وهزمه ولم يكن نور الدين غافلا عن أمورى فأخذ يهاجم بلاد الصليبيين من ناحية الشمال لشغلهم عن الضغط عـلى مصر (٧٨) ٠

ثم ازدادت الاحوال فى مصر سـوءا وخطورة عندما اشتعل النزاع من جديد بين شاور وضرغام ٠ فهرب شاور الى دمشق فى ذى القعدة ٥٥٨ هـ / اكتوبر ١١٦٣ م وتوسل الى نور الدين أن يساعده فى العودة الى مصر والقضـاء عـلى خصمه ضرغـام ٠ وانتهز نور الدين ذلك الطلب من أجل التدخل فـى شئون مصر والتمهيد الى ضمها الى نفوذه وحتى يقوى بها الجبهة الاسـلامية ضد الصليبيين وحتى لا تقع فى يد الصليبيين (٧٩) ٠

فأنفذ سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م مع شـاور حملة بقيـادة أسـد الدين شيركوه واستنجد ضرغام بالصليبيين مقابل جزية سنوية يدفعها لهم ، وبادر ملك القدس أمـورى بالتحرك صوب

---

(٧٨) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ لوحة ١٢ ، ٢٧ ـ ٣٣ ٠
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٩٠ ـ ٩١ ،
ابن أبى السرور : عيون الاخبار ورقة ١٥٥ ، ٣٨٦ ٠
ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٤ ،
ابن تغرى بردى : مورد اللطافة ص ٥٢ ،
أبو الحسن الروحي : بلغة الظرفاء ص ٨٢ ،
ابن خلدون : العبر والمبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٦١٣ ـ ٦١٦ ٠

(٧٩) ابن أبى السرور : عيون الاخبار ورقة ١٥٥ ،
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٣٧ ـ ١٤١ ٠
أنظر أيضا : حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٤ ٠

مصر لمساندة ضرغام · ولكن هذه النجدة وصلت متأخرة وحاول ضرغام الهرب ولكنه قتل فى القاهرة ، وبذلك خلا الجو لشاور الذى رفض بدوره الوفاء بتعهداته لنور الدين وطلب الى شيركوه العودة الى بلاد الشام · فغادر مصر وتبعه أمورى أيضا فى ذى الحجة ٥٥٩ هـ / اكتوبر ١١٦٤ (٨٠) ·

ولكن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين استغاث بنور الدين لانقاذ مصر فخاف شاور على نفسه وكاتب الصليبيين وطلب مساعدتهم ، ووصل شيركوه بقواته الى البلاد وكان أمورى قد سارع ودخل البلاد المصرية حيث قابلهم شاور وعسكروا على شاطىء النيل الايمن مقابل معسكر أسد الدين شيركوه (٨١) · وبعد حوادث عسكرية اضطر الطرفان الى الاتفاق بالرجوع الى بلاد الشام وانسحابهم من مصر (٨٢) · ولكن أمورى الصليبى

---

(٨٠) ابن أبى السرور : عيون الاخبار ورقة ١٥٥ ،
الشهابى : الغرر الحسان ص ٣٥٧ ، ابن الفرات جـ ٧ لوحة ١٥ ،
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٦٦٧ ـ ٦٦٨
راجع كذلك :
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٥ ـ ١٠٨ ·

(٨١) ابن أبى السرور : عيون الاخبار ورقة ١٥٥ ـ ١٥٦ ،
العينى : عقد الجمان حوادث ٥٦٤ هـ ،
ابن الفرات : الدول والملوك جـ ٧ لوحة ١٥ ، وانظر أيضا :
حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٠٩ ـ ١١١ ·

(٨٢) البغدادى : عيون أخبار الاعيان جـ ٢ لوحة ٣٨٦ ،
الفصرى : ذخيرة الاعلام ورقة ١٢١ ،
الملوانى : تحفة الاحباب لوحة ٧٦ ،
ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك جـ ٧ لوحة ١٥ ـ ١٦ ·
ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٣ ـ ١٣٤ ،

حاول التحالف مع بيزنطة من أجل تنظيم حملة مشتركة ضـد مصر ، الا أنه خرج بقواته فى شهر أكتوبر ١١٦٨ م / محـرم ٥٦٤ هـ دون أن تشارك بيزنطة فى هذه الحملة (٨٣) ووصل الى أطراف أرض مصر ثم بلغ القاهرة يوم ١٣ نوفمبر ١١٦٨ م ٩ صفر ٥٦٤ هـ ، فاضطر شـاور الى احراق الفسطاط حتى لا تسقط فى أيدى الصليبيين ، كما أرسل الخليفة العباسى يستغيث بنور الدين ، وأدرك نور الدين حقيقة الاحوال السيئة فى مصر هذه المـرة فقرر ارسال حملة للاستيلاء عـلى مصر . وتحرك أسد الدين شيركوه بالجيش فى ١٤ ربيع الاول ٥٦٤ هـ / ١٧ ديسمبر ١١٦٨ م ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهاجموا القاهرة ودخلوها يوم ٧ ربيع الثانى ٥٦٤ هـ / ٨ يناير ١١٦٩ م دون أن يجدوا مقاومة من المصريين ، وازاء ذلك اضطر أمورى الى العودة الى بلاد الشام وذلك يوم ١٨ يناير ١١٦٩ م / ١٧ ربيع الثانى ٥٦٤ هـ بعد أن يئس من امتلاكها (٨٤) .

---

(٨٣) أبو شامه : كتاب الروضتين ص ١٧٠ — ١٧١ ،
ابن الاثـير : الكامل حوادث سنة ٥٦٤ .
Recueil, Arm, part, I, p. 560 - 562.
Guillaume de Tyr, p. 951 (R.H.C) ; Schlumberger, Campag nes du roi Amaury, pp. 208 - 209.

(٨٤) ابن ايبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٣٢ — ٣٥ ، البغدادى : عيون أخبـار الاعيان جـ ٢ لوحة ٣٨٦ ، ابن وصيف شاه : جواهر البحور ورقة ٨٠ ، الملوانى : تحفة الاحباب لوحة ٧٦ ، الشرقاوى : تحفة الناظرين ص ١١٠ ، العينى : عقد الجمان : حوادث ٥٦٤ هـ ، ابن بهادر : فتـوح النصر ورقة ٢٠ .

=

وقتل شاور وقام الخليفة العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه في الوزارة ، ولكنه توفي بعد ثلاثة أشهر فآلت الوزارة في مصر الى ابن أخيه صلاح الدين وذلك وفقا لرغبة العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر • ولم يلبث أن قطع الخطبة للعاضد وخطب للخليفة العباسي معلنا بذلك عودة مصر الى المذهب السني من جديد • وأعقب ذلك وفاة العاضد في المحرم ٥٦٧ هـ / سبتمبر ١١٧١ م وبوفاته انتهت الدولة الفاطمية بعد أن حكمت من سنة (٣٦٢ ـ ٥٦٦ هـ / ٩٧٢ ـ ١١٧١ م) لتقوم بها الدولة الايوبية التي أدت بدورها الى تغيير ميزان القوى في الشرق الادنى وبالتالي أحداث تغيير في طبيعة العلاقات بين المسلمين والصليبيين وغيرهم من أهل الغرب الاوروبي (٨٥) •

= أبو حامد : دول الاسلام الشريفة ص ١١ ـ ١٢ ،
أبو الحسن الروحي : بلغة الظرفاء ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ،
على دده : محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر ، ورقة ١٢٩ ،
ابن الوردي : تتمه المختصر جـ ٢ ص ٧٤ •
المقدسي : الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ص ٣١٠ ـ ٣١١ ،
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٦٣ ،
ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٥٥ ،
ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٣٨ ـ ١٤٠ •

(٨٥) ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٢٧ ـ ٢٨ ،
ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ لوحة ٣٧ ـ ٣٩ ، درر التيجان ورقة ٤٩٠ ،
ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٩١ •
العمري : ذخيرة الاعلام ورقة ١٢٢ ، العيني : عقد الجمان حوادث ٦٥٤ هـ ،
البغدادي : عيون أخبار الاعيان جـ ٢ لوحة ٣٩٠ ،
الشرقاوي : تحفة الناظرين ص ١١ ،
ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١٤٠ ، الكامل: جـ ١١ ص ١٣٥ ـ ١٣٦ ، =

تلك هى الاحداث التى مر بها الشرق الادنى الاسلامى منذ قيام الحركة الصليبية وحتى نهاية الخلافة الفاطمية وكان تفكك وانقسام سياسى مذهبى • وكل من الخلافة الفاطمية فى مصر والشام والخلافة العباسية فى بغداد تمر بفترة تدهور وانحلال، والاتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى يقتطعون من أملاك الدولتين هذا بينما يتمكن اللاتين الغربيون من تأسيس امارات لهم فى الاراضى المقدسة مستغلين تلك الظروف •

وكان طبيعيا أن تتكيف العلاقات بين الجاليات التجارية الايطالية وفى مقدمتها البنادقة مع المسلمين فى الشرق الادنى وفقا لمقتضيات الظروف والاحوال وقتها •

لقد كان للبنادقة علاقات قوية مع الدولة الفاطمية حتى قبل قيام الحركة الصليبية نفسها • وسادت العلاقات السلمية والتبادل التجارى هذه العلاقات ، وحصل البنادقة على امتيازات تجارية واسعة فى مصر فى العهد الفاطمى شأنهم بقية المدن التجارية الايطالية الاخرى ، ولم يعكر صفو العلاقات البندقية الفاطمية الا محاولات الامبراطورية البيزنطية فى شرق أوروبا أو البابوية فى روما بفرض حصار اقتصادى على الدولة الفاطمية بهدف

=

الاسحاقى : أخبار الاول ص ١١٨ ، أبن خلدون : العبر ج ٥ ص ٦١٨ ــ ٦٢٠ ،

المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٩١ ــ ٢٩٢، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٨ ــ ٢٩ ،٠

اضعافها • وبالرغم من ذلك كانت البندقية فى معظم الاحيــان تفضل استمرار تبادلها التجارى مع الفاطميين •

الا أن قيام الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى جعل العلاقات بين البلدين تدخل فى مسار جديد فرضته طبيعة الظروف وقتها ، وهو اشتراك البنادقة فى الحرب الصليبية ضد الفاطميين • فقد كانت معظم الاراضى التى استولى عليهــا الصليبيون فى الشام تخضع للفاطميين لاسيما بيت المقدس ومدن الساحل الشامى (٨٦) • وكان الدور البندقى العسكرى ضــد الفاطميين كبير • ويكفى أن نشير الى حادثتين ، اضافة لمــا سبق ففى عــام ١١١٩ م / ٥١٣ هـ طلب بلدوين الثانى ملك القدس من البندقية أن تقدم له يد العون ضد الفاطميين ، فأعد الدوق البندقى حملة كبيرة وثلثمائة سفينة ، تحمــل خمسة عشر ألف جندى ، ووصلوا الى الشام عــام ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ بعد أن وقع الملك الصليبى بلدوين الثانى فى أسر المسلمين ، وأغار الاسطول البندقى عــلى الشاطىء الجنوبى لفلسطين حتى العريش فى مايو

(٨٦) أبو المحاسن : النجــوم جـ ٥ ص ١٤٨ ،
ابن الجوزى : مرآة الزمان حوادث سنة ٤٩٢ هـ ،
ابن الاثــير : الكامل في التاريخ : حوادث ٤٩٢ هـ ،
Guillanue de Tyr, tome I, pp. 305 - 306, 311, 313, 318 (R.H.C.-occ) Michaud, Histoire des Croisades, tome, I, pp. 362-363; Heyd, Histoire du Commerce tome, I, pp. 134 - 135; Setton, History of Cruades, vol, I, p. 331;
Runciman; History of Crusades, vol, I, p. 275; Chalandon, Histoire de la Premiere Croisade, pp. 269 - 271.
Stevenson, The Crusades in the East, P, 33; Cambridge Medieval History, Vol, 5, 268.

١١٢٣ م / ربيع أول ٥١٧ هـ وفى طريق عودتهم الى عكا أسروا أسطولا تجاريا اسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع فضلا عن أنهم دمروا الاسطول الحربى الفاطمى فى عسقلان فأضعفوا بذلك الدولة الفاطمية وطمع فيها الصليبيون (٨٧) • وأتبع البنادقة ذلك بالاستيلاء على صور عام ١١٢٤ م / ٥١٨ هـ وبذلك لم تستطع القوى الاسلامية انقاذ المدينة لان الاسطول البندقى لعب دورا رئيسيا فى حصارها وأخذها (٨٨) • وكان دور البنادقة فى الاستيلاء على عسقلان عام ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ فعالا وبعدها فتحت الطرق أمام الصليبيين لاخذ مصر نفسها وأطمعت العدو فى امتلاكها ، كما أن البنادقة لم يكن يعنيهم غضب السلطات الفاطمية عليهم بسبب مساندتهم للصليبيين ، لان ما كانوا يحصلون عليه من الطرف الاخير أكثر مما يحصلون عليه من التجارة مع مصر الفاطمية (٨٩) • فالمنفعة الذاتية هى التى كانت تكيف مواقفهم حيال الطرفين المتصارعين •

Guillaume de Tyr, pp. 459, 574.
Bréhier, L'Eglise et L'orient au moyen Ages, Les Croisades, p. 322;
Michaud, Histoire des Croisdes, vol, II, p. 63,
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 142 - 143

(٨٨) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٧ ،
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ ،
أبو الفداء : المختصر : حوادث ٥١٨ هـ •
Guillaume de Tyr vol, III, p. 642 (R.H.C. occ).

(٨٩) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ ٣٣، ٣٢٠ — ٣٢١ ،
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ : حوادث ٥٤٨ هـ •
انظر أيضا : Guillanme de Tyr, p. 801.

ولا شك أن أحوال القوى الاسلامية الاخرى فى الشرق الادنى الاسلامى كانت تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر على طبيعة العلاقات بين البنادقة والفاطميين ومن بعدهم الايوبيين . وفى مقدمة القوى الاسلامية التى عاصرت هذه الفترة (١٠٩٦ ـ ١١٦٩ م) الخلافة العباسية فى بغداد التى قامت بدورها فى الجهاد فى بداية عهدها ، ولكن اصابها الوهن فيما بعد لظروف عديدة ليس هنا مجال الافاضة فيها ، وانفصلت عنها ولايات كثيرة فى المشرق والمغرب مكونة بذلك دولا مستقلة . وكان ذلك دليل ضعف الخلافة العباسية وضياع هيبتها ، وكان لتدخل البويهيين (٩٠) فى بغداد وفرض سيطرتهم على الخليفة العباسى المستكفى بالله دليل ضعف آخر ، فقد وصل الضعف الى مركز الخلافة فى بغداد بعد أن ضاعت أطرافها ، وظل حال الخلافة العباسية على هذا النحو والانهيار حتى دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م بعد أن استنجد بهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله . اذ استدعى طغرلبك لينقذه من تحكم البويهيين ، ولكن السلطة الفعلية فى بغداد انتقلت الى أيدى السلاجقة أيضا ففعلوا بالخلفاء ما فعله الاتراك والبويهيين بهم

---

(٩٠) ظهر البويهيون حوالى ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م وهم فئة شيعية من أبناء بوية الذى نشأ فى أقليم مازندران ، أنظر : حافظ حمدى : الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى ص ٢٧ .

Setton, History of Crusades, vol, I, pp. 139 - 140.

Cambridge Medieval History, vol, 4, pp. 302 - 304.

من قبل (٩١) • وبعد أن لحق الضعف بالسلاجقة لم تتمكن الخلافة العباسية من استعادة قوتها ومركزها السالفين ، بل بقيت ضعيفة فاقدة لقدرتها وهيبتها • وعندما شرع الصليبيون في احتلال الشرق الاسلامى ، وأسسوا الامارات اللاتينية فى بلاد الشام أثناء الحملة الاولى ، لم تتمكن الدولة العباسية من القيام بدور فعال ضد الصليبيين ، بل أن ضعفها فى حد ذاته كان من العوامل المساعدة للفرنج على تنفيذ مشروعهم • وعندما تكررت النداءات لخليفة بغداد من أجل الجهاد فانه لم يفعل شيئا بل ندب لهذا الغرض بعض الامراء الاقوياء الذين لازالوا يحتفظون بعلاقة طيبة مع الخلافة العباسية ، ومن هؤلاء اتابكة الموصل وكان ذلك أيضا دليل ضعف وانهيار الخلافة العباسية التى سقطت أخيرا على يد التتار فى ٦٥٦ هـ / ن١٢٥٨ م (٩٢) •

أما عن السلاجقة فقد ظهرت قوتهم نتيجة ضعف كل من العباسيين والفاطميين • ومن الحق أن نعترف بأن السلاجقة أدوا للعالم الاسلامى خدمات جليلة ، فهم نجحوا فى ازالة الدويلات الصغيرة القائمة فى ذلك الوقت وأقاموا بدلا منها دولة موحدة قوية أمكنها ن تدفع بالبيزنطيين الى الوراء وتكبدهم خسائر فى

(٩١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٥٦ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١ ص ٩٤ ،
انظر : حافظ حمدى : الشرق الاسلامى ص ١٧ ــ ٤٨ •

(٩٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ ، ١٧٥ ،
ابن العديم : منتخبات ص ٣٩٨ ، ٦١٥ ــ ٦٢٥ ،
ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٨٢ ،
أنظر أيضا : حبشى نور الدين والصليبيون ص ١٣ ــ ١٦ •
Cambridge Medieval History, vol, 4, p. 304.

كثير من المعارك ، كما أوجدوا جماعة من المسلمين المحاربين يرجع الفضل اليهم فى فشل الصليبيين فى الاستقرار فى اماراتهم التى أسسوها فى فلسطين ، وكان ملكشاه شديد الاهتمام بدولته لدرجة اثار بها مخاوف الاوروبيين كما أزعج البيزنطيين وخاصة بعد هزيمتهم فى موقعة ملاذكرد ١٠٧١ م / ٤٦٤ هـ والتى ترتب عليها انهيار القوة البيزنطية واستنجاد بيزنطة بالغرب الاوروبى لدرء الخطر الاسلامى السلجوقى (٩٣) . وقد قام السلاجقة بدور كبير فى مقاومة الصليبيين وبفضل جهادهم لم يتمكن الغزاه من وضع حد للحروب الصليبية ولم ينعموا بالاستقرار .

وقد نجح السلاجقة فى ميادين السياسة والحرب والتعليم والعمران ، وكانت دولتهم قد امتدت من القرن الحادى عشر الى الثالث عشر الميلادى (من القرن الخامس الى القرن السابع الهجرى) حيث شمل نفوذهم معظم بلاد الشام وأجزاء من بلاد فارس وآسيا الصغرى (٩٤) .

غير أن هذه الامبراطورية السلجوقية القوية ما لبثت أن انهارت بعد وفاة السلطان ملكشاه ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م لاسباب وعوامل عدة أهمها انقسام السلاجقة على أنفسهم واشتداد النزاع الداخلى بين أبناء ملكشاه وأحفاده ، وخاصة فى الفترة

---

(٩٣) حافظ حمدى : الشرق الاسلامى ص ٢٦ ،

Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol, I, p. 357;

Cambridge Medieval History, vol, 4, pp. 331 - 332.

(٩٤) Bury, Cambridge Medieval History, pp. 299 - 300.

التى تلت عصــر ملكشاه حتى نهاية الحكــم السلجوقى فى بغداد سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م • وكانت نتيجة هذا الانقسام قيــام دويلات صغيرة عرفت باسم الدول الاتابكية لتحل محــل الدولة السلجوقية الكبيرة (٩٥) وأهمها جميعا دولة عماد الدين زنكى فى الموصل والتى قامت بدور رئيسى فى احياء روح الجهــاد والافاقة الاســلامية وتكوين جبهة اســلامية موحدة فى الشرق الادنى لمواجهــة الصليبيين • وكان صلاح الدين ممن عمل فــى خدمة نور الدين محمود ولذلك نــرى أن الدولة الايوبية كانت امتدادا لدولة نور الدين محمود الاتابكية •

تلك هى الصــورة العامة للعالمين المسيحى والاســلامى فــى كافة النواحى والمجــالات مــن سياسية واجتماعية واقتصاديــة ودينية ، منذ قيــام الحركة الصليبية فى أخريات القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) وحتى قيام الدولة الايوبية فــى مصر والشــام بعد منتصف القــرن الثانى عشر الميلادى بقليل (بعد منتصف القرن السادس الهجرى) • وتلك هى طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بالفعل بين البندقية أكبر القوى الايطالية البحرية وقتذاك وبين مصر قبل قيام الحروب الصليبية وما طرأ عليها من تغيير بعد اندلاع نيران هذه الحروب• وستكشف الفصول التالية بشىء من التحليل والتفصيل عن مختلف المواقف والسياسات التى اتخذها كل من البنادقة والايوبيين حيال الطرف الآخر مع بيان أسبابها ومسبباتها والنتائج التى ترتبت عليها •

---

(٩٥) حافظ حمدى : الشرق الاسلامى ص ٣٦ ــ ٣٨ •

الفصــل الثــانى

البندقية وموقفها من الصراع الصليبى الاســلامى فــى العصر الايوبى

- شعار البنادقة : « نحن أولا بنادقة وبعد ذلك مسيحيون » ، وأثره على تكييف سياساتهم ومواقفهــم حيــال الاطــراف المعنيــة ٠

- تحليل موقف البنادقة من الحملات الصليبية التى تعرض لها الشرق الادنى فى العصر الايوبى ٠

- موقف كل من الجهاز الكنسى البابوى والبنادقة من الطرف الآخر ، فيما يتعلق بسياسة البنادقة حيال الحركة الصليبية٠

تحدثنا فى الفصل الاول عن أحوال العالمين المسيحى والاسلامى منذ قيام الحركة الصليبية وحتى نهاية الدولة الفاطمية فى مصر والشام · واستدعى ذلك الاشارة الى طبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين البنادقة والفواطم قبل بداية الحركة الصليبية والتطور الذى طرأ عليها بعد اندلاع نيرانها ، وأوضحنا أنها قامت بدور هام فى تلك الحركة منذ الحملة الاولى (٩٦) ·

والواقع أن البندقية اتخذت من جميع الحملات الصليبية التى اتجهت الى الشرق الاسلامى موقفا يتأرجح بين الايجاب والسلب طبقا لمقتضيات الظروف والاحوال · وقد ترك هذا الموقف أثره فى الغالب ، على النتائج التى انتهت اليه تلك الحملات· وكان البنادقة يخططون سياساتهم ومواقفهم وينفذونها حيال الصليبيين والمسلمين على السواء وفقا لشعارهم المعروف « لنكن أولا بنادقة ولنكن بعد ذلك مسيحيين » ·

---

(٩٦) للمزيد من المعلومات أنظر :
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣ ــ ١٤ · راجع أيضا :
Matt d'Edesse. (Documents Arm.) tome I, pp. 13 - 20; Les Archives de l'Orient Latin. I, pp. 2, 22; Riant, Inventaire des Histoire des croisades, tome, p. 2;
Brehier, L'Eglise et I' orient, p. 69;
Chalandon, Histoire de la Premirere Crosade, 25;
Rousset les Origines et les coraters de la preciare croisade, pp. 49 - 51, Rousset, la Premiere Croisade, p. 56; Heyd, Histoire du Commerce, tome, I, pp. 131 - 132; Thempson Economic and Sosial History, vol, I, pp. 385 - 391;Setton, History of Crusades, vol, I, p. 74; and vol, 2 p. 397.

لقد طبق البنادقة هذا الشعار عمليا فى فترة الحروب الصليبية ، وقدموا مصالحهم الخاصة على كل الاعتبارات الاخرى. ويعتبر هذا الشعار هو المدخل لتفسير مواقفهم حيال الصليبيين والمسلمين على السواء . ولتحقيق أهدافهم كان عليهم المشاركة فى ميادين القتال مع الصليبيين ضد المسلمين ، فاذا أدركنا ان أهم تلك الاهداف هو الحصول على الكسب المادى واقامة المستعمرات التى تؤمن وجودهم ، سهل فهم الاسلوب الذى اتخذوه ، لقد بذلوا الكثير فى سبيل الحفاظ على تلك المستعمرات التى أسهموا فى تأسيسها حتى تصبح البندقية قوة مرهوبة الجانب لها السيطرة على التجارة وطرقها بين الشرق والغرب ابان تلك الفترة من الزمن . وأما تأييد المسيحيين لها وتحقيق النصر للصليبيين ، فلم يكن هدفا فى حد ذاته بالنسبة لهم ولكنه كان مجرد وسيلة لتحقيق الاهداف المادية والاقتصادية التى طالما سعوا اليها . وان حاجة الصليبيون الملحة الدائمة الى الدعم والمساعدة ، كانت تضطرهم الى اعطاء الامتيازات والاعفاءات للقوى التجارية الايطالية بعامة والبندقية على وجه الخصوص ، وحتى لا تدفعها مصالحها المادية للتحول الى جانب المسلمين . ومهما يكن من ضعف العاطفة الدينية عند البنادقة . فلم يكن بوسعهم اهمال الناحية الدينية تماما . لقد شارك البنادقة أثناء الحروب الصليبية فى أخطر المعارك ، كما أسهموا فى تحقيق أهم الانتصارات الصليبية وجنوا من وراء ذلك المكاسب العديدة . وأصبحت البندقية منذ حصولها على استقلالها فى القرن التاسع الميلادى / القرن الثالث الهجرى بعد اتفاق كل من شارلمان وبيزنطة على ذلك ، تتمتع بمركز هام كوسيط بين الشرق

والغرب (٩٧) • وأخذت قوتها فى التطور خلال القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين (القرنان الرابع والخامس الهجريان) •

وما أن بدأت الحروب الصليبية عام ١٠٩٦ م / ٤٩٠ هـ حتى وجدت المدن التجارية الايطالية بصفة عامة والبندقية على وجه الخصوص ، ان الفرصة مواتية لتدعيم تجارتها فى الشرق وتحقيق المزيد من المكاسب والارباح • والسبب فى ذلك أن البندقية كانت فى هذه الفترة تمتلك الاساطيل القوية ، ثم أنها كانت أقرب من غيرها الى بلاد الشرق • كذلك اعتبرت صاحبة السيادة على الطرق التجارية التى تؤدى الى الشرق والى الشمال• وكان العامل التجارى هو الهدف الرئيسى للبنادقة فى المشاركة فى الحروب الصليبية الى جانب القوى الصليبية الاخرى • هذا بالاضافة الى عامل آخر هو المنافسة بين الجاليات التجارية الايطالية نفسها وعدم تقبل البنادقة فى أن يروا منافسيهم من القوى التجارية الاخرى وقد شاركت فى الحروب الصليبية دونهم وحققت الامتيازات التجارية الهائلة بينما هم بمنأى عن ذلك (٩٨) • ومن أجل تحقيق الاهداف المذكورة للقوى التجارية الايطالية ، فقد وضعت أساطيلها فى خدمة الصليبيين مقابل الحصول على الامتيازات التجارية والسماح ببناء المستعمرات فى موانىء الشام وفلسطين • لقد كان هدف البنادقة استغلاليا فقط،

(٩٧) Elton, Medieval Monarchy in Action, p. 38.

(٩٨) سعيد عاشور : العصور الوسطى جـ ١ ص ٤٥١ • وراجع أيضا :
Brown, Venetian Republic, pp. 48 - 49;
Gibb, Islamic Society and the West, part, I, p. 89;
Elton, Medieval Monarchy in Action, pp. 38 - 39.

نظرا للكسب الكبير الذى يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التى أصبحت مصدرا للثراء لكل من يعمل بالتجارة • وكان هدفهم امتلاك مصر وبلاد الشام وشمال أفريقية حيث تنتهى الطرق البرية الرئيسية التى تصل من الشرق الاقصى الى ساحل البحر المتوسط • ولو فرض أنهم امتلكوا تلك الموانىء الاسلامية التى تنتهى عندها تجارة السلع الشرقية فانهم يصبحون البديل للتجار المسلمين الذين يقومون بنقل البضائع والسلع الشرقية الى هذه الموانىء ، وبذلك يحرمون المسلمين من هذه الارباح بينما يتحول الثراء الى أيديهم • ولذلك قام الاسطول البندقى بدور فعال فى الاستيلاء على المراكز الرئيسية فى الشام من أجل السيطرة التجارية وضمان عدم وقوعها فى قبضة غيرها من ناحية ، ولمنع المسلمين من الاستفادة من ورائها من ناحية أخرى • لذلك اضطرت البندقية الى بذل كل ما تستطيع لتدعيم اسطولها البحرى ليقوم بهذه الاعباء التى استجدت على مسرح الاحداث ومنها قيام الحروب الصليبية • ففى الفترة من سنة ١٠٩٦ م / الى سنة ١١٠٥ م (٤٩٠ — ٤٩٩ هـ) وضعت البندقية فى البحر المتوسط وبحر الادرياتيك ثلاثمائة سفينة معدة من أجل الحرب والقتال بهدف حماية امتيازاتها وخطوط مواصلاتها والمحافظة على مستعمراتها ومساندة الصليبيين (٩٩) • وكان البنادقة يشاركون فى القتال مع الصليبيين ليس بتقديم

---

(٩٩) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٨٧ — ٨٨ •
Fisher, The Middle East, p. 133; Pirenne, Histoire Economique, pp. 181 - 185; Cambridge Economic History of Europe vol, 3, p. 60; Brown, Venetion Republic p. 49.

وسائل النقل فحسب ، بل خاضوا مع الفرنج عمليات عسكرية ضد المسلمين ، لان انتصار الحركة الصليبية يعنى بقاء المكاسب المادية واستمرارها • وكانت البندقية منذ بداية الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى) ترغب فى البقاء على الحياد حتى تتضح لها الاحوال • وكانت لا تريد الدخول فى معركة قد تخسرها ، فلما رأت أن الصليبيين قد حققوا نجاحا واقامة ممالك لاتينية فى الشرق بعد سنوات قلائل من قيام الحملة ، ورأت المدن التجارية الاخرى وخاصة جنوه التى سبقتها الى مساعدة الصليبيين بادرت بتقديم المساعدة للاستيلاء على انطاكية سنة ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ • واضطرت بعد ذلك بعامين أن تشارك فى عملية الاستيلاء على بيت المقدس • وكان البنادقة عنصرا فعالا فى الحملات التى تعرضت لها مصر وشمال أفريقية فيما بعد •

ولم تكن الخطورة تكمن فى مساعدة هؤلاء التجار للصليبيين فقط ، بل فى أنهم ساهموا مساهمة فعالة فى الاحتفاظ بهذه الممالك اللاتينية فى الشرق أطول مدة ممكنة تمكينا لمصالحهم وتثبيتا لها • وكان ذلك واضحا تماما فى المعاهدات التى عقدت بين القوى البحرية التجارية الايطالية ومن بينها البندقية وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتينية ، والتى تضمنت الكثير من الامتيازات فى جميع المجالات ، لان الصليبيين كانوا فى حاجة دائمة الى أساطيل البندقية كما لم يكن من السهل بدونها القيام بعمليات الحصار حول المدن الساحلية الشامية والمصرية • وجدير

بالذكر أنه كان للدول البحرية الايطالية ، وخاصـة البندقية ، جالياتها التجارية فى كل المدن والموانىء التى استولى الفرنج عليها فى الساحل الشامى • وكانوا يمارسون داخـل أحيائهم جميع مظاهر الحكم الذاتى ، كما كانوا يجنون الارباح والاموال من وراء التجارة ونقل الحجاج والمؤن والقـوات العسكريـة والمعدات الحربية اللازمة لامارات اللاتين • وهذا بدوره أدى الى منافسات وصراع بين القوى البحرية الايطالية ، لذا كانت موانىء الساحل الشامى فى كثير من الاحيان ، مسرحا عجيبا للصراع بين هذه الجاليات لاسباب تتعلق بالملكية والمسائل التجارية ، وكثيرا ما تطور هذا الصراع الى قتال مكشوف وحروب داميـة ، ذهب ضحيتها الكثيرون (١٠٠) • وان دل هذا الصراع عـلى شىء فانما يدل على أن الهدف الاول للقوى التجارية البحرية الايطالية منذ بداية الحروب الصليبية وحتى نهايتهـا كـان تحقيق الكسب والربح • فلم يكن يعنيها الباعث الدينى الا بالقدر الذى يحقق مصالحها ، وذلك ينطبق تماما على البنادقة وشعارهم القـائل « لنكن أولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين » (١٠١) • لقد شارك

---

(١٠٠) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٨٨ ـ ٨٩ ،
العرينى ، الاقطاع الحربى عند الصليبيين ص ١٦ ، راجع أيضا :
Okey, Venice and its story, p. 38; Wiel, the Navy of Venice pp. 73, 75, Hodgson. The Early History of Venice, pp. 237-238, 240 - 241, Fisher, The Middle East, p. 133.

(١٠١) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ٨٩ ـ ٩٠ ، أنظر أيضا :
Okey, Venice and its story, p. 38; Davis, Invasion of Egypt, pp. 23 - 24, Pirenne, Economic and Social History, p. 32; Margaret Deenesly, A History of Medieval Church, p. 106;

=

البنادقة فى الحرب الصليبية منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ولم يتركوا الميدان أمام القوى البحرية المنافسة الاخرى مثل جنوه وبيزا وامالفى (١٠٢) ٠

وكان دور البنادقة فى الحركة الصليبية منذ قيام الحملة الصليبية الاولى فى أواخر العهد الفاطمى وحتى قيام الدولة الايوبية فى مصر والشام كبيرا وفعالا ومؤثرا ، فيما يتعلق بتأسيس الامارات اللاتينية فى الشرق الاسلامي والمحافظة عليها ولا شك أن هذا كله له أثره فى قدرة الصليبيين على الصمود مدة قرنين من الزمان ٠

ولقد أدركت البابوية فى روما منذ البداية ضرورة الاستعانة بالقوى البحرية الغربية الموجودة وقتها لتنفيذ المشروعات الصليبية ، فأرسل البابا أوربان الثانى بعثة الى جنوة طالبا منها المشاركة فيها ٠ ولم يلبث تجار جنوة أن استجابوا لدعوته فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة الصليبية الاولى بالاضافة الى ناقلة كبيرة وبذلك تكون جنوه قد سبقت غيرها من

=

Hitti, History of the Arabes, p. 669;
Atyia, The Crusade in the Later Middle Ages, p. 114.

(١٠٢) حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ٩٦ ٠
ومن المراجع الاجنبية أنظر :
Wiel, The Navy of Venice, pp. 75 - 76; Hodgson, Early History of Venice, p. 237; Growford, Cleaning from Venetian History, vol, I, p. 99; Lewis, Naval powers and Trade, p. 247.

القوى البحرية الايطالية وحققت لنفسها مكانة أكسبتها حقوقا وامتيازات فى بلاد الشام ، لم يستطع البيازنـة أو البنادقـة الظفر بها الا بعد جهد كبير لانهم جاؤوا بعدها فـى مسـاندة الصليبيين • وكان للبنادقة ـ كما ذكرنا ـ دور في حصار القدس وفتحها عام ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ (١٠٣) ويرجع تأخر البندقية وجنوه ، بالاضافة الى الاسباب التي أوضحناها ، انها كانت قد حصلت على امتيازات واسعة ومكانة عظيمة داخل الامبراطورية البيزنطية مما جعلها تشعر بأنها ليست في حاجة الى المشاركة مع الصليبيين • ولكن منافسة القوى البحرية الاخرى جعلتها تغـير من موقفها ، ففى عام ١١٠٠ م / ٤٩٤ هـ قـدم الى يافا عـلى الساحل الفلسطينى أسطول للبنادقة يتكون من مائتى سفينة ، وكان بلدوين ملك مملكة بيت المقدس قد دعـا البنادقة لمساعدته فى الاستيلاء عـلى مدن الساحل • ووافقت البندقية عـلى ذلك وأرسلت أسطولها لهذا الغرض • وساعد البنادقة الصليبيين على أخذ مدينة يافا مقابل أعفائهم من المكوس وحصولهم على ثلث كل مدينة يساهمون فى الاستيلاء عليها • وبمساعدة البنادقة والقوى البحرية تمكن الصليبيون من السيطرة على مدن الساحل الهامة مثل أرسوف وقيسارية وعكا وبيروت • كما كان للاسطول البندقى

---

(١٠٣) مرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٤٥ ،
Mathieu d'Edesse, tome, I, p. 29 (Documents Armeniens); Guillaume de Tyr, tome, I, pp. 125 - 128 (R.H.C. occ); Chalandon, Histoire de La Premiers Croisade, Croisade, p. 269; Heyd Histoire du Commerce, tome I, p. 134; Grousset, Histoire des Croisades, tome, I, pp. 154 - 155, 156; Stevenson, The Crusades in The East, p. 12.

دور هام فى فتح مدينة حيفا ، فقد حاصرها ومنع المؤن من الوصول اليها (١٠٤) • وأتبعوا ذلك بالاستيلاء على مدينة صيدا الساحلية سنة ١١٠٢ م / ٤٩٦ هـ وقد شاركوا بمائة سفينة من أسطولهم البحرى فى الاستيلاء على تلك المدينة وحصلوا مقابل ذلك على حى فيها ، كما أصبح لهم الحق فى اقامة كنيسة خاصة بهم ، وامتلكوا شارعا وسوقا ومخبزا • وكان من حقهم استعمال موازينهم ومكاييلهم ومقاييسهم الخاصة بهم • لقد كان استيلاء البنادقة على صيدا حدثا هاما بالنسبة للبندقية لانها بذلك بدأت فى توسعها خارج نطاق البحر الادرياتى وبدأت تبنى امبراطوريتها متخذة من الحروب الصليبية عاملا فى انشائها (١٠٥) •

واذا كانت البندقية قد اسهمت فى الاستيلاء على صيدا فقد كان للبيازنة والجنوية دور فى الاستيلاء على مدينة طرابلس

---

(١٠٤) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٤٥ ـ ١٤٦ ،
وانظر أيضا :
Wiel, Navy of Venice, pp. 75 - 76, 79 - 80;
Okey, Venice and its story, pp. 39 - 40; Wiel, Venice, pp. 84 - 86; Oliphant, The Makers of Venice, pp. 47 - 48; Bury, Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 304, Atya, Crusade, Commerce and Cullture, p. 66; Lane-poole, A History of Egypt, pp. 163 - 165; idem Saladin, pp. 24 - 26.

(١٠٥) عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى ص ١٠٠ ـ ١٠١ ،
Brown, Venetian Republic, p. 49; Wiel, Navy of Venice, pp. 82 - 88; Venice, pp. 87 - 88; Hodgson, Early History of Venice, pp. 242 - 243.

عام ١١٠٩ م / ٥٠٣ هـ وعلى مدن ساحلية أخرى فى الشام (١٠٦) ٠

وفى عام ١١١٩ م / ٥١٣ هـ استنجد الملك بلدوين الثانى ملك بيت المقدس اللاتينى بالبنادقة ضد المسلمين ٠ وكان البابا قد أيد طلب ملك بيت المقدس وحث البندقية على المساهمة فى مساعدة الصليبيين مما جعلها تقوم باعداد أسطول كبير مكون من ثلثمائة سفينة حربية تحمل خمسة عشر ألف جندى ٠ ولكن هذه الحملة لم تتحرك الى الشرق الا بعد ثلاث سنوات من اعدادها ٠ وكان ذلك فى صيف سنة ١١٢٢ م / ٥١٦ هـ وازاء ذلك التأخير اضطرت البندقية الى توجيه الاسطول ضد بيزنطة مما أعاقها عن الوصول الى الشرق ، فى حين وقع الملك بلدوين الثانى فى الاسر سنة ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ ، فأرسل الصليبيون من جديد الى البندقية يخبرونها بالكارثة التى حلت بهم ويرجون سرعة ارسال المعونة ٠ وعندئذ رفع البنادقة حصارهم عن جزيرة كورفو البيزنطية سنة ١١٢٣ م / ٥١٧ هـ وتحركوا نحو ساحل الشام حيث وصلوا الى عكا ٠ وكان أول ما فعلوه هو ارسال جزء من أسطولهم الى عسقلان فى الجنوب استطاع تدمير الاسطول الفاطمى الموجود هناك فى وقت كانت فيه الخلافة الفاطمية تعانى من التدهور والانحلال ٠ ثم تقدم البنادقة فى انجازاتهم نحو الجنوب حتى وصلوا الى شاطىء العريش فى مايو ١١٢٣ م ربيع أول

---

(١٠٦) سرهنك : حقائق الاخبار ـ ج ٢ ورقة ١٤٦ ،
راجع أيضا :
Hodgson, Early History of Venice, p. 242.

٥١٧ هـ كما تمكنوا فى طريق عودتهم الى عكا من أسر أسطول تجارى اسـلامى مكون من عشر سفن محملة بالبضائع (١٠٧) ٠

وبعد أن نجح البنادقة فى الحاق الهزيمة بالاسطول الفاطمى فى البحـر المتوسط وتأكـدوا من ضعف الدولـة الفاطمية ، تعهدوا بمساعدة الفرنج فى فتح باقى مدن الساحل الشـامى ٠ ووقع الخلاف بين اللاتين حول خطة الهجوم ٠ هل تكون نقطـة البداية « عسقلان » الواقعة فى الجنوب أو « صور » فى الشمال ؟ وهما من البلاد التى تتبع الدولة الفاطمية ٠ غير أن البنادقـة أيدوا الرأى القائل بالهجوم عـلى صور أولا وذلك لان ميناء صور هو الافضل عـلى امتداد الساحل ويفوق فى مركزه التجارى ميناء عسقلان بما له من مجـرى مائى مفتـوح تجتـازه السفن الى الشاطىء ٠ كما أنه الميناء الذى ترد اليه خـيرات بلاد دمشق ٠ ونظرا لان البنادقة كانوا يسعون أولا وقبل كل شىء الى الكسب المادى فلم يقبلوا الاشتراك فى القتال أو الهجوم عـلى صور قبل أن يبرموا اتفاقا مع الصليبيين يتقاضون بموجبه ثمن المساعدة التى يقدمونها لهم ٠ واستغرقت المفاوضات بين الجانبين طوال فصل الخريف ، وفى أوائل سنة ١١٢٤ م / محرم ٥١٨ هـ تم توقيع المعاهدة فى عكا بين ممثلين عن جمهورية البندقية مـن جهة وبين ممثلين عن المملكة اللاتينية من جهة أخرى ، لان الملك

---

(١٠٧) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ١ ص ٥١٨ ـ ٥١٩ ،
Okey, Venice and its story, p. 42; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 252 - 254.
Daru, Histoire de Venice, vol, I, pp. 72 - 74,
Bury, The Cambridge Medieval History, p. 411.

كان وقتذاك في الاسر عند المسلمين · وقام نوابه بتوقيع المعاهدة التي تقرر بمقتضاها ان يمتلك البنادقة في كل مدينة بالمملكة اللاتينية شارعا وكنيسة وفرنا وطاحونة مع اعفاء هذه المناطق من الالتزامات العادية · وتكون لهم أيضا الحرية في استخدام موازينهم ومكاييلهم في أعمالهم التجارية مع سائر الذين يتعاملون معهم · كما تقرر أيضا اعفائهم من كل الرسوم والضرائب الجمركية في سائر انحاء المملكة الصليبية · وتقرر كذلك أن يحصلوا على دور اضافية في مدينة عكا وعلى ثلث كل من مدينتي صور وعسقلان ، وكان لهم الحق في انشاء المعامل والمصانع في المدن الساحلية التي يشاركون في فتحها وذلك مقابل مساعدتهم للصليبيين في الاستيلاء على صور وعسقلان · وعلاوة على كل ما تقدم اتفق ان تحصل البندقية سنويا على مبلغ من المال يقدر بثلاثمائة دينار اسلامى (١٠٨) يؤدى مما يتحصل للملك الصليبى من موارد مدينة عكا ، ووافق البنادقة مقابل ذلك على أن يؤدوا للخزانة الملكية اللاتينية ما درجوا على دفعه وهو ثلث ما يتقاضونه من الحجاج من الاجور · كما تقدمت البندقية بطلب آخر الى المملكة الصليبية يدل على رغبتها فى السيطرة على تجارة المملكة اللاتينية ومنافسة القوى البحرية الاخرى ، مؤداه الا تخفض المملكة ما تتقاضاه من رسوم جمركية

---

(١٠٨) الدينار الاسلامى : الدينار المقصود فى هذه الفترة الدينار الفاطمى وهو من الذهب ويساوى أربعة عشر درهما · انظر :
المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٤ ، راجع أيضا :
محمد ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٦ ـ ٦١٧ ،
توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ، ص ١٦٥ ·

من الطوائف الاخرى الا بموافقة البندقية · ولما تم ابرام المعاهدة المذكورة تحركت القوات الصليبية ازاء الساحل نحو صور ، بينما سار الاسطول البندقى موازيا للقوات الصليبية وبدأ حصار المدينة فى منتصف فبراير ١١٢٤ م / أواخر ذى الحجة ٥١٧ هـ (١٠٩) وكانت صور في هذه الفترة قد فقدت الامل فى مساعدة الفاطميين لها بعد أن ضرب الفرنج الحصار عليها برا وبحرا ، واستمر الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف · وفشلت محاولات المسلمين فى انجادها واصبح وضعها حرجا فى آخر يونية سنة ١١٢٤ م / جماد أول ٥١٨ هـ وأخذت المؤونة والمياه فى النفاذ وهلك عدد كبير من رجال الحامية ، فاضطرت المدينة للاستسلام للصليبيين شريطة تأمين سكانها من المسلمين وما يمتلكون وحقهم فى الرحيل أو الاقامة · وقبل الصليبيون بذلك « على الرغم من اشتداد ثائرة العساكر والبحارة حين سمعوا بانه لا مجال للنهب والسلب ، فهددوا بالتمرد والثورة » (١١٠)· وفى السابع من شهر يوليو سنة ١١٢٤ / ٢١ جماد أول ٥١٨ هـ

(١٠٩) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥١٩ ــ ٥٢٠ ،
رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ ،
Wiel, Navy of Venice, pp. 79 , 90 - 92; Brown, Venetian Republic pp. 50 - 51; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 254 - 259; Oliphant, The Makers of Venice, pp. 48 - 51; Growford, Cleanings from Venetian History, vol, I, pp. 104 - 105;
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 143 - 144;
Daru, Histoire de Venise, part, I, pp. 75 - 76.

(١١٠) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١٦٨ ــ ٢٧٢ ،

=

فتحت المدينة أبوابها للاتين وبذا انتقلت الى أيـدى الصليبيين آخر مدينة اسلامية عـلى الساحل شـمالى عسقلان • وتسلـم البنادقة نصيبهم فورا فى المدينة • والواقع أنه لم يكن بوسـع الصليبيين أخذ صـور لولا مساعدة البنادقة والدليل عـلى ذلك تلك الشروط التى قبلها حكام مملكة بيت المقدس مقابل مساعدة البنادقة لهم ، لانهم أدركوا أن مصلحة المملكة اللاتينية تكمن فى مساعدة القوة البحرية البندقية لهم • والمعروف أنه بعد تلك الفتوحات التى شارك فيها البنادقة وقبل اطلاق سراح بلدوين عرض الصليبيون على الدوق البندقى أن يتوج ملكا عـلى بيت المقدس بدلا من الملك الاسـير عند المسلمين ولكن ظروف الدوج لم تكن مواتية ، اذ سمع بتجدد الاضطرابات فى اقليم دالماشيا فآثر العودة لمعالجة الامور (١١١) •

وجدير بالذكر فى هـذا المقام أن ازدياد اهتمام البنادقـة بالصليبيين وتقديم المساعدة لهم يرجع الى سـوء علاقاتهم مـع

=

Guillaume de tyr, pp. 566, 572 (R.H.C., tome III), Foucher de Chartres, p. 460; Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 76 - 77; Heyd, Histoire du Commerce, part, I, pp. 143 - 144; Okey, Venice and its Story, pp. 42 - 43.

(١١١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٢١ ، وانظر أيضا :
Foucher de Chartres, p. 460; Wiel, The Navy of Venice, pp. 99 - 95; Wiel, Venice pp. 91 - 94; Oliphent, The Makers of Venice p. 51; Heyd, Histoire du Commerce, part, I, pp. 148 1 151; Grousset, Histoire des Croisades, part, I, p. 618; Bury, The Cambridge Medival History, p. 411.

بيزنطة فى هذه الفترة ، لانهم فقدوا معظم امتيازاتهم التجارية التى كانوا يتمتعون بها فى القسطنطينية • وكان حنا كومنين فى سنة ١١١٨ م / ٥١٢ هـ قد لجأ الى سحب امتيازاتهم • وترتب على سقوط صور أن أصبح فى استطاعة البنادقة أن يهاجموا عند عودتهم جزائر بحر ايجة انتقاما من البيزنطيين • وبالرغم من أن حنا كومنين أعاد البنادقة امتيازاتهم بعد ذلك ، الا أنهم ظلوا محافظين على مركزهم فى فلسطين وبقيت أحياؤهم وأحياء الجنوية تتمتع بامتيازات تجارية واسعة • وكلما اتسعت مملكة بيت المقدس كلما ازدادت امتيازات البنادقة والمدن الاخرى • وجريا وراء هذه الامتيازات كانت البندقية تحرض الصليبيين وتساعدهم على القتال ضد مصر الفاطمية وكان هذا تغييرا واضحا فى سياستها حيال الطرفين المتصارعين • ولم يكن للقوة البحرية الايطالية من أهمية الا بعد أن ظهر أثرها فى تقدير ما أحرزه الصليبيون من انتصارات (١١٢) •

وقد تسبب على سقوط مدينة صور فى يد الصليبيين « وهنا عظيما على المسلمين » كما أدى ذلك الى تدعيم مركز الصليبيين لانها « من أحسن البلاد وأمنعها » وزاد ذلك فى قوتهم بالشام وفى امدادهم بقواعد بحرية لها أهميتها فى حالتى الهجوم والدفاع • لذلك عنى الصليبيون بتحصينها وعدوها « مفزعا

---

(١١٢) Hodgson, The Early History of Venice, pp. 252 - 253; Oliphant, The makers of Venice, pp. 52 - 53; Daru, Histoire de Venise part, I, p. 77; Bury, The Cambridge Medieval History, p. 411; Henri, Medieval Cities, p. 64.

لحادثة زمانهم وجعلوها لامانهم » • وكيف لا وقد بقيت صور معقلا قويا لهم حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أخريات القرن السابع الهجرى) ، وكانت آخر القلاع التى سقطت فى أيدى المماليك أيام السلطان المملوكى الاشرف خليل •

وأما بالنسبة للبنادقة فلم يهتموا كثيرا بالحصول على مراكز لهم فى المدن الداخلية عدا مدينة القدس ، بل اقتصر اهتمامهم على المدن الساحلية وبخاصة عكا وصور وحيفا (١١٣)• وبعد ذلك قفل البنادقة والدوج عائدين الى بلادهم ولم تقم البندقية بعمليات حربية كبيرة فى الاراضى المقدسة منذ ذلك الحين ، وانشغلت فى ادارة مستعمراتها وتوسيع نفوذها ومنافسة المدن التجارية الاخرى • وبقى الصليبيون فى الشرق يحاولون الاستيلاء على عسقلان ولكن بدون فائدة حتى كان عام ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ حين قامت القوات الصليبية تساندها أساطيل المدن التجارية الايطالية بالاستيلاء عليها • وترتب على سقوطها فى أيدى الصليبيين أن فتحت الطريق أمامهم لغزو مصر ، كما زادت من قوتهم بعد ضياع هذه القاعدة البحرية الهامة من أيدى الفاطميين (١١٤) • وكانت الدولة الفاطمية آنذاك تعانى من القلاقل والاضطرابات ، فأتاحت الفرصة لنجاح الصليبيين فى

---

(١١٣) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٥٢٢ •

(١١٤) ابن الاثير : أتابكة الموصل ص ١٨ •
أبو شامه : كتاب الروضتين ، جـ ١ ص ٩٠
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢١ ،
حبشى : الحرب الصليبية الاولى ص ٨٨ •
Guillaume de Tyr, p. 801. Wiel, Navy of Venice, pp. 96 - 97;

الاستيلاء عـلى موانىء الساحـل ، بينما التزمت هـى جانب الدفاع (١١٥) ٠

وأما عن دور البندقية فى الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧ - ١١٤٩ م / ٥٤٢ - ٥٤٤ هـ ، فالمعروف أن الغرب الاوروبى كان قد هاله خبر سـقوط الرهـا فى يـد عماد الدين زنكى عـام ١١٤٤ م / ٥٣٩ هـ وطلب الصليبيون النجدات من الغرب ٠ فذهب القساوسة والرهبان الى أوروبا يستنجدون أهل الغرب ضد المسلمين « فتألبت أمم الفرنج من كل كل ناحية » (١١٦) وخرجت قوات فرنسية بقيادة الملك لويس السابع كما تحـرك الامبراطور الالمانـى كونراد الثالث بقواته وكانت هذه القوات قد تجمعت فى موانىء البندقية ، وسارت نحو الشرق عن طريق البحـر مرورا بالقسطنطينية ومنها الى بلاد الشام ٠ بينما سارت فرقة أخرى عن طريق البحر ، ولولا سفن البندقية ما وصل هؤلاء الى بلاد الشام ولربما هلك معظمهم فـى البر كما حدث للقوات الالمانية والفرنسية ٠

وبالرغم من فشل الحملة الصليبية الثانية فى الاستيلاء عـلى الرهـا أو دمشق وعدم قدرتها عـلى استرداد مركز الصليبيين فى الشرق ، فان ملك القدس بلدوين الثانى رأى ضرورة الاستعانة بالامبراطورية البيزنطية من أجل مواجهة قوات نوز الدين محمود مما دفع الاخير الى التفاوض مع الامبراطور البيزنطى بأن يكون

---

(١١٥) مرهنك : حقائق الاخبار ، جـ ٢ ورقة ١٤٦ ٠
Runciman, History of the Crusades, part, II, p. 340.

(١١٦) مرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٤٧ ٠
Pirenne, Histoire Economique, p. 184.

لبيزنطة النفوذ على انطاكية دون قتال ، بمعنى الا يعتدى نور الدين على منطقة انطاكية (١١٧) • وبقى نور الدين يجاهد فى سبيل الاسلام والمسلمين حتى تسلم منه راية الجهاد وعملية توحيد الجبهة الاسلامية فى منطقة الشرق الادنى ضد الفرنج السلطان صلاح الدين الايوبى •

والواقع ان ما تقدم فى الحديث عن دور البنادقة فى الحملتين الصليبيتين الاولى والثانية الهدف منه تمهيد سريع لدور جمهورية البندقية الحاسم فى كثير من المعارك التالية وخاصة تلك التى تتعلق بالموانىء الساحلية فى الشام ، وكيف انهم قد استجابوا لنداء البابوية وصرخات ملوك بيت المقدس اللاتين من أجل مساعدتهم ضد المسلمين ، رغم أن هذا العمل كان يسبب لهم الكثير من المتاعب مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت قد منحت البنادقة امتيازات واسعة فى أراضيها ولم تكن تحبذ مساندة الصليبيين وخاصة بعد أن تبين لها أنهم لم يأتوا ليردوا لها ممتلكاتها فى آسيا الصغرى التى كان السلاجقة الاتراك قد سيطروا عليها ، والتى أنشأوا فيها امارات لاتينية بعد الاستيلاء عليها • الا أن البندقية لم يكن فى استطاعتها البقاء بعيدة عن مسرح الحروب الصليبية ، خاصة أنها كانت تمتلك أقوى الاساطيل البحرية فى ذلك الوقت • هذا بالاضافة الى شعورها بالضيق لما أعطاه الامبراطور البيزنطى من امتيازات لغيرها من القوى البحرية الايطالية الاخرى التى كانت تنافسها

---

(١١٧) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٤٧ •

Hodgson, The Early History of Venice p. 263; Crowford, Cleaning, from Venetiaen History, vol, I, pp. 102 -103.

فى المجال التجارى . فلا غرابة اذن أن يكون موقف البنادقة هو الدعم الدائم للصليبيين من أجل تحقيق الكسب المادى فى الدرجة الاولى ، وطالما أن مركز الثقل كان يميل الى جانبهم .

عرفنا مما سبق أن الدولة الايوبية قامت فى مصر سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م أثر صراع طويل بين الصليبيين ونور الدين، ولان أحوال مصر الداخلية كانت سيئة وضعيفة آنذاك ، كما أن الطريق الى مصر أصبح مفتوحا أمام الصليبيين بعد سقوط عسقلان عام ١١٥٣ م / ٥٤٨ هـ فى أيديهم بمساندة البنادقة ، فقد طمعوا فيها . ووضح ذلك فى محاولات أمورى الاول ملك مملكة بيت المقدس المتتالية للاستيلاء على مصر ، وموقف نور الدين فى التصدى للصليبيين حتى أصبحت مصر تابعة له ثم استقل بها صلاح الدين وضم اليها بلاد الشام بعد وفاة نور الدين مكونا جبهة اسلامية موحدة ضد الصليبيين الدخلاء . وهذه الجبهة هى التى أدت الى تغيير ميزان القوى فى الشرق بين الطرفين المتصارعين . فبعد أن كان موقف المسلمين ضعيفا ثم دفاعيا فى بداية الحركة الصليبية ، بدأ فى العهد الايوبى يصبح هجوميا . فهل تغير موقف البنادقة من الصليبيين بعد هذا التغيير فى موازين القوى ؟ وهل أثر ذلك على طبيعة أحوال الصليبيين فى الشرق ، وخاصة بعد أن أصبح صلاح الدين يسيطر على البحر الاحمر الذى تميز بأهميته فى التجارة العالمية (١١٨) .

---

(١١٨) ابن الاثير : أتابكة الموصل جـ ٢ ص ٢٥٠ - ٢٥٢ ،
الذهبى : دول الاسلام ، ورقة ١٥٠ ،

=

لقد وضح هذا التغيير فـي علاقـة صلاح الدين بالامبراطورية البيزنطية ٠ فقد حرص الامبراطور البيزنطى فى ذلك الوقت على كسب مودة صلاح الدين لاحساسه بقوته ، فأرسل اليه ينبئه مثلا بأخبار أسطول الصليبيين الذى اعتزم مهاجمة الاسكندرية سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ٠ ويؤيد هذا ما قاله صلاح الدين فى خطاب أرسـله الى الخليفة العباسـى « المستضىء » ٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م بهذا الخصوص « ٠٠٠٠ الى أن وصلتنا رسالة (ان صاحب القسطنطينية) فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين ، كل منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح والانتقال من معاداة الى مهاداة ومن مفاضحة الى مناصحة حتى أنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها وعساكرها التى لـم يخف

=

الملوانى : تحفة الاحباب ورقة ٧٦ ـ ٧٧ ،
السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٥٧ ،
أبو الفـداء : التبر المسبوك ورقة ١٩ ،
ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٤٩٠ ـ ٤٩٢ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٢١ ـ ٢٣ ،
العينى : عقد الجمان حوادث ٥٦٤ هـ ، ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٥٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ص ١٣٤ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦ ٠
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٤٦ ، الصوفى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٥٨ ، راجع أيضا :
Schlumberger, Campagnes du Roi Amaury pp. 38 - 48, 58; Wiet, L'Egypte Arabe, p. 294; Grousset, Histoire des Croisades, tome II, p. 458.
Setton, History of The Crusades, vol, pp. 550 - 551.

أمرها » (١١٩) • حدث هـذا بفضل ظهور قـوة صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية فى مواجة الصليبيين •

وهنا يثور التساؤل مرة أخرى : هل يتأثر موقف البنادقة بتلك الظروف الجديدة فى الدولة الايوبية ؟ وما هو موقفهم من الايوبيين وهم يعلمون تماما أن دولتهم قامت عـلى أساس الجهاد ضد الصليبيين ؟ • لقد تعرض صلاح الدين منذ بداية عهده فى سنة ١١٦٩ م / ٥٦٥ هـ لهجوم من الاسـاطيل الصليبية عـلى دمياط ، وكانوا قـد قرروا أخـذ مصر قبل أن يتمكن بهـا صلاح الدين ، كما أرادوا أن تكون دمياط قاعدة بحرية صليبية شأنها شأن الموانى الاخرى من الساحل الشامى • وتحركت لهذا الغرض قوات أمورى ملك مملكة بيت المقدس ، كما قدم أسطول ضخم مؤلف من سفن بيزنطة وصقلية ليسهم فى حصار دمياط ، وشاركت أمم أوروبية كثيرة فى الحملة • ولا يستبعد أن يكون البنادقة كانوا قد شاركوا فى عمليات الحصار والقتال بما لهم من أساطيل ، وذلك بهدف ان يكون لهم نصيبهم من الغنائم من ناحية وارضاء لملك القدس أمورى من ناحية أخرى وهو الذى ينعمون فى ظله بامتيازات تجارية واسعة فى المدن الساحلية بمملكته • وقد بلغ عدد مراكب الصليبيين نحـو ألف مركب مـن مختلف الاحجام والاستخدامات تحمل مائتى ألف فارس وراجل ، وقد شارك البيازنة فى هذه الحملة عـلى الرغم من الامتيازات التى كانت الدولة الفاطمية قد منحتها لهم ، وانتهى حصار الصليبيين

---

(١١٩) الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية ص ٠٦٨ ، ثم أنظر : العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ، ص ٧٢ ـ ٧٣ •

لدمياط بصلح مع صلاح الدين الايوبى وذلك لعدم قدرة المهاجمين على احتلال المدينة ، ولان نور الدين هاجم الصليبيين من ناحيته ، وقد التزموا بدفع مبلغ من المال والجلاء فورا عن الاراضى المصرية (١٢٠) ·

وفى عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م هاجم أسطول الصليبيين فى صقلية ثغر الاسكندرية وكان عدد الفرنج نحو الخمسين ألف راجل وعدة طرائدهم ستة وثلاثين تحمل الخيل ومائتى شينى تحمل الرجال ، اضافة الى أربعين مركبا أخرى تحمل الازواد (١٢١) فى حين ذكر ابن شداد أن عدد سفنهم ستمائة قطعة وهذا يدل على أن صقلية قد استعانت بغيرها من القوى البحرية ·

---

(١٢٠) الشهابى : الغرر الحسان ورقة ٣٥٩ ،
الشرقاوى : تحفة الناظرين ورقة ١١٢ _ ١١٣ ،
ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٢٥ ، ابن ايبك : درر التيجان :ورقة٤٩١،
ابن وصيف شاه : جواهر البحور ورقة ٨٢ ، العماد الحنبلى: شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٢٨ ،
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧٩ _ ١٨٣ ،
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٢٨ ، ابن الفرات : الدول والملوك لوحة ٤٤ _ ٤٥ ·
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٦٢٤ _ ٦٢٦ ،
ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٦٠ _ ٢٦١ ، ٢٨٥ ،
ابن الاثير : الكامل جـ ١١ ص ٤٢ ، ابن الاثير : أتابكة الموصل ص ٢٥٩ ·
ابن الوردى : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٧٧ _ ٧٨ ·
Heyd, Histoire du Commerce, part, I, pp. 392 - 396; Duggan, The Story of Crusade, p. 135; Lane-poole, Saladin pp. 103 - 105;

(١٢١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٥ _ ٥٦ ،
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٦٣٣ _ ٦٣٤ ·

وكان السبب المباشر لهذه الغزوة أن بعض الشيعة فى مصر من اتباع الفواطم قد كاتبوا صاحب صقلية وملوك الفرنج ليقصدوا الديار المصرية • ولكن صلاح الدين بلغه خبر هذا الاسطول عن طريق امبراطور بيزنطه ، فلما وصل الفرنج وباغتوا المدينة أشتد القتال « حتى قتلوا وأسروا وأخذ المسلمون من الآلات والمتاع والاسلحة مالا يملك مثله واقلع الاسطول عن الثغر يوم الخميس مستهل المحرم سنة سبعين وخمسماية » (١٢٢) • ومن المحتمل أن تكون البندقية قد شاركت فى نقل القوات الصليبية الى الاسكندرية طمعا فى الكسب المادى وقهر المسلمين والقضاء على دولة صلاح الدين واستخلاص مصر لتصبح امارة صليبية •

ومن أهم النتائج التى ترتبت على هزيمة الصليبيين فى دمياط والاسكندرية ، تدعيم دولة صلاح الدين فى المنطقة وبدأ الصليبيون يحسبون ألف حساب للجبهة الاسلامية الجديدة الموحدة التى أصبحت تحاصرهم من الشمال والجنوب •

وفى عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م قام السلطان صلاح الدين بعدة عمليات حربية ضد الصليبيين والحق بهم هزيمة شديدة فى منطقة صفورية وذلك فى ٣٠ اكتوبر ١١٨٣ م / ١ رجب ٥٧٩ هـ

---

(١٢٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٣١ •
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١١ - ١٦ ،
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٦٣٤ ،
Lane-poole, Saladin, pp. 127 - 128; Hitti, A History of Egypt, pp. 196 - 198.

في حين لم يفقد صلاح الدين سوى شهيد واحد ، ثم جرت معارك في قلعة « الفولــه » (١٢٣) بعد صفورية ،وكان عدد الصليبيين حوالى ألف وثلاثمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل ومن بينهم عدد عظيم من النبلاء الاوروبيين، ويقود الجميع لوزجنان (١٢٤) وجرى القتال بين الفريقين وجها لوجه ووقع الجبن والاضطراب بين القوات الصليبية ٠

ولمــا سمع التجار الايطاليون فــى الموانىء الساحلية بمــا جرى ، أســرع البنادقــة والجنوية والبيازنــة واللومبارديــون للالتحاق بالجيش الصليبى دون أن يأخذوا حاجتهم من الطعام ٠ ولم يكونوا قد اعتادوا على حمل السلاح فأدركهم التعب والحاجة الى الطعام ٠ وكان صلاح الدين قد أحكم الحصــار عليهم وقطع عنهم الامدادات فاضطروا الى الهروب ولحقتهم ســهام المسلمين حيث تراجعوا في خجل الى صفوريه (١٢٥) ٠

ومن تلك الحادثة يتضح أن القوى البحرية التجارية، وخاصة الايطالية ، كانت تحرص كل الحرص عــلى بقاء الوجود الصليبى

---

(١٢٣) قلعة الفولة قرية معروفــة بفلسطين قرب عــين جالوت ، أنظــر : ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠١ ٠

(١٢٤) جاى لوزجنان زوج أخت الملك بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية وفوض بلدوين الرابع لجاى لوزجنان أن ينوب عنه فى تدبير أمور المملكة فاصبح الحاكم الفعلى لها ٠
أنظر : سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٧٨٢ ،

(١٢٥) أبوشامه : الروضتين جـ ٢ ص ٥٠ ،
Guillaume de Tyr, pp. 1120 - 1125; Lane-poole; Saladin and the Fall of kingdom of Jerusalem, pp. 177 - 179.

فقد ترك التجار متاجرهم وسفنهم وانطلقوا لنجدة اخوانهم الصليبيين فلو حدث وانهزم الصليبيين لربما سقطت المدن الساحلية ، وبفقدها يضيع مصدر الربح لهذه القوى البحرية وعلى رأسها البندقية • والخلاصة ان مبادرة هؤلاء التجار الايطاليين لمساندة اخوانهم الصليبيين كان القصد منها الدفاع عن الساحل والابقاء على المصالح الخاصة •

وفى عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ جرت معركة حطين الفاصلة ، اذ انهزم « جاى لوزجنان » فى ٤ يولية ١١٨٧ م / ٢٥ جماد الاول ٥٨٣هـ هزيمة عظمى،وسقطت عكا ثم القدس،وتتابع سقوط المعاقل والحصون اللاتينية ، ولم يبق للصليبيين الا القليل من المواقع وخاصة صور فى الشمال •

ومن أهم الآثار التى ترتبت على هذه الهزائم التى لحقت بالصليبيين أن هبت أوروبا تدعو الى حملة صليبية جديدة ، ونشط البابا لاريجورى الثامن (١١٨٧ م) من أجل الدعوة الى حرب صليبية جديدة للانتقام من المسلمين والاستيلاء على الاراضى المقدسة • وكان البنادقة قد فقدوا امتيازاتهم ووضعهم التجارى فى المدن الساحلية التى استعادها صلاح الدين وخاصة عكا ، ومما يدل على أن هدف الجاليات التجارية كان الكسب المادى ، أنه بعد سقوط معظم مدن الساحل الفلسطينى والمدن الداخلية ، فقد الايطاليون الامل فى تحقيق هذا الكسب ولذلك رفضوا نقل المهاجرين اللاتين الذين رغبوا فى العودة الى الغرب • اذ تحرك طابور طويل من اللاجئين ووصلوا الى الساحل دون أن يتعرضوا للاعتداء من قبل المسلمين ، فكانوا يسيرون فى ثلاث

قوافل : تولى الداوية قيادة القافلة الاولى ، بينما تولى الاسبتارية قيادة الثانية ، في حين قاد باليان والبطريك القافلة الثالثة . ووصلوا الى صـور وضاقت بهم المدينة حتى أغلقوا الابواب في وجه اخوانهم ، ولم يسمح بدخول المدينة سوى للرجال المحاربين ، وقد رفض قادة السفن الايطالية ومن بينها سفن البنادقة نقل اللاجئين الى الموانىء المسيحية الا بعد دفع أجور باهظة . فتدخلت الحكومة المصرية ورفضت السماح للسفن الايطالية الاقلاع من موانيها الا اذا قبلت حمل هؤلاء اللاجئين بدون أن يؤدوا أجورا ، وهذا ما يؤكد ما يدع مجالا للشك الاتجـاه النفعـي للجاليات التجارية الايطالية وبخاصة البنادقة .

ولكن البابا نشط في الدعوة الى الحرب الصليبية ولم يترك الوقت يمضى هباء وفرض في أوروبا ضريبة العشور التى سميت بضريبة صلاح الدين بهدف مقاومـة صلاح الدين . واشتعل الشعور عند المسيحيين في الغرب، كما سافر البابا الى الجمهوريات الايطالية لايمانه بحاجة الصليبيين لمساعدتها في عمليات النقل . فهى تملك الاساطيل اللازمة لنقل الجند والعتاد . والجمهوريات التجارية كانت من ناحيتهـا ترحب بذلك المشروع ، فقد كان لسقوط عكا ومدن الساحل في يد المسلمين أسوأ الاثر عليها ، خاصة وانها كانت تدرك رد الفعل الاسلامى بالنسبة لها . ولذلك شجعت الحملة الصليبية الثالثة بل وشاركت فيها مشاركة فعالة.

ومر البابا في جولته بمدينة بيزا وبذل جهوده في التوفيق بين جنوه والبندقية حاثا اياهم عـلى ضرورة توحيد جهودهم من

أجل الحرب المقدسة ضد المسلمين٠كما بعث بالرسائل الىكل أمراء الغرب وملوكهم يدعوهم فيها بترك ما هم فيه والتوجه الى الشرق٠ فاستجاب المسيحيون في الغرب للبابا،وخاصة ريتشارد قلبالاسد ملكانجلترا وفيليب أغسطس ملكفرنسا،وفريدريك باربروسا امبراطور ألمانيا ، بالاضافة الى الجمهوريات الايطالية والامراء فى مختلف أرجاء الغرب (١٢٦) ٠ وقصدوا بلاد فلسطين بمائتى سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات (١٢٧) ٠ كما اجتمع الصليبيون فى صور ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا الى عكا من صور وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر ، ولم يبق للمسلمين اليها طريق (١٢٨) وقال آخر « وكلما بادوا فى البحر زادوا فى البحر وكم جسروا وخسروا وقتلوا وأسروا وهزموا وكسروا وخلفهم خلف ويقوم مقام مائتهم ألف٠٠٠»(١٢٩)واستمر هذا الحصار منمنتصفشهررجب ٥٨٥ هـ الموافق ٢٧ أغسطس ١١٨٩م حتى ١٧جماد الآخر ٥٨٧هـ

---

(١٢٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٩٣ ، العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٦٠ ،

Hodgson, The Early History of Venice, pp. 336-337; Archer The Crusades, p. 307; Grousset, Histoire des croisades, part, II, pp. 834 - 835; part, III, p. 5, 8;
Stevenson : Crusaders in the East, pp. 206 - 207; Lane - poole, Saladin pp. 197 - 216.

(١٢٧) الصدفى : تاريخ دول الاسلام جـ ٢ ص ٢٦٠ ٠

(١٢٨) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٧٦ ، ٨١ ، سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٥٥ ٠

(١٢٩) أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٥٤ ٠

١٢ يوليو ١١٩١ م • وكانوا قد أحاطوا بها وحفروا عليهم خندقا فلم يتمكن السلطان صلاح الدين من الوصول اليهم ، وقام المسلمون بمحاولات عديدة لانقاذ المدينة المحصورة وجاءت النجدات من مختلف البلاد الاسلامية وواجه المسلمون داخل عكا شدائد عظيمة حتى اضطرت المدينة الى الاستسلام يوم الجمعة سابع عشر من جمادى الآخرة ٥٨٧ هـ الموافق ١٢ يوليو ١١٩١ م وقتلوا بعض من كان فيها وأسروا الباقين • ولقى المسلمون فى هذه شدة عظيمة من الفرنج (١٣٠) •

ويعزى استيلاء الصليبيين على عكا الى القوى البحرية التجارية ، وخاصة الايطالية ، فقد اشتركت البندقية ومعها جنوه وبيزا بأساطيلها ومقاتليها فى هذه المعارك وخاصة الحرب ضد المسلمين وكانت السبب الرئيسى فى استسلام عكا لان سفنها كانت وسائل النقل التى بدونها كان يتعذر وصول الصليبيين وباقى الامدادات الى عكا أو احكام الحصار البحرى حولها ، خاصة وانالعلاقات مع بيزنطه لم تكن على ما يرام فى تلك الفترة • بل كانت الدولة البيزنطية تضع العراقيل أمام الصليبيين علاوة على خطورة الطريق البرى وبعد المسافة • ودليل ذلك

---

(١٣٠) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٨٧ - ٩٤ ، البغدادى : عيون الاخبار جـ ٢ لوحة ٣٩٩ - محمود فهمى : البحر الزاخر جـ ٣ ورقة ٢٦٢ - ٢٦٣ ، العماد الاصفهانى : الفتح القسى ص ٣٣٨ ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٨٣ ،
عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٨٦ ،
Lane-poole, Saladin, pp. 251 - 253, Duggan, The Story of the Crusades, pp. 167 - 176; Deanesly, A History of Medieval Church, p. 108.

ما تعرض له الامبراطور الالماني في طريقه الى الاراضي المقدسة ، وهلاك معظم قواته وعودة الباقين من حيث أتـوا لانهم سـلكوا طريق البحـر ٠ فاذا أضفنـا الى ذلك الجمهوريات الايطاليـة التجارية في الحرب أدركنا أثرها في الاستيلاء عـلى عكا ٠ وليس بغريب هذا الموقف بالنسبة لتلك الجمهوريات التي كانت تمتلك المعامل والاحياء والامتيازات في عكا وفي غيرها من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية ٠ ويتضح تحالف الغرب الاوروبي فـي هذه الحملة ضد المسلمين مما قاله المؤرخون المسلمون أنفسهم ٠ فقد ذكر أبو شامه « ومن خبر الفرنج أنهم الان عى عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه ٠ وقـد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضـوا اليهم من كل فرقة طائفة ويرسلوا اليهم من كل سلاح شوكـة فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بعثوا ألفا عوضه في البحـر فالزرع أكثر من الحصاد ٠٠٠٠ » (١٣١) وقال ابن شداد « ثم ان الفرنج جاءهم الامداد من البحر واستظهروا عـلى الجماعـة الاسلامية بعكا ٠٠٠٠ وصاح الفرنج صيحـة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزنهم ووقع من الصياح والعويل والبكاء ما لا يذكر ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضـا من المسلمين ٠٠٠ » (١٣٢) وذكـر

---

(١٣١) أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ثم أنظر : ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ٨٨ ، البغدادي : عيون الاخبار جـ ٢ لوحة ٣٩٩ ،

عبادي وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٨٣ ، وراجع ايضا :
Okey, Venice and its Story, p. 45.

(١٣٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٣١ ، ١٣٤ ـ ١٣٥ ٠

ابن خلدون امدادات البحر للصليبيين بقوله : « ثم تتابعت امداد الفرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين لعكا » (١٣٣) وأدرك صلاح الدين عظم المصيبة وكثرة الصليبيين وقوتهم فأرسل يطلب النجدات من الاطراف ومن خليفة بغداد ويحث على الجهاد • فقال المقريزى : « ويعث السلطان الى الاطراف يحث الناس على الجهاد وأرسل الى أخيه سيف الاسلام طغكتين باليمن يطلب منه الاغاثة بالمال والى مظفر الدين قرارسلان صاحب العجم، وكتب الى الخليفة ووصلت الامداد الى الافرنج وورد الخبر من حلب بخروج ملك الالمان والقسطنطينية فى عدة عظيمة تتجاوز الالف ألف يريدون البلاد الاسلامية (١٣٤) •

ودور البندقية كان واضحا فيما أحرزه الصليبيون من انتصارات • والادلة على ذلك كثيرة ، فقد أنقذ أسطول من صقلية مدن طرابلس وصور وانطاكية وذلك عام ١١٨٨ م / ٥٨٤ هـ • كما أن الاسطول البندقى كان عاملا هاما فى مساندة الصليبيين • فى عكا وتحقيق النصر لهم ، فقد قام بنقل الامدادات وقاتل مع الصليبيين ، وكان أول الاساطيل التى تحركت من أجل الحملة الثالثة •

وكانت سفن البندقية والقوى البحرية الاخرى تسيطر على البحر حتى أنها لم تمكن أسطول السلطان صلاح الدين من تزويد حامية عكا المحاصرة بالامدادات أو المؤن • ونتج عن ذلك نقص

---

(١٣٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ ٥ ص ٧٠٧ •

(١٣٤) المقريزى : السلوك جـ ١ ـ القسم الاول ـ ص ١٠٢ ـ ١٠٣ •

فى المعدات والازواد مما أدى الى هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين (١٣٥) ٠

وأشار صلاح الدين الى البنادقة فى كتابه الى الخليفة العباسى فقال « وان كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الالمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبياشنة والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية والاساطيل القوية وللاسلام بأمير المؤمنين اعز ناصر لا سيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهويعبد خالقا وهم يعبدون خلقا » (١٣٦) ٠

ولا شك أن البنادقة كانوا يدافعون عن عكا ومدن الساحل والصليبيين بهدف المحافظة على مكاسبهم المادية وتجارتهم الشرقية ، وكانت لهم امتيازات ومصالح فى عكا وبقية مدن الساحل ٠ وهذا يفسر الدور البندقى فى الدفاع والهجوم من أجل استرداد عكا ومدن الساحل الشامي الاخرى ٠ ويمكن القول ان البندقية ، بالاضافة الى القوى البحرية الاخرى ، كانت السبب فى حفظ الكيان الصليبى فى فلسطين ٠ وربما تكفل البنادقة بالدفاع عن المدن الساحلية لانها كانت همزة الوصل بين الغرب الاوروبى ومملكة اللاتين فى فلسطين ٠ ولذلك حصلت على امتيازات واسعة بعد اعادة فتح عكا ، وكذلك بالنسبة لجنوه مما

Okey, Venice and its Story, p. 54; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 338 - 339; Setton, History of Crusades, vol, 2, p. 53. Bury, The Cambridge Medieval History, p. 414.

(١٣٦) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٢ ص ٤٩٥ ٠

أدى الى التنافس وقيام الحروب بينهما فى عكا اختلافا على المصالح المادية فى المملكة الصليبية . وربما ما كان ليتيسر للملكة اللاتينية فى الشام أن تبقى حتى عام ١٢٩١ م / ٦٩٠ هـ لولا الاسطول البندقى والقوى التجارية الاخرى ، بمعنى أن البنادقة كانوا من العوامل الهامة فى استرداد الساحل وحفظه حتى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى (أخريات القرن السابع الهجرى) (١٣٧) .

وبعد أن أسترد الصليبيون عكا جرت اتصالات بينهم وصلاح الدين وتم عقد الصلح عام ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ لمدة ثلاث سنوات . وتمكن الصليبيون بموجبه من استعادة الساحل الواقع ما بين عكا وعسقلان ، كما تم السماح للحجاج المسيحيين بزيارة القدس (١٣٨) . ويقول فيشر أنه لم يبق من آثار الحملة

---

(١٣٧) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧ .
عماد الدين الكاتب الاصفهانى : الفتح القسى ص ٢٧٥ ، ٢٨١ ،
أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ١٨٧ ،
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٦٩ ، وراجع :
Estoire d'Eracles, pp. 169 - 170; Ernoul, p. 273.
Okey, Venice and its Story p. 54; Hodgson, Early History of Venicep. 234, Runciman, History of Crusades, vol, III, p. 49;

(١٣٨) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٥٦ ،
أبو شامه : الروضتين جـ ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٩٤ ،
ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ،
عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٤٣ ،
عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٩٢ ، وراجع أيضا :
Hodgson, The Early History of Venice, p. 340; Grousset, Histoire des Croisades, vol, II, p. 175; Setton, History of the Crusades, vol, II, p. 85.

الصليبية الاولى بعد انتهاء الحملة الثالثة سوى الخط الساحلى من الموانىء الفلسطينية وأعظمها مدينة عكا ، وهذه تشكل المصالح الهامة للتجارة الايطالية ومن ثم كان الايطاليون سببا فى استردادها وحفظها لمدة قرن من الزمان (١٣٩) • وقال أيضا أن الحروب الصليبية والدينية لم تكن لتقرب الانسان البندقى من الدين ولكن ليؤسس الامبراطورية التجارية للبندقية ، بمعنى أن من أراد الكسب المادى والثراء لبناء الامبراطوريات لا يمكنه التوفيق بين أطماعه وبين خدمة الدين المسيحى ، فثمة تعارض بين حب الثراء والانانية وخدمة الحركة الصليبية ، وما جرى فى الحملة الصليبية الرابعة أفضل الادلة على ذلك (١٤٠) •

لقد أثبتت الحوادث أن هدف البندقية هو الكسب المادى فحسب وكان البنادقة يركزون على المدن الساحلية ولم يكونوا يهتمون باحتلال المدن والبلاد الداخلية فى الشام ، وهذا جعل الصليبيين فى الداخل فى حالة ضعف دائم • وآية ذلك أن صلاح الدين الايوبى أمكنه الاستيلاء عى معظم المدن والحصون الداخلية بالاضافة الى مدن الساحل الفلسطينى ولم يتمكن الصليبيون ومعهم الايطاليون أن يستردوا سوى مدينة عكا وبعض مدن الساحل ، فى حين بقى داخل البلاد والقدس فى يد المسلمين ، ولم تبذل الجمهوريات الايطالية الثلاث جهدا فى سبيل

---

(١٣٩) Fisher, A History of Europe, p. 234;
Bury, Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 329.

(١٤٠) Fisher, A History of Europe, p. 235; Weech History of the world, pp. 438 - 439.

أستعادتها ، واضطر حكام مملكة بيت المقدس الى ترك الاطراف المقدسة فى أيدى المسلمين ونقلوا مركز الملك الى عكا (١٤١) ·

وكانت البندقية فى علاقاتها مع مصر تتكيف وفقا لقوة مصر ووضعها السياسى والعسكرى وأثر ذلك على الحركة الصليبية وعلى مصالحها التجارية · ويعزز ذلك ما ذكره السلطان صلاح الدين فى كتابه الى الخليفة العباسى ١١٨٢ م / ٥٧٨ هـ يصف له أحوال الجيوش المسيحية ، فيقول : « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشقة والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ولا تطفأ شرارة شرهم وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة وما منهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا آلة قتالة وجهاد ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وتلادة وكلهم قد قررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثرهم لا يؤثرون » (١٤٢) ·

وبعد انتهاء الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ ـ ١١٩٢ م

---

(١٤١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية (الترجمة العربية) جـ ٣ ص ٩٩ ـ ١٠٠ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،

Hodgson, Early History of Venice , pp. 237 - 239; Medieval Trade, pp. 88 - 89; Bury, cambridge Medieval History, vol, 5, pp. 311, 329.

(١٤٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ٤٩١ ،
أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٤٣ ·
والنص الكامل للخطاب فى جـ ١ ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ ·

(٥٨٥ ــ ٥٨٨ هـ) رأت الكنيسة اللاتينية بزعامة البابوية ضرورة اعادة سيطرتها على الحروب الصليبية • ومن ثم بدأ البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ ــ ١٢١٦ م) يدعو في أوروبا من أجل حرب صليبية جديدة لانقاذ الاراضي المقدسة من أيدى المسلمين ، كما نشط الدعاة لهذا الهدف فى أوروبا بصفة عامة وفى فرنسا على وجه الخصوص • ووافق البابا على الدعوة التى قام بها جماعة من الامراء في فرنسا من أجل حرب صليبية ضد المسلمين • واحتشد كثير من أهل فرنسا وخصوصا من مقاطعة شمبانيا لهذا الغرض ، واستغرقت هذه التجمعات مدة عامين تقريبا (١١٩٩ ــ ١٢٠٠ م / ٥٩٥ ــ ٥٩٦ هـ) ، ثم عقد هؤلاء الامراء عدة اجتماعات من أجل تنسيق خطة الحملة المزمع ارسالها الى مصر• ووقع اختيارهم من حيث المبدأ على قائد هذه الحملة وهو « ثيبوت » كونتشمبانيا (١٤٣) ثم ناقش المجتمعون خطة سير الحملة والطريق الذى تسلكه • أيكون عبر البرام عن طريق البحر ؟ وكان الرأى الافضل عند الجميع أن تسلك الحملة الطريق البحرى حتى يصل الصليبيون الى الشام دون مشقة وتجنبا لاى تصادم قد يحدث بين الصليبيين والامبراطور البيزنطي وما قد ينشب بين المحاربين الصليبيين

(١٤٣) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية (الترجمة العربية) ص ١٢ •
Villehardouin, la Conquete de Constantinople, part I, pp. 2 - 6, Lachaire, Innocent III, et question d'orient, p. 15; Fliche, Histoire de l'Eglise, pp. 44 - 60; Wiel, Venice pp. 125 - 126; Okey, Venice and its story p. 63; Setten, History of the Crusades, vol, II, pp. 158 - 159; Runciman , History of the Crusades, vol, III, pp. 108 - 109.

وبين مسيحى النواحى التى يمرون بها أثناء مسيرهم الى الشرق ولكن الرحلة عن طريق البحـر تحتاج الى السفن ، وفـى ذلك الوقت كانت جمهورية البندقية تمتلك أكبر أسطول فى البحـر المتوسط فاستقر الرأى على ارسال بعثـة الى البندقية للتفاوض معها حول هذا المشروع • ولهذا الغرض تحركت سفارة مكونة من ستة أشخاص على رأسهم مؤرخ الحملة الرسمى « فيلهاردوان Villehardouin » الذى توجه بالسفراء الى البندقية واتصل بالدوق هنرى داندولو Henry Dandolo وبعد مناقشات طويلة ، وبعد أن ركع أعضاء الوفد أمام الدوق وهم يبكون اتفق الطرفان فى معاهدة فى مارس ١٢٠١ م على الآتى : تعهد البنادقة باعداد أسطول لنقل ٤٥٠٠ فارس وتسعة آلاف مقاتل وعشرين ألف جندى من المشاه كما تعهدت البندقية أيضـا بتوفـير المؤن اللازمة لهؤلاء لمدة تسعة أشهر وتعهد الجانب الصليبى من ناحيته بدفع مبلغ ٨٥ ألف مارك (١٤٤) على أربع مراحل : أول دفعة خمسة عشر ألف مارك فضى قبل أغسطس ١٢٠٢ م ، والدفعـة الثانية تكون عشرة آلاف مارك تدفع فى نوفمبر ١٢٠٢م والدفعة الثالثة عشرة آلاف مارك تدفع فى شهر فبراير ١٢٠٣م ، والباقى يدفع فى شهر ابريل سنة ١٢٠٣ م • كما تقرر أن يكون للبنادقة نصف ما يقومون باحتلاله • ورأت البندقية تشجيعا لهذه الفكرة

---

(١٤٤) المارك عملة فضية أو ذهبية وقد تكون من النحاس استخدمت فى غرب أوروبا فى معظم القرون • وهى أقل من قيمة الشلن الانجليزى بقليل وتختلف من بلد الى آخر من حيث القيمة • أنظر :
Bradley, A New English Dictionary, vol, VI, tome II p. 170.

أن تساهم الى جانب الصليبيين بعدد آخر من السفن عدده خمسين سفينة حربية تقوم هى باعدادها والانفــاق عليها وبها مقاتلين بنادقة شريطة أن تكون الغنائم والاسلاب والفتوح مناصفة بينهما وبين الصليبيين • كما اتفق الطرفان عــلى أن تكون تجمعــات الصليبيين فى البندقية ومعهم أسلحتهم ومعداتهم الحربية والخيول ودواب النقل حيث تبحــر هذه القوات من البندقية فى ســفن الاسطول الحربى فى موعد غايته ٢٦ يونيو ١٢٠٢ م • وكان هدف البنادقة من التجمع فى البندقية ضمان استلام المبلغ المتفق عليه مقابل نقل الحملة الى الشرق • وســار مندوب عن الدوق مع السفراء الى بلادهم حيث دفعوا له مبلغ ٢٥ ألف مارك مقدما حتى يصبح الاتفاق سارى المفعول ، وعاد بعد ذلك المندوب الى البندقية (١٤٥) •

أما عن موقف البابا من هذه الاتفاقية فقد وافق عليها بعد تردد وبعد أن اشترط ضرورة وجود نائب عنه فى الحملة اسوة

(١٤٥) Villehardouin, la conquete de Constinople, part, 2, pp. 18 - 34; Wiel, Navy of Venice, pp. 127 - 129; Okey, Venice and its Story pp. 57 - 58; Oliphant, The Makers of Venice pp. 74 - 77; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 354 - 355; Daru, Histoire Venice, part, I, pp. 115 - 116; Crawford, Cleaning from Venatian, History, vol, I, pp. 126 - 129; Brehien , L'Eglise et l'oréent, p. 151; Grousset, Histoire des Croisades, vol III, p. 171; Tout, The Empire and the Papacy, p. 343; Setton, History of Crusades, vol, II, pp. 159 - 161; Henry Hort, History of Latin Christianity, vol, 3, pp. 132 - 135, 141; Bury, The Cambridge Medieval History, p. 415; Brown, Venetian Republic, p. 52.

بما اتبع فى الحملات السابقة . كما اشترط الا تقـوم الحملة بالاعتداء أو قتال أية فئة مسيحية كاثوليكية كانت أم أرثوذكسية لان البابا كان يشك فى نوايا البنادقة وصدقهم (١٤٦) .

وأما هدف الحملة والجهة التى تريدها فكان هنـاك فريق يرى المسير الى فلسطين بينما رأى فريق آخر ضرورة توجيه الحملة الى مصر ، لان صلاح الدين استطاع أن يهزم الصليبيين انطلاقـا من مصر قاعدة الجبهة الاسلامية القوية . فى حين رأى البنادقة أن يكون مقصد الحملة سرا وذلك للتضليل ، واكتفوا بالقول أن هدفها فيمـا وراء البحـر ، ولكنهم اتفقوا سرا أن الهدف هـو مصر (١٤٧) . وكان السفراء قد ساروا الى جنوه وبيزا لمعرفة المساعدات التى يمكن أن تقدمها كل منهما للصليبيين فى هـذه الحملة ، وذلك بعد ان تم ابرام الاتفاق مع البنادقة (١٤٨) .

بدأت العقبات أمام الحملة الصليبية الرابعة التى شـارك فيها البنادقة بوفاة « ثيبوت » كونت شامبانيا فى مايو ١٢٠١ م / وهو الذى كان أكبر ممول للحملة مما أدى الى عـدم حصـول الصليبيين على القدر الكافى للانفاق عليها ، فاضطربت خطتهم وتعقدت الامور . يضاف الى ذلك أن عددا كبـير من الصليبيين رغبوا فى السفر الى بلاد الشام عن طريق موانىء أخـرى غـير

---

(١٤٦) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٣ .

(١٤٧) Wiel, Navy of Venice, pp. 126 - 128; Okey, Venice and its Story p. 58; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 354 - 355; Brown, venetian Repulic p. 52.

(١٤٨) Brown, Venetian Republic, p. 52; Hodgson, The Eearly History of Venice, p. 356.

البندقية مما أدى الى عدم تمكين الصليبيين من دفع كل المبلغ المتفق عليه • ثم تنصيب « بونيفاس مركيز دى مونتفرات » قائـدا للحملة رغم كراهية عدد كبير من الزعماء له (١٤٩) •

واجتمعت القوات الصليبية فى البندقية ولكن العدد كـان دون المتفق عليه مما أدى الى عجز الصليبيين عن الوفاء بكل المبلغ المطلوب • فانتهزت البندقية هذا الظرف للاستفادة من الصليبيين واستغلال الحملة فى تحقيق أهدافها الخاصة ، فعرضت استعدادها لتأجيل دفع المبلغ المتبقى على الصليبيين وقدره ستة وثلاثين ألف مارك وذلك مقابـل أن يوافق الصليبيون عـلى مساعدتها فـى استرداد مدينة زارا فى ســاحل دالماشـيا والتـى كانت أعلنت الثورة عـلى البندقية وانضمت الى ملك المجر المسيحى • وأمـام العجز المـالى عند الصليبيين لم يكن ثمة سبيل سـوى الاستجابة لرغبة البندقية ومساعدتها فى اخضاع زارا • ولهذا دلالته فى أكثر من ناحية ، فهو يكشف عن قوة البندقية وقدرتها فى التحكم في شئون الحملة الصليبية المزمع قيامها كما يوضح دورها الكبير في وجود الكيان الصليبى فى المشرق ويبرز عظمتها وضعف حال المسيحيين المشتركين فى هذه الحملة • ثـم أنه فوق هذا وذاك تكشف عن رغبتها فى عدم مضايقة الايوبيين في مصر حتـى لا تضار مصالحهم التجارية فى بلاد المسلمين (١٥٠) « ظلوا طول ليلتهم هذه فى غبطة شاملة ، فلم يبق أى فقير لم يقم اضـاءه

(١٤٩) Daru, Histoire de Venice, part, I, p. Oliphant, The Makers of Venice, p. 77.

(١٥٠) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٤ ، ٤٣ – ٤٥ ،

=

عظيمة ، وحملوا مشاعل كبيرة ركزوها علـى أطراف رماحهم ونصبوها حول خيامهم وداخلها حتي حتى لقد كان يخيل للرآئى أن المعسكر بأجمعه قد استحال شعله من نار » (١٥١) ٠

وفى ٨ نوفمبر ١٢٠٢ م تحرك الاسطول البندقى والدوق فى سفينته الخاصة وعم الجميع الفرح ٠ وكان الاسطول ضخما حتى « أنه لم ير قط أروع أو أغنى من هذا الاسطول الذى يرونه ولم يحدث أن تجمع مثله فى أى بلد من البلاد (١٥٢) ٠

وبلغ الصليبيون زارا بعد يومين وهاجموها حتى استسلمت فى ١٥ نوفمبر ١٢٠٢م واستباحوها لعساكرهم ثم نشب نزاع بين البنادقة والصليبيين حول توزيع الغنائـم ولكنهم عادوا مـرة أخرى الى التفاهم ورغبوا فى التحرك الى مصر بينما أعلن البابا قرار الحرمان ضد البنادقة الذين قادوا الصليبيين الى بلد مسيحى

=

مرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٥٨ ،
Villehardouin, La conquete de Constantinople, tome, I, pp. 66 - 70, 76 - 89; Daru, Histoire de Venice,part, I, p. 116; Okey, Venice and its Story p. 59; Wiel, Navy of Venice, pp. 130 - 132; Brown, Venetian Republic, pp. 49 - 53; Oliphant, The Makars of Venice; pp. 77 - 78; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 357 - 359, Bury, Cambridge Medieval History, p. 416.

(١٥١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥ ـ ٤٦ ٠

(١٥٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٦ ـ ٤٧ ٠
Wiel, Navy of Venice, pp. 130 - 132; Hodgson, The Early History of Venice pp 359 - 360; Balzani, Italy, pp. 295 - 297.

مثلهم (١٥٣) ٠

وكانت العلاقات بين البندقية وبيزنطة أخذت تتحول الى علاقات شبه عدائية منذ بداية الحروب الصليبية ٠ وكثيرا ما كانت تبدو فى شكل عداء سافر نظرا لان البنادقة فقدوا مركزهم الاول فى الامبراطورية عندما منح البيزنطيون الامتيازات التجارية للبيازنة والجنوية ، وقبضوا على الرعايا البنادقة وصادروا أموالهم ٠ كما أن البندقية كان لها ما يشجعها ضد بيزنطة ، وخاصة احساسها بقوتها ومستعمراتها فى الشرق الصليبى ٠ بمعنى أنها وجدت بديلا عن بيزنطه فى موانىء الشام اللاتينية وموانىء مصر الاسلامية ٠ الا أنها كانت لا تزال تفكر فى ضرورة تأمين تجارتها وزيادة تجارتها وزيادة سيطرتها ٠ ولهذا كانت الحملة الصليبية الرابعة فرصة للبندقية للاستفادة منها فى تحقيق أهدافها الخاصة ٠ واستغلت فى ذلك وقوع انقلاب فى القسطنطينية عام ١١٩٥ م أطاح بالامبراطور اسحق كومنينوس على يد شقيقه الكسيوس بينما هرب ابن اسحق الصغير المسمى الكسيوس الى أوروبا ٠ وتمكن هذا الشاب من الاتصال بالصليبيين والبنادقة ، واتفق معهم على مساعدته بالعودة الى عرش والده فى القسطنطينية ٠ فاتخذ البنادقة والصليبيون

(١٥٣) Villehardouin, part, I, pp. 58 - 66; Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 117 - 118; Wiel, Navy, of Venice pp. 133 - 135; Okey, Venice and its Story, pp. 61 - 62; Hodgson; The Early History of Venice, pp. 360 - 362; Brown, Venetian Republic, pp. 52 - 53; Balzani, Italy, pp. 297 - 298.

ذلك مبررا ظاهرا لغزو القسطنطينية واحتلالها (١٥٤) .

كذلك حاول البنادقة والصليبيون أن يظهروا أن احتلال امبراطورية الاغريق (بيزنطه) سوف يحقق أهدافا كثيرة منها ازالة الامبراطورية البيزنطية التى كانت عقبة فى طريق الحجاج والحملات الصليبية ، واحتلالها يعنى تسهيل هذا الطريق وتشجيع الحرب الصليبية واسترداد الاراضى المقدسة وتأمين تجارة البندقية التى رغبت أن تكسر الاحتكار التجارى البيزنطى، واعادة وحدة الكنيسة المسيحية تحت سيادة روما وهذا ما كانت تسعى اليه البابوية والغرب الاوروبى للسيطرة على بيزنطه منذ أمد بعيد ، ضف الى ذلك المكاسب المادية وتحقيق الاطماع فى الحكم وتحقيق الثراء الذى به يمكن للصليبيين مهاجمة مصر واحتلال بلاد الشام ، ولكل تلك الاعتبارات قال روبرت كلارى مؤرخ الحملة الصليبية الرابعة أن الصليبيين استجابوا لنصيحة هذا الشاب البيزنطى ورغبوا فى مساعدته لان فى ذلك أيضا تحقيق أهدافهم الاخرى (١٥٥) .

---

(١٥٤) Wiel, Venice, pp. 131 - 132, 135 - 137; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 349 - 330, 363; Pirenne, Histoire Economique , pp. 185 - 186; Tout, The Empire and the papacy, pp. 343 - 346; Henry Hart, History of Latin Christianity vol. 3. p. 142.

(١٥٥) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٦٥ ،
Wiel, Navy of venice, pp. 136 - 137; Hodgson, The early history of venice, pp. 429 - 430; Oliphant, The Makers of Venice, p. 82; Daru, Histoire de Venice, part I, pp. 120 - 121; Setton History of Crusades, vol, II, p. 381.

وتحــركت القوات الصليبية والاســطول الى القسطنطينية حيث أدركوها فى يونيه ١٢٠٣ م / شوال ٥٩٩ هـ ، فلما سمع بهم الامبراطور المتربع عــلى العرش هرب الى أدرنه بينما أعتلى العرش أخوه المخلوع اسحق ومعه ابنه الشاب شريك الصليبيين فىهذه الحملة ، فىحين بدأ الصليبيون يطالبونه بالوفاء بتعهداته لهم وخضع لسيطرة الصليبيين عليه خضوعا كليا واضطر الى دفع جزية ثقيلة ٠ وهذا أدى الى سخط الاغريق وغضبهم ، فثاروا على الامبراطور الجديد حيث أعدم الشاب الصغير واعتــلى العرش الكسيوس الخامس الذى رفض دفع أى شيء من الجزية للصليبيين وطلب انسحابهم من البلاد كما أشار عليهم بضرورة التحرك الى مصر ، فاضطر الصليبيين والبنادقة أمــام تحــدى الامبراطور الجديد لهمالى اعادة فتح القسطنطينية عنوةفى ١٢ ابريل ١٢٠٤م ٩ شعبان ٦٠٠ هـ ٠ وأباحوها لكثير من التخريب والنهب فى حين استطاع الامبراطور الجديد الهرب (١٥٦) ٠ وكان دور البندقية فى الدرجة الاولى ينحصر فى الاستيلاء عــلى العاصمة البيزنطية ، وقــد أمكنهم الانتقام مــن بيزنطــه والحصول عــلى الغنائــم

---

(١٥٦) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ١٤٥ ،
مرهنك : حقائق الاخبار ج ٢ ورقة ١٥٨ ــ ١٥٩ ،
الشهابى : الغرر الحسان ورقة ٣٩٤ ،
أبو الفــدا : المختصر ج ٣ ص ١١٠ ــ ١١١ ،
ابن الساعى الخازن : الجامع المختصر ج ٩ ص ١٢ ــ ١٢٤ .
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٣٢٨ ،
محمود فهمى : البحر الزاخر ج ٢ ورقة ٣٧٦ ــ ٢٧٧ ، ج ٣ ورقة ٢٦٣ ــ ٢٦٤ ،
الصدفى : تاريخ دول الاسلام ج ٢ ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ ٠
العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢ ٠

الكثيرة (١٥٧) ·

واتفق قادة الحملة والدوج وكبار البنادقـة عـلى تشكيل لجنة من اثنى عشر عضوا لاختيار الامبراطور الجديد بحيث يكون نصف أعضائها من البنادقة والباقى من الفرنسيين · واتفق أيضا عـلى أن يكون اختيار بطريك القسطنطينية من أمة أخرى غـير الامة التى منها الامبراطور · كما تقرر بقاء الصليبيين والبنادقة فى القسطنطينية حتى يتم تعيين الامبراطور الجديـد وتقديـم العون له فى تنفيذ سلطاته · وقد وقع الاختيار أولا على الدوج هنرى داندولو ليكون امبراطورا ولكنه هو شخصيا والبنادقـة رفضوا ذلك بحكم تقدم سنه وباعتباره رئيس جمهورية البندقية التى من أجلها كانت كل تلك التضحيات والمغامـرات · فوقع اختيارهم على بلدوين كونت فلاندرز وتوج امبراطورا فى كنيسة سانت صوفيا فى١٣ فبراير ١٢٠٤م/٢١ رمضان٦٠٠هـ، كماتوج توماس موريسينى البندقـى الجنسية بطريكـا للقسطنطينية · وشغل رجال من البنادقة معظم الوظائف الدينية فى الامبراطورية

---

(١٥٧) Villehardouin, part, II, pp. 6 - 23; 59 - 60. Daru, Histoire de Venice, part, I. pp. 122 - 154; Olipheant, The Makers of Venice pp. 83 - 86; Wiel, Navy of Venice, pp. 115 - 116, 136 - 140, 146 - 149; Hure, Venice, p. 8; Wiel, Venice, pp. 137 - 146; Okey Venice and its Story pp. 67 - 68. Wiel, Navy of Venice, pp. 125 - 126; Hodgson, The Early History of Venice, p. 431; Briton, A History of Civilization, vol, I, p. 363.

بمعنى أنه كانت لهم السلطة الدينية فى الامبراطورية اللاتينية الجديدة ولعلهم أرادوا بذلك التأثير على البابوية ومواقفها منهم بما لهم من سلطات دينية فى الامبراطورية اللاتينية الجديدة (١٥٨) ٠

ومما لا شك فيه ان ما حصلت عليه البندقية نتيجة لتحول الحملة عن مصر الى بيزنطه كان أكثر فائدة لها وأعظم نفعا ، واذا كان هدف البندقية والبنادقة دائما هو الكسب والثراء فلا غرابة فى تحويل الحملة تحقيقا لهذا المبدأ وابقاءا على العلاقات الطيبة مع الدولة الايوبية فى مصر ٠ فقد قال الدوج داندولو « ان دينه هو أن يرى بلاده فى غاية العظمة » وسبق أن قال للصليبيين : « اما زارا واما النقود ، الماركات الفضية » (١٥٩) ٠

وبعد أن خضعت القسطنطينية للصليبيين عام ١٢٠٤ م لنا أن نتساءل هل قدمت هذه الامارة اللاتينية الجديدة خدمات

---

(١٥٨) سرهنك : حقائق الاخبار ج ١ ورقة ١٤٩ ،
ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٨ ،
Wiel, Navy of Venice pp. 147 - 153; Venice, pp. 144, pp. 147 - 148; Okey, Venice and its story, pp. 68 - 69, Tout, The Empire and the Papacy, p. 347, Runciman, History of Crusades, vol, 3, p. 121;
Henry Hart, History of Latin Christianty, vol, 3, pp. 151, 162; Bury, The Cambridge Medieval History, p. 419;
Gibb Brown, Islam Society and the West, part, I, p. 98.

(١٥٩) Henry hart, History of Latin Christianity, vol, 3, pp. 136, 139; Bowle, The Unity of European History, p. 115.

للصليبيين بالشام ؟ هذا مع العلم بأن البابا أنوسنت كان عاملا محركا للحملة الصليبية الرابعة ؟ وهو الذى حدد سنة ١١٩٩ م / ٥٩٥ هـ موعدا لتحرك الجيش الصليبى • ولم يتوان حتى تحركت القوات الصليبية الى البندقية كما أوضحنا • ولكن ذكاء البنادقة جعلهم يحولون الحملة عن مصر استمرارا للعلاقات الطيبة معها ويوجهونها الى بيزنطة انتقاما منها • وان دل هذا على شىء فانما يدل عـلى تحسن العلاقات بين البندقية والدولة الايوبية فى هذه الفترة •

وأما عن موقف البنادقة فى حملة الاطفال فى عام ١٢١٢م / ٦٠٩ هـ فلم يزد عن دور التاجر الذى يبحث عن الكسب فقط ، وكان أطفال من فرنسا والمانيا قد أخذهم الحماس وتحركوا الى الشرق بهدف استرداد بيت المقدس ، وذلك اعرابا عن غضبهم للنتائج السيئة التى وصلت اليها الحملة الرابعة عندما انحرفت عن مصر واحتلت القسطنطينية • فوقعوا أثناء رحلتهم فى أسر القراصنة وتجار الرقيق وباعهم الايطاليون فى مصر فى أسواق الرقيق (١٦٠) • ولا يستبعد أن يكون البنادقة ممن شاركوا فى هذه العملية •

ولقد أثارت نهاية حملة الاطفال شعور المسيحيين والبابا وبدأت الدعوة للحملة الصليبية الخامسـة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م وكان ملك الهنغاريين قد تمكن من عقد اتفاق مع الدوج بطرس زيانى Peter Ziani مقابل تنازل ملك المجر عن مدينة زارا

---

(١٦٠) Kantirowicz, Frederick the Second, p. 129.

للبندقية ٠ كما اتفق على أن تقدم البندقية عشرة سفن كبيرة نظير أجر نقدى يدفعه الملك « اندراوس » الهنغارى على دفعات كالآتى :

١ ــ القسط الاول ويدفع يوم أحد العنصره التالى ٠

٢ ــ القسط الثانى ويدفع قبل ٣١ مايو ١٢١٧ م ٠

٣ ــ القسط الثالث والاخير ويدفع قبل الرحيل بأسبوع على أن تكون السفن معدة وجاهزة فى ميناء البندقية فى يوم ٢٥يوليو ١٢١٧م/٢٨ربيع الثانى٦١٤هـ٠ وأن تنتظر على الاقل لمدة ٣٠ يوما حتى يصل الملك المجرى اندراوس الذى اضطر الى بيع أشياء ثمينة من الكنائس كما فرض الضرائب من أجل توفير المال اللازم لدفع أجرة الاسطول البندقى مقابل نقل قواته الصليبية ٠

وفى بداية يوليه١٢١٧م / ٣ ربيع الثانى ٦١٤هـ تحرك الجيش الصليبى نحو ميناء البندقية وكان بصحبة الملك اندراوس صاحب النمسا الدوج ليوبولد وكثير من الامراء والكبار والمسئولين فى أرجاء الامبراطورية فى هنغاريا ٠ وأبحرت سفن كثيرة من موانىء الادرياتيك الى ميناء البندقية ، ووصل الملك اندراوس اليها واستقبل باحتفاء عظيم من المواطنين ورجال الدين ٠ وكان عدد الصليبيين كثيرا منهم عشرة آلاف من الفرسان وخلق كثير من الرجال ، وكان على الملك اندراوس والقوات الرئيسية للصليبيين الانتظار عدة أسابيع من أجل السفن التى يمكن أن تنقلهم ، بينما أبحر البعض مباشرة الى عكا والبعض الآخر أبحر من البندقية مباشرة الى عكا ومنهم دوج النمسا ليوبولد وبلغوا المدينة بعد رحلة استغرقت ستة عشر يوما ، كما أرسل ليوبولد

الى بوهيموند الرابع صاحب انطاكيه يبلغه بقدومه هو ورفاقه الى عكا · كذلك وصل ملك قبرص بأسطوله وقواته الى عكا ، ثم وصل اندراوس الى المدينة على ظهر السفن البندقية ولكنه لم يلبث أن عاد الى بلاده بعد ثلاثة شهور أمضاها فى فلسطين ·

وبعد رحيله اجتمع امراء وملوك الصليبيين فى عكا ومعهم يوحنا دى بريين John of Brienne صاحب عكا والملك الاسمى لبيت المقدس والبطريك اللاتينى للمدينة والقادة العسكريين (١٦١) · ثم عقد مجلس الحرب للاتفاق على خطة الحملة وكان هدفها مصر مركز القوة الاسلامية ·

ولان الصليبيين أدركوا تماما أن الذى يريد السيطرة على بيت المقدس وبلاد الشام فلابد أن يبدأ بالهجوم على مصر والاستيلاء عليها ، لذلك تحركت جموعهم عن طريق البحر الى مدينة دمياط عام ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م وحاصروها أشد حصار · وكان للاسطولين البندقى والجنوى دور بارز فى نقل الصليبيين من الغرب الى بلاد الشام ومن الشام الى دمياط · كما شاركوا فى العمليات الحربية وعمليات الامداد عن طريق البحر · وظل البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) ··· ، يحث ملوك أوروبا لنجدة اخوانهم الصليبيين حتى اجتمع لكلمته جيوش كثيرة من بلاد النمسا وبيزا وجنوه والبندقية وانكلترا

---

(١٦١) Setton, A History of The Crusades, vol,2 pp. 386 - 388, 416; Runciman, A History of the Crusades, vol, 3, 137 - 148.

وفرنسا فأرسلهم الى اخوانهم بدمياط » (١٦٢) • وقيل أن عدد الصليبيين كان نحو سبعين ألف فارس واربعمائة الف راجل ، وذكر أيضا وفيها (٦١٥هـ) اجتمعت سائر ملوك الفرنج ونازلوا ثغر دمياط وعادت الامداد تمدهم أولا بـأول » (١٦٣) وتمكن الصليبيون من احتلال دمياط وتحصينها ، وتوفى الملك العادل أثناء احتلال الصليبيين للمدينة وانتقل الحكم الى ابنـه الملك الكامل محمد الذى بدأ يجاهد الصليبيين ، وكان قد عرض عليهم الصلح ولكنهم رفضوا • ثم بدأت معارك بين الطرفين واستطاع المسلمون أن يفتحوا ماء النيل على الصليبيين فأحاط بهم المـاء • وقطعت عنهم الامدادات وعجزوا عن الحركة فاضطروا الى طلب الصلح وتم الاتفاق معهم على الجلاء التام عن مصر وتسليم دمياط للمسلمين (١٦٤) •

---

(١٦٢) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٧ ،
رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٨٥ ،
عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ،
Setton, History of Crusades, vol, 2, p. 409;
Runciman, History of Crusades, vol. 3 p. 149.

(١٦٣) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ص ورقة ١٨١ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤١ ،
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠٦ ، راجع أيضا :
رنسيمان :تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ •

(١٦٤) ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٥٢٧ وكنز الدرر ورقة ٢ ،
البغدادى : عيون الاخبار جـ ٢ لوحة ٤١٠،
سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٦٠ ـ ١٦١ ،
العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٥ ص ٧٢ ،
أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٢٨ ، ١٣٥ ـ ١٣٦
Runciman, History of Crusades, vol, 3, pp. 151 - 160, Lane-poole, History of Egypt, pp. 218 - 224.

وأما عن موقف البنادقة في دمياط، فالمعروف أنهم عارضوا شروط الملك الكامل للصلح • وعلى الرغم من حرصهم على ألا تنقطع علاقاتهم مع مصر لوجود مصالح تجارية هناك ، فانه قد حدث فى ذلك الوقت أنهم رغبوا فى اتخاذ دمياط مركزا لتجارتهم ولم يهتموا باضافة الاقليم الداخلى الى أملاك الصليبيين •

واختلف الصليبيون فى دمياط فيما عرضه عليهم الملك الكامل محمد ، اذ رفض البنادقة شروط الصلح وطالبوا بضرورة البقاء في دمياط لدرجة أن أسقف عكا اعتقد أن السلطان الكامل لم يبذل عرضه للصلح الا بهدف اثارة المنازعات والخلافات بين اللاتين ، فتقرر رفض ما عرضه الملك الكامل محمد فى المرة الاولى ، فلما تغيرت الاحوال وساءت أوضاعهم ولم يستطيعوا التحرك بعد أن حاصرهم الملك الكامل بدأوا هم بطلب الصلح من جديد ، فوافق على ذلك ولكن بدون شروط على أن يتم الجلاء عن دمياط أيضا ، وعارض البنادقة بخاصة والايطاليون بعامة لانهم أصبحوا يخشون ضياع مصالحهم التجارية فى مصر بعد أن شاركوا بدور فعال فى الحملة الصليبية الخامسة وفى احتلال دمياط ، وكان الانسحاب منها يعنى الخسارة الاكيدة ، فهم لم يحققوا الهدف من الحملة كما أن مصر سوف لا تعطيهم الامتيازات التى كانت لهم من قبل • ولذلك هاجم البنادقة معسكر الملك الصليبى يوحنا دى بريين ونشب بينهم وبين الصليبيين قتال شديد • ولكن بعد تهديد البنادقة والتضييق عليهم اضطروا الى الاستجابة لرغبة الصليبيين واستسلموا لشروط الصلح • وتسلم المسلمون مدينة دمياط فى يوم الاربعاء التاسع عشر من شهر

رجب ٦١٨ هـ / سبتمبر ١٢٢١ م (١٦٥) « فلما تسلمها المسلمون قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة يقال أنها ألف مركب بعد تأخرهم الى ما بعد تسليمها من الفرنج صنعا جميلا من الله سبحانه » (١٦٦) .

وترتب على فشل الحملة الخامسة التى شاركت فيها البندقية ان التجار الايطاليين ، وخاصة البنادقة ، لم يستردوا وضعهم السابق فى الاسكندرية لان مواطنيهم شجعوا الحملة الصليبية . ومع أنهم عادوا الى متاجرهم فلم يكونوا موضع ثقة المسلمين (١٦٧) .

وأما عن حملة الامبراطور فريدريك الثانى امبراطور المانيا والمعروفة بالسادسة ١٢٢٨ - ١٢٢٩ م / ٦٢٥ - ٦٢٦ هـ فان البابوية كانت قد دعت الامبراطور للذهاب الى الشرق لمساندة الصليبيين وذلك منذ قيام الحملة الصليبية الخامسة وحصار دمياط ، ولكنه لم يتحرك متعللا بمعاذير لم يقبلها البابا حتى أصدر ضده قرار الحرمان فاضطر الى المسير الى الشرق واستطاع

---

(١٦٥) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٣ - ١٩٧ ،
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠٩ ،
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٤١ - ٢٤٣ . راجع أيضا :
Setton, A History of Crusades Vol, p. 427; lane - poole A History of Egypt, pp. 224 - 225,

(١٦٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠٩ وانظر أيضا :
ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٩٧ - ١٩٨ .

(١٦٧) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

ان يحصل على السفن اللازمة للنقل من جنوه وبيزا وصقليه فى حين تعذر عليه ذلك من البندقية • وساءت العلاقات بينه وبين البنادقة وجرى قتال بين الطرفين استمر سنوات ولعل ذلك الخلاف كان سببا في الموقف السلبى للبندقية من فردريك الثانى ؛ لانها لم تكن واثقة من نجاح الامبراطور فى حملته ورغبت فى الاحتفاظ بعلاقاتها مع مصر دون أن تعرضها لنكسة جديدة كما حدث ابان الحملة الصليبية الخامسة على دمياط (١٦٨) •

وقد انتهت حملة فردريك الثانى باتفاقية مع الملك الكامل محمد الايوبى بعقد هدنة لمدة عشر سنوات ونصف • وبموجب شروط هذه الهدنة تنازل الملك محمد للامبراطور الالمانى عن القدس وبعض المدن الاخرى دون حرب أو قتال (١٦٩) • ومما يلفت النظر ان امبراطور القسطنطينية فى هذه الفترة أرسل كتابا الى الملك الكامل محمد يخبره فيه بأنباء هذه الحملة السادسة ويناشده المودة ويبلغه بأنه أقام الجمعة فى بلاده وذلك دليل مودة وصداقة ومناصحة • ولعل ذلك كان بتأثير البنادقة الذين كانوا فى حرب مع الامبراطور فردريك ويتمتعون فى نفس الوقت بسلطات واسعة فى القسطنطينية منذ فتحها على يد اللاتين عام

---

(١٦٨) Kantorowicz, Frederick the Second, pp. 124 - 125, 136, 485, 541 - 592; Setton, A History of Crusades, vol, pp. 434 - 436,

(١٦٩) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٢٦ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣١ ، وراجع أيضا :
Kantorowicz Frederick the Second, pp. 185, 199; Archer, The Crusades p. 382; Runciman, History of Crusades, vol, III p. 188; Stevenson, The Crusaders in the East, p 313;

=

١٢٠٤ (١٧٠) .

أما عن الحملة الصليبية السابعة التى قادها الملك لويس التاسع ملك فرنسا ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م ، فقد كانت مشروعا فرنسيا قام به لويس التاسع المعروف بالقديس لويس الذى رغب فى استعادة بيت المقدس عن طريق احتلال مصر أولا متخذا من دمياط قاعدة لتوسعه فى الشرق الاسلامى (١٧١) . وكان لويس التاسع فى حاجة الى السفن لنقل قواته الى مصر ، وبدأ بارسال مندوبه الى مرسيليا والمدن التجارية الايطالية والبندقية بخاصة من أجل الحصول على السفن اللازمة له . وتمكن نوابه من استئجار سفن من مرسيليا وذلك فى ١٦ أغسطس ١٢٤٦م . كما تم استئجار سفن من جنوه واختار الجنوية اثنين ليقوما بقيادة الاسطول (١٧٢) وأما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج اليه من سفن نظرا لوجود علاقات طيبة تربطها مع مصر ، وكانت تخشى قيام حملة صليبية بحرية على مصر تؤدى الى اغلاق أبواب التجارة المصرية فى وجه التجار البنادقة . وهذه التجارة كانت

=

Setton, A History of The Crusades, vol, II, pp. 456 - 457, Cambridge Medieval History, p. 314; Lane-pool, A History of Egypt, pp. 225 - 228.

(١٧٠) العماد الاصفهانى : الفتح القسى ص ٤١٤ .

(١٧١) Rothelin, p. 564 - 565;
Clarke, Short History of Christian Church, p. 205.

(١٧٢) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٦١ .

مصدر ثروة طائلة بالنسبة للبنادقة وجمهوريتهم (١٧٣) • وكان للبندقية فى الاسكندرية حينذاك فندقـان لسكن التجـار البنادقة ولتخزين بضائعهم فيها اضافة الى كنيسة خاصة بهم وغير ذلك من الامتيازات التى منحها السلاطين الايوبيين لهم (١٧٤) •

هذا هو موقف البندقية من الحملة السابعة فـى بدايتها • ولقد تحركت الحملة فى شـهر أغسطس ١٢٤٨ م / شـعبان ٦٤٦ هـ ، وأسـندت قيادة الاسطول الى الجنوية لعـدم خبـرة الفرنسيين بشئون الملاحة واتجهت الى قبرص حيث وجد الملك لويس التاسع هناك موادا تموينية وذخائر فى انتظاره ووصفها جوانفيل بقوله : « ووجدنا كميات ضخمة من الذخيرة الرائعة وأعنى بها ما نحتاجه من المؤنة والطعام والمخازن ••• وكدسوا أكوام القمح والشعير وسط الحقول فاذا نظرت اليها خيل اليك انك ترى جبالا » (١٧٥) ، ونرى أن البندقية لابد وأن تكون قد شاركت فى تلك الحملة ولو بقدر يسـير بعد أن رأى رجالهـا منافسيهم الجنوية يتولون قيادة الاسطول • ولعلهم تدارسوا فيما بينهم الموقف من كل جوانبه ورأوا أنه اذا تم استيلاء الصليبيين على مصر فان البندقية ستخسر فى حالة عدم اشتراكها • وليس من المعقول أن يترك البنادقة أعداءهم الجنوية يكسبون الامتيازات دونهم • ولهذا نرجح اشتراك البنادقة فيما بعد بأسطولهم بدليل

---

(١٧٣) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٦٠ ـ ٦١ .
سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٠٥٦ •
(١٧٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٦١ حاشية ٤ •
(١٧٥) جوانفيل : القديس لويس التاسع ص ٨٣ ـ ٨٤ •
جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص ٦٦ •

ضخامة عدد السفن التى ذكرها الكتاب والتى شاركت فى الحملة وقيل أنها بلغت ١٨٠٠ سفينة ، ما بين كبيرة وصغيرة وان كان لا يمنع من القول بأن البنادقة وهم أكبر قوة بحرية فى حوض البحر المتوسط عندئذ قد عارضوا فكرة مهاجمة مصر (١٧٦) ٠

واذا أضفنا الى ذلك أن جميع أفرنج الساحل فى الشام قد شاركوا فى الحرب السابعة وان الجاليات البندقية فى عكا وصور ومدن الساحل كانت تتمتع بمركز قوى وامتيازات واسعة ، فهل يقبل البنادقة ان يبقوا على الحياد فى حين أن جميع الطوائف والجاليات الاخرى بادرت بالاشتراك فى الحملة ؟ ٠ لقد أجاب المقريزى عن ذلك بقوله : « وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر وصلت مراكب الفرنج البحرية وفيها جموعهم العظيمة صحبة ريدافرنس ٠٠٠ ولقد انضم اليوم اليهم فرنج الساحل كله ٠٠٠ » (١٧٧) ٠ كما ذكر جوانفيل ضخامة الاسطول الصليبى بقوله : « وما كان أبدع منظر البحر وهو يبدو للعيان على امتداد البصر مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة » (١٧٨) علما بأن

---

(١٧٦) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى عى مصر ص ٨٧ ،
سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ١٥٦ ٠

(١٧٧) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٣٣ ،
جوانفيل : القديس لويس التاسع ص ٩٤ ، سعاد ماهر ، البحرية الاسلامية ص ١١٠ ، وأما ريدافرنسى فهو الاسم الذى ورد فى المصادر الاسلامية عن ملك فرنسا ولعله تحريف من الاصل الفرنسى ٠
roi du France

(١٧٨) جوانفيل : القديس لويس التاسع ص ٩٠ ٠

المقاتلين الصليبيين كانوا يدفعون أجرة ركوبهم • ومعنى ذلك أن سفن المدن التجارية الايطالية هى التى قامت بهذا الدور والبنادقة كانوا يمتلكون أكبر قوة بحرية فى حين أشارت المصادر أن عدد سفن جنوه التى أجرتها للصليبيين ستة عشر سفينة فقط (١٧٩) وهذا لا يترك مجالا للشك فى أن البنادقة قد شاركوا فى الحملة الصليبية السابعة، خاصة بعد سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين. ثم استمرار المعارك بين الطرفين حتى هزيمة لويس التاسع فى المنصورة ، وعند فارسكور ، ووقوعه فى أسر الايوبيين ثم افتداء نفسه واطلاق سراحه ورحيله الى عكا فى ٧ مايو ١٢٥٠ م / صفر ٦٤٨ هـ منهيا حملته الفاشلة • وبانتهائها انتهت الدولة الايوبية وقامت دولة المماليك • وأما لويس التاسع فقد وصل الى الشام حيث قضى بها أربع سنوات استغلها فى تحصين عكا ومدن الساحل اللاتينى وحاول زعامة الصليبيين وزاد فى حماستهم ولكنه عاد الى فرنسا عام ١٢٥٤ م / ٦٥٢ هـ دون أن يحقق أمله فى اعداد حملة عسكرية جديدة ، تعوض هزيمته على ضفاف النيل (١٨٠)

وعلى الرغم من فشل لويس التاسع فى مصر والشام فانه لقى

---

(١٧٩) جوانفيل : القديس لويس التاسع ، ص ٨٦ •

(١٨٠) سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٦٢ _ ١٦٣ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٣٥٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤ _ ٣٥ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٠١ _ ٣٠٢ ، عبد العزيز سالم : دراسة فى تاريخ مدينة صيدا ص ١٣٥ • سعاد ماهر : البحرية الاسلامية ، ص ١١ •

بعض المضايقــات من جانب الجاليــات الايطــالية ومن بينهـا البنادقة ، اذ كانت تهتم بمصالحها المادية فقط ولم يكن الدافع الديني عندها الا بالقدر الذى يحقق أهدافها التجارية • وعندما اشترك البنادقة والبيازنه والجنوية في حملة لويس التاسع على مصر كانت تحدوهم الآمال فى تحقيق المكاسب والامتيازات بعد الاستيلاء عــلى أهم الثغور المصرية وخاصة دمياط والاسكندرية • ولكن فشل لويس التاسع وهزيمته أضــاع الفرصة عــلى تلك الجاليات وترتب على ذلك طردهم من دمياط التي كان ســلاطين الايوبيين يسمحون لهم بدخولها قبل ذلك • وقالوا ان الملك لويس التاسع هو السبب فيما لحق بهم من خسائر مادية فى هذه الحملة وما نتج عنها لدرجة أنهم قاموا بالاعتداء عــلى الفرنسيين فــى البحر واستولوا على ممتلكاتهم انتقاما لمــا أصابهم من أضرار ، وان كان ذلك عــلى نطاق ضيق ، لكن الحقيقة تبقى ماثلة دائماً وهى حرص البنادقة وبقية الجاليات عــلى الثراء أولا وقبل كل شىء (١٨١) •

ومن العوامل التى أثرت عــلى العلاقات بين البندقية والدولة الايوبية موقف البابوية والكنيسة اللاتينية،والمعروف أن البابوية هى التى دعت الى الحروب الصليبية وأمدتها بتأييدهــا المــادى والمعنوى وكان للبنادقة من دور يؤدونه فيها ، والبنادقة كانوا شعبا بحريا يهتم بالتجارة وتحقيق الربح والكسب بمــا يعــود عليهم وعــلى بلادهم بالخير أكثر من اهتمامهم بالدين • ولكنهم أمام العوامل التى أشرنا اليها اضطروا الى خوض غمار الحروب

---

(١٨١) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ •

الصليبية ضد الفاطميين والايوبيين • وكان للبنادقة دور هـام في وجود اللاتين في الشرق الاسلامي ، وكذلك في استعادة عكا أيام الحملة الصليبية الثالثة ، وأثر ذلك على علاقاتهم بالدولة الايوبية في مصر والشام • ثـم اتبعت البندقية ذلك بتحويـل الحملة الرابعة الى القسطنطينية بدلا من مصر بعد أن أدركت أن توجيـه الحملة الى مصر سوف يضـر بمصالحها التجاريـة مـع الايوبيين وقد تقضي عليها نهائيا ، وكان لها دور هام في الحملة الخامسة في حين وقفت موقفـا سلبيا مـن حملة الامبراطـور فريدريك الثاني المعروفة بالسادسة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ م / ٦٢٥ ـ ٦٢٦ هـ لانها كانت على علاقة سيئة مع الامبراطور ، كما قامت بدور بسيط في حملة لويس التاسع المعروفة بالسابعة ، وهذا يعني أن البنادقة قد شاركوا في جميع الحملات الصليبية التي تعرض لها الشرق الاسلامي زمن الايوبيين باستثنـاء الحملـة السادسة • وتعتبر هذه المشاركة عملا عدائيا مباشرا ضد الدولة الايوبية في مصر والشام والتي وقع عليها عبء الجهـاد ضـد الصليبيين والعمل عـلى تحرير الارض الاسلامية • ولكن البحث عن الثراء جعل البنادقة يتعاملون مع الصليبيين فيحصلون منهم عـلى الثراء والامتيازات ، واذا وجدوا أن كفة الميزان بـدأت تميل الى جانب الايوبيين ، بادروا باتخاذ موقف سلبي من بني جلدتهم من اللاتين وكانت هذه السمة البارزة لسياستهم حيـال الفريقين المتصارعين •

وأما عن تجارة البنادقة مع مصر فقد كانت مضمونة ، وان مشاركتهم في الحروب الصليبية ضد الايوبيين لم تكن تخيفهم ،

فالتجار المسلمون في موانىء مصر كانوا مضطرين فى بعض الاحيان الى بيع تجاراتهم الى الاوروبيين ، فان تعذر ذلك يصبح من العسير تصريف تلك البضائع والتى كانت مصدر ربح لهم . علما بأن التجارة مع الشرق الاقصى كانت تدر هى الاخرى ربحا هائلا للتجار المسلمين . فلو رفض المسلمون التعامل مع التجار الاوروبيين ، خاصة البندقية ، فمعنى ذلك أن نصيب المسلمين من الارباح سوف يتضاءل ومعنى ذلك ضعف الدولة وعدم قدرتها على مواجهة الخطر الصليبى . ولهذا نلاحظ أن البنادقة وغيرهم من الجاليات الايطالية كانوا يشتركون فى الحملات الصليبية ، وفى نفس الوقت كانت لهم امتيازات فى الدولة الايوبية لعدم استطاعة المسلمين الاستغناء عن بيع بضائعهم للوسطاء البنادقة الذين كانوا ينقلون هذه السلع الى أوروبا ، بمعنى أن استفادة البنادقة من الجانب الصليبى كانت أكثر فى بعض الاحيان من الخسارة فيما لو لم يشتركوا فى الحرب ضد المسلمين . ومهما تعرض البنادقة فى مصر لتضييق السلطات عليهم نتيجة لموقفهم المعادى لمصر بوقوفهم الى جانب الفرنج فى بعض الاحيان ، فان الامور كانت لا تلبث أن تنفرج ويعيد بنو أيوب لهؤلاء التجار اللاتين ما لهم من امتيازات ، لان الدولة الايوبية كانت تحاول اضعاف الصليبيين بكل الوسائل ومن بينها محاولتها عزل البنادقة عن مساعدة اخوانهم اللاتين ومن ثم كان للبنادقة المركز الاول بين الجاليات الاجنبية فى مصر .

وكان للبابوية علاقات مع البنادقة تطورت حسب مواقف البندقية من الحركة الصليبية ، فهى ـ كما قلنا ـ تهتم بالمصلحة

المادية أولا وأخيرا ٠ ولهذه الغاية إتخذت كل الوسائل حتى لو كانت تضد البابا ورغم ارادته وتحديا لقراراته بل أحيانا ضد مصالح الصليبيين ٠ ولم تكن البندقية يعنيها تسوية الخلاف مع البابوية بقدر ما كانت تعنيهـا مصالحهـا الذاتيـة ٠ وكانت جمهورية البندقية مستعدة لتصون استقلالها ضـد أى تدخـل خارجي ولم تكن تهتـم بالامور الدينية اذا تعارضت مصالحهـا المادية (١٨٢) وبالرغم من أنها كانت تظهر للبابوية احتراما ، وبالرغم من انها كانت تفخر باستحقاقها لقب « المدينة الرسولية المقدسة » ، الا أنها لم تكن تعبأ ان تظهر العداء للبابوية اذا دعت الضرورة الى ذلك ٠ والمعروف ان استقلال البندقية كان يعنـى نجاحها فى الافلات من قبضة الكنيسة اللاتينية فى الغرب فـى وقت كانت فيه هذه الكنيسة لا تزال تهيمن عـلى مصائر الافراد ومقدراتهم فى الغرب (١٨٣) ومع ذلك فان البندقية فى عـام ١١٢٣م / ٥٢٨هـ استجابت لنداء البابا عندما طلب منها مساعدة ملك بيت المقـدس الصليبى بلدوين الثانـى ضـد المسلمين ٠ وتحركت الاساطيل من البندقية وقد غمرها الحماس الدينى ، مع الاخذ فى الاعتبار بطبيعة الحال مصالحها فى موانيء الساحـل الشامى ٠ وان أى انتصار للصليبيين تشارك البندقية فيه يعنى الحصول عـلى المزيد من المكاسب أيضا ٠ وكان عدد قطع الاسطول ٧٢ سفينة وهو الذى الحق الهزيمة بأسطول الفاطميين فى البحر

---

(١٨٢) Oliphant, The Makers of Venice, pp. 77, 81 .

(١٨٣) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٢٣ ٠
Denys Hay, The Italian Renaissance, pp. 51 - 53.

المتوسط • وعاد الدوج الى عكا محملا بالغنائم (١٨٤) •

وعندما وقع خلاف بين البابا اسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١ م) والامبراطور فريدريك بارباروسا ، تدخلت البندقية عام ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ واستطاعت أن تجمع بين البابا الروماني والامبراطور الالماني ، وان تضع حدا للخلافات بينهما • وهذا زاد في مكانتها في العالم الاوروبي ، كما ترتب عليه أن منح البابا دوج البندقية تفويضا أو تقليدا لسلطات واسعة على البحر (١٨٥) •

وحدث عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ ان قام الدوج البندقي بهجوم على زارا بهدف السيطرة على دالماشيا • ولكن البابا جريجورى الثامن (١١٨٧ م) ، ناشد البنادقة بوقف القتال وعقد هدنة وضرورة تحول تلك القوات والاسلحة اللاتينية ضد صلاح الدين الايوبي ، وعقدت الهدنة بالفعل نتيجة لمناشدة البابا لهم • وكانت تلك الهدنة لا تزال سارية المفعول حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) (١٨٦) •

---

(١٨٤) Okey, Venice and its Story, pp. 41 - 42; Wiel, Navy of Venice, pp. 89 - 90; Brown, Venetian Republic p. 50.

(١٨٥) Hodgson, The Early History of Venice, pp. 327 - 328; Crawford, Cleaning from Venetian History, vol, I, pp. 118 - 119.

(١٨٦) Daru, Histoire de Venise, part, I, pp. 111 - 112; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 348 - 349.

وحدث أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا أيام الملك ريتشارد قلب الاسد وكان يحكم مصر آنذاك الملك الناصر صلاح الدين ، أن كتب البابا يخبر الصليبيين بضرورة الصبر والقتال ويقرب وصول الامدادات لهم وأنه أرسل الى ملوك الغـرب يحثهم عـلى امدادهم بما هم فى حاجة اليه • فازدادوا بذلك قوة واعتزموا عـلى مناجزة المسلمين (١٨٧) • ذلك أن البابوية تدخلت بكل ما تستطيع بعد انتصارات صلاح الدين الايوبى على الصليبيين فى حطين ، وحشدت كل امكانياتها وحاولت ان توجه الصليبيين الى مصر لاحتلالها باعتبارها أكبر عدو للصليبيين ايمانا منها بأنه فى استطاعة الصليبيين استرداد الاراضى المقدسة فى فلسطين الا بالاستيلاء عـلى مصر أولا • والحملة الصليبية الرابعة كان قد دعا اليها البابا لتحقيق هذا الهدف • وما حدث من مفاوضـات بين البندقية والصليبيين انما كان يستهدف تحقيق هذا الغرض • واستهل البابا أنوسنت الثالث عهده بأنه أصدر مرسوما يحـرم الاتجار مع المسلمين ومنع تزويدهم بما يعينهم على قتال اللاتين كالحديد والاخشاب ، وذلك من أجـل أن يمهد الطريق لغـزو مصر (١٨٨) • ولكن تطورت الحوادث فى الحملة الرابعة ، وكان البابا هو الذى بدأ الدعوة لها ، ووافق من أجل ذلك عـلى اتفاقية البنادقة مع قيادة الصليبيين بشأنها والتى تضمنت نقل القوات الصليبية الى الشرق بعد تردد • وبعـد أن اشترط البابا عـلى ضرورة وجود نائب عنه فى الحملة وألا تشهر سيفا فى وجه أية

---

(١٨٧) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٧٠٣ ، راجع أيضا : Daru, Histoire de Venise, part, I, pp. 111 - 112.

(١٨٨) العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٢٠٥ •

فئة مسيحية كاثوليكيـة كانت أم أرثوذكسيـة ، الا أن البنادقة أقنعوا الصليبيين بضرورة السير معهم للهجوم على زارا واخضاعها قبل المسير الى الشرق مقابل تأخير استلام ما بقى للبنادقة من ديون على الصليبيين • ولم يكن البابا يسمع بهذا العرض حتى أرسل على الفور الى الصليبيين يمنعهم من قبول ما عرضه عليهم البنادقة، غير أن الصليبيين مهما أحسوا بما ارتبط بهذا العرض من الناحية الخلقية ، لم يسعهم الا أن يقبلوه مضطرين • كما أرسـل البابا باحتجاجه الى البندقية مظهرا اعتراضه على هذا المشروع بهجوم الصليبيين على زارا ونهى البنادقة عن الدخول فى حرب ضدها ، وطالبها بأن تقود الصليبيين الى الاراضى المقدسة • ولكن البنادقة أخبروا مندوب البابا بأن وجوده معهم كمباشر روحى للصليبيين، ولكن ليس له أن يمارس سلطاته كمندوب بابوى وأساؤا اليه وأبلغوه أنه اذا رفض هذه الشروط فعليه أن يعود من حيث آتى• واضطر الرسول البابوى الى العودة (١٨٩) ووقع ما وقع ممـا سبق الاشارة اليه بمخالفة الامر البابوى بالاستيلاء عـلى مدينة زارا ونهبها وتقسيم ما وجدوه بها من غنائم وأسلاب •

وأما عن موقف البابا أنوسنت الثالث فقد بلغ به الاستياء

(١٨٩) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٣ ،رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٠٧ •

Okey, Venice and its Ssory, p. 55; Wiel, Venice, pp. 127 - 128; 132 - 133; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 350 - 353; Tout, The Empire and the Papcy, p. 332; Setton, A History of the Crusades, vol, 2, p. 116; Runciman, A History of the Crusades vol, 3, p. 116; Henry Hart, History of Venice, pp. 350 - 353.

حدا جعله يصدر قرارا بالحرمان ضد الحملة الصليبية بأكملها ثم خفف هذا القرار وجعله ضد البنادقة المشتركين فيها بحجة أنهم هم الذين غرروا بالصليبيين واضطروهم الى المسير معهم بوصفهم مسئولين عن انحراف الحملة · وطالب البابا الصليبيين بالتوجه الى فلسطين دون الالتفات يمينا أو شمالا وهناك ينفصلون عن البنادقة المحرومين · ولكن البنادقة والدوج داندولو لم ينزعجوا لموقف البابا ولم يغيروا من خطتهم (١٩٠) ·

وعلم البابا بما جرى من اتفاق بين البنادقة والصليبيين والشاب البيزنطي الكسيوس الصغير بخصوص ضرورة مساعدته لارجاع عرش والده وهذا يعني تحول الحملة الرابعة للمرة الثانية الى بلد مسيحي آخر · ولقد أغرى البابا في البداية بأن هذا المشروع سوف يعيد الكنيسة الشرقية الى حظيرة الكنيسة الغربية ويتم توحيد الكنيستين تحت السيادة البطرسية لكنيسة روما ، فضلا عن الحصول على المال لاستخدامه في حرب المسلمين · ولكن البابا كان يشك في البنادقة ونواياهم فاكتفى باصدار أمره بأنه لا يجوز الاعتداء على مسيحيين آخرين الا اذا كانوا فعلا يقومون باعاقة الحرب المقدسة (١٩١) ·

---

(١٩٠) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٨ ـ ٥١ ،
Villehardouin, part, I, pp. 104 - 107; Okey, Venice and its Story, 60 - 61; Wiel, Venice, pp. 132 - 135; Hodgson, The Early History of Venice, p. 362; Brown, Venetian Repuplic, p. 53; Oliphant, The Makers of Venice, pp. 78 - 81; Craw frod, Cleanings from Venetian History, Vol, I, p. 132 - 133.

(١٩١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢١١ ـ ٢١٢ ·

=

وبدون جدوى بذل البابا أنوسنت الثالث جهوده من أجل أن تبقى الحملة الصليبية الرابعة فــى طريقهــا الى مصر • الا إن رغبة البنادقة فى الاستيلاء على القسطنطينية كانت أقــوى من رغبة البابا وارادته وتهديداته بالحرمان•وتم استيلاء الصليبيين والبنادقة على القسطنطينية عام ١٢٠٤ م / ٦٠١ هـ وأقاموا بها مملكة لاتينية استمرت حتى عام ١٢٦١ م ، ولقد أدان البابا هذا الاحتلال وخصوصا ما ارتكبــه الصليبيون من قتــل وتدمــير ونهب (١٩٢) •

واضح مما تقدم أن البنادقة لم يكونوا حقا متحمسين للحرب الصليبية ، بدليل أنهم توقفوا عن التحرك أمام عجز الصليبيين عن دفع المال المطلوب لهم • فلو كانت البندقية صادقة ما توقفت بسبب عدم الوفاء بالمبلغ ، وثانيا لو كانت تؤثر المصلحة الصليبية ما أخذت فى الاصل أجرة من الصليبيين فهى بلد مسيحى أوروبى تقع عليها مسئولية مشاركة الاوروبيين فــى تلك الحــروب ، وثالثا ربما قبلت تأجيل دفع المبلغ المتبقى لوقت آخر • ومن ناحية أخرى لم تكن لتستغل الموقف الذى هم فيه لتطلب منهم مساعدتها

=

Brown, Venetian Republic p. 52; Daru, Histoire de Venise, part, I, p. 112. Henry Hort, History of Latin Christianity vol, 3, pp. 137 - 138.

(١٩٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ، ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ ،
Bury, The Cambridge Medieval, History, p. 604;
Henry Hart, History of Latin Christianity, vol, 3, pp. 143 - 144.

فى الهجوم على مدينة مسيحية مثل زارا وضد ملك مسيحى مثلهم · أضف الى ذلك أن البندقية لم تكن لتتحدى ارادة البابوية لو كان يعنيها أمر الصليبيين ·

وأخيرا أنها بعد تحقيق كافة مصالحها لم تنفذ ما هدفت اليه الحملة الصليبية الرابعة وهو نقل الصليبيين الى مصر · ولو كانت البندقية تهتم بالحرب الصليبية ما فرضت على الصليبيين الحصول على امتيازات تجارية وأثبتت ذلك فى معاهدات مع الصليبيين وكأنها تؤدى عملا مقابل كسب مادى فقط · كما أن البندقية عندما كانت تقاتل مع الصليبيين ضد المسلمين انما كان هذا الموقف من أجل حماية مصالحها فحسب ولانها كانت تدرك فى ذلك الوقت ضعف الجانب الاسلامى وتدرك حاجة الصليبيين لمساعدتها ، فضلا عن مبادرتها الظاهرية بتلبية الحماس الصليبى وعدم استعدادها لتحمل غضب البابا · ولكن بعد الحملة الرابعة بدأت أحوال الصليبيين فى الضعف فى الشرق والغرب ، ومن ثم بدأت البندقية تميل الى ترك المعسكر الصليبى وتدعيم علاقاتها مع الايوبيين فى الشرق الادنى الذين أخذت قوتهم فى الازدياد ، ولو أدى ذلك الى تجاهل القرارات البابوية وضربها عرض الحائط ·

وبعد أن تم اخضاع الامبراطورية البيزنطية للصليبيين أرسل البنادقة الى المندوب البابوى فى قبرص واسمه بطرس أوف كابوا Peter of Capua والذى سبق أن حضر الى البندقية لمنع الصليبيين ومهاجمة زارا ، متوسلين اليه أن يعمل بما له من مكانة عند البابا أنوسنت الثالث على الغاء قرار

الحرمان الواقع ضدهم • وأرسل المندوب البابوى نائبا عنه ليتسلم قسم البنادقة عن طاعتهم فى المستقبل للبابا الكاثوليكى فى روما وتحقيق عهدهم كجنود للصليب • وتقرر وقف التحريم مؤقتا حتى يتم مصادقة البابا عى ذلك القرار •

وأرسل الدوج اثنين من البنادقة الى البابا فى روما لابلاغه أنهم أجبروا على الخيانة بسبب الامبراطور الصغير الكسيوس وانهم غلبوا القسطنطينية تدعيما للكنيسة الرومانية ولكى يسهل بذلك اخضاع الاراضى المقدسة • وحاولوا أيضا أن يبرروا للبابا سبب هجومهم على زارا قائلين : ان سكان هذه المدينة لم يكونوا تحت حماية البابا . وأخيرا طالب البابا بضرورة الاذعان لثلاثة أشياء أولها أن الايمان ينبغى أن يكون مثل الدين الرسمى للامبراطورية يعنى المذهب الكاثوليكى ، وثانيا أن ممتلكات الكنيسة الاغريقية ينبغى أن تسلم الى رجال الدين اللاتين ، وثالثا أن الصليبيين ينبغى أن يستمروا ويواصلوا طريقهم للحج حتى نهاية العام • وقد تحقق الهدف الاول بتوحيد الكنيستين تحت زعامة البابا فى روما • ولكن ممتلكات وأموال الكنيسة الاغريقية سرقت ووزعت بين الفاتحين ، وأما المسير الى بلاد الشام فقد تعذر ذلك لان الدوج داندولو كان عجوزا لا يمكنه الذهاب الى الشرق لكبر سنه • وقرر البابا الغاء الحرمان ضد البنادقة بواسطة مندوبه الكاردينال بطرس كما طلب من حكام الغرب والاساقفة ورجال الدين بأن يكونوا على علاقة طيبة مع المملكة اللاتينية الجديدة فى القسطنطينية من أجل اخضاع الشرق

الاسلامى (١٩٤) ٠

مما سبق يتضح أن موقف الجهاز الكنسى مـن البنادقة كان طبيعيا فى معظم الاحيان ، ذلك أن البنادقة شاركوا بأساطيلهم وقواتهم العسكرية فيالحروب الصليبية منذ البداية وحتى نهايتها ما عدا حملة الامبراطور فردريك الثانى والذى كان فىحالة عداء مع البابوية ، وفرضت عليه قرار الحرمان ، وفـى نفس الوقت كان فى عداء مع البندقية ودخل معها فى حرب طويلة ٠ والمتتبع لخط سير البنادقة فى الحروب الصليبية يرى أنهم قاموا بدور ايجابى هام فى اقامة الامارات اللاتينية فى الشرق والمحافظة عليها وصيانتها عن طريق الدفاع عنها ونقـل الامدادات مـن الغرب اليها لان فى ذلك تحقيق مصلحة الصليبيين مـن ناحية ، وتحقيق الثراء للبنادقة من أجرة النقل ومن استثمار مركزهم وامتيازاتهم فى امارات الصليبيين فى الشرق من ناحية أخرى ٠

وكان موقف البنادقة من الجهاز الكنسى مرتبطا تماما بتحقيق مصالحهم المادية ٠ فاذا كان موقف البابوية منهـم يترتب عليه ضياع الثراء الـذى يجنونه عـن طريق تفاعلهم مـع السلطة الايوبية فى مصر والشام فانهم يعلنون تحديهم وعدم الاكتراث بل يتجاهلون قرارات الحرمان ٠ بمعنى أن موقف البابوية من البنادقة لم يكن ليؤثر فيهم اذا كان يتعارض مع مصالحهم وهذا نفس ما يمكن أن يقال بالنسبة لموقف البنادقة من الجهاز الكنسى

---

(١٩٤) Hodgson, The Early History of Venice, pp. 356, 415; Bury, The Cambridge Medieval History, pp. 606; Henry Hort, History of Latin Christianity, vol, 3, pp. 151 - 154; Tout, The Empire end the Papacy p. 347.

والبابوية بخاصة ومن الصليبيين بعامة (١٩٥) ·

والذى يمعن النظر فى الامتيازات التى حصل عليها البنادقة فى الامارات اللاتينية يدرك مدى الدور الذى كان يقوم به البنادقة فى خدمة الحركة الصليبية · فقد حصلوا على امتيازات سياسية وتجارية وقضائية واجتماعية حتى أصبحوا يشكلون دولة داخل الدولة · بل أن الكلمة العليا فى الامارات اللاتينية فى كثير من الاحيان كانت لهم ، وهم الذين يقررون مصائر كثيرة من الامور · وفى جميع الحالات كان البنادقة يؤثرون مصلحتهم فى الدرجة الاولى (١٩٦) .

وكان حصول البنادقة على امتيازات تجارية أثناء الحروب الصليبية تعم فائدته على البنادقة والصليبيين فى وقت واحد ، فالبنادقة بمساعدتهم ينتصر الصليبيون وبدونهم ربما لا ينتصرون وبدونهم ربما يزول حكم الصليبيين ·

ولذلك كان لابد وان يضحى الصليبيون بامتيازات مختلفة وأراضى وأحياء لارضاء البنادقة والجمهوريات الايطالية الاخرى، من أجل الحفاظ على الوجود الصليبى ومن أجل الامدادات

(١٩٥) Wiet, l'Egypt Arabe, p. 343, Setton, A History of crusades vol, I, II, pp. 162, 170 - 171;
Runciman, A History of Crusades part, III, p. 113; Vasiliev Histoire de l'Empire Byzantin, vol, 2, p. 458; Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 329.

(١٩٦) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١٢٢ ؛
Runciman, A History of Crusades, vol, III, p. 113; Setton, A History of Crusades, vol, 2, pp. 170 - 171.

العسكرية ونقل الحجاج ، ومن أجل بقاء البنادقة مع الصليبيين وحتى لا يتحولون الى جانب المسلمين مع مراعاة الفارق بين الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها من كل من الصليبيين والمسلمين . فالامتيازات الصليبية كانت أكثر شمولا وفائدة ، اذ لم يكن للمسلمين حاجة الى مساعدة البنادقة العسكرية أو أساطيلهم ، ولكن هم فى حاجة الى المتاجرة معهم فقط ، يضاف الى ذلك أن الصليبيين والبنادقة كانوا أبناء دين واحد ، وان البنادقة كانوا يريدون انشاء امبراطورية واسعة وتأسيس مستعمرات لهم ، وهذا لا يمكن أن يحصلوا عليه من المسلمين ، وكان السلاطين الايوبيين يعطون البنادقة امتيازات تجارية بهدف عدم انضمامهم الى جانب الصليبيين أعداء مصر أو على مصر أو على الاقل ضمان وقوفهم موقف الحياد بين الفريقين المتصارعين ، كما حدث أثناء الحرب الصليبية السادسة ، وأيضا لضمان الحصول على الرقيق والمواد الاستراتيجية هذا من ناحية ، ومن جهة أخرى كان الايوبيون فى حاجة الى الازدهار التجارى الذى يؤدى الى الرخاء الذى يستغلونه فى الجهاد ضد الصليبيين . وكذلك كانت تعوزهم بعض المواد العسكرية ومن ثم فانهم كانوا يمنحون الايطاليين والبنادقة بخاصة امتيازات عديدة ليستمر الاتجار معهم وتحقيق الثراء رغم اشتراك البنادقة والجاليات الايطالية الاخرى مع الصليبيين ضدهم .

ويمكن أن نقرر أن العداء بين الشرق الاسلامى والغرب اللاتينى كان عداءا شديدا ودائما ، وان القوى الاوروبية اللاتينية ومن بينها القوى الايطالية ، لم تكن فى يوم من الايام

حليفة للمسلمين ضد فئة مسيحية أخـرى ولم تكن ترغب فـى مساندة الايوبيين أو الوقوف على الحياد ٠

ولكن الجاليات التجارية الايطالية وعـلى وجـه الخصوص البنادقة كانت تتخذ أحيانا موقف الحياد وموقفا سلبيا من الفرنج اما خوفا عـلى مصالحها أو عدم الثقة فى امكانية اللاتين تحقيق النصر عـلى المسلمين ٠

ومن ثم كان للعلاقات السياسية بـين الايوبيين والبنادقة عظيم الاثر فى تجاوز بعض الشدائد التى ربمـا ألحقت بمصر أضرارا بالغة فيما لو هاجمت القـوات الصليبية مصر ٠ ومن الامثلة عـلى ذلك براعـة الملك العـادل الايوبى فـى الاتصال بالبندقية وجعلها تقوم بتحويل الحملة الرابعة الى القسطنطينية بدلا من مصر ٠

وتأتى أهمية الحروب الصليبية بالنسبة للبندقية فى أنها كانت من عوامل ازدياد الصلات الاقتصادية بين الشرق والغرب ، لاسيما أن الغنائم كانت ضخمة فـى الحربين الصليبيتين الاولى والرابعة ، وان هذه الفتوحات استخدمت كقواعد لتوغل تجارى متزايد ، وان هذه الآثار التى نجمت عن الحروب الصليبية لعبت دورا فى كافة التغيرات التى طرأت على المجتمع الوسيط بوجـه عـام والبندقية بوجه خاص ومهدت لقيام نهضة واسعة فى الغرب الاوروبى ٠

الفصـــل الثالث

العلاقـات السياسية بـين البندقية والمشرق الاســلامى فــى العصر الايوبــى

- السفارات والمكاتبات المتبادلة بين البلدين .
- المعاهـدات المعقـودة بينهمـا .
- ديوان الانشاء فى مصر ، ونماذج من المكاتبات المتبادلة .
- دوج البندقية وتأرجح العلاقات بين البنادقة ومصر وفقـا لمقتضيات الظروف وتغير المصالح .

كانت مصر تتمتع بمركز تجارى عظيم الاهمية فى العلاقات بين الشرق والغرب على امتداد العصور • ولقد شكلت التجارة الخطوط العريضة لسياسة البندقية في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، واتخذت من تحقيق الكسب المادى هدفا استخدمت من أجله جميع الوسائل السلمية منها والحربية ، الايجابية والسلبية ، لتحقيق الهدف الاول وهو الثراء •

ولقد بدأ اتصال البندقية بمصر فى عهد الدولة الفاطمية اسوة بباقى المدن التجارية الهامة في ذلك الوقت مثل جنوه وبيزا وأمالفى • ولم تكن البندقية ترغب فى ترك الميدان لغيرها • ففى القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) كانت البندقية تقوم بنقل الاخشاب اللازمة لبناء سفن الاسطول الى مصر رغم تعرضها لتهديدات الامبراطور البيزنطى حنا زيمسكس John Zimisces (٩٦٩ ـ ٩٧٦ م) بالانتقام منها اذا لم تمتنع عن تزويد مصر وغيرها من البلاد الاسلامية بالخشب الذى يصلح لبناء السفن •

واضطرت البندقية فى عهد الدوج بطرس الثانى Peter II الى التراجع أمام هذا القرار البيزنطى خشية ضياع مصالحها فى القسطنطينية • واستثنى الامر من ذلك الخشب الذى لا يصلح لبناء السفن • وكان لهذا لقرار أثر سيىء فى مصر ، اذ ندر وجود خشب السفن حتى أنه لما أراد الوزير عيسى بن نسطورس فى عهد الخليفة العزيز (٣٧٥ ـ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ ـ ٩٩٦ م) (١٩٧)

---

(١٩٧) عيسى بن نسطورس كان وزيرا نصرانيا فى عهد الخليفة العزيز =

أن ينشيء أسطولا جديدا بدلا من الاسطول الفاطمى الذى كان معدا لوقف تقدم البيزنطيين بالشام واحترق ، أمرت الدولة الفاطمية بقطع الاخشاب من مختلف جهات البلاد لسد هذا العجز » (١٩٨) ٠

ولكن البندقية رأت ألا تضحي بمصالحها الخاصة فى سبيل ارضاء أباطرة الدولة البيزنطية ٠ فأرسلت بعثات وسفارات الى الدولة الفاطمية فى مصر استطاعت الحصول على امتيازات تجارية ٠ كما أن تجارها عملوا فى نفس الوقت على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ، وصارت سفن البندقية تنقل من الموانىء المصرية منتجات آسيا الى أسواق أوروبا ٠

وكانت البندقية ترسل السفراء الى كل حكام البلاد الاسلامية فى حوض البحر المتوسط ، لانه كان لها علاقات تجارية مع المسلمين فى صقلية ابان الحكم الاسلامى لها وكذلك شمال أفريقيه ومصر وبلاد الشام ٠ وأهم هذه السلع الحديد والخشب

=

٣٧٥ ـ ٣٨٦ هـ وفى أوائل عهد الحاكم ٣٨٦ هـ عزل عيسى بن نسطورس وتقلد الحسن بن عمار منصبه والذى عرف باسم منصب الوساطة بدلا من الوزارة وذلك فى ٣ شوال ٣٨٦ هـ انظر : سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٨٣ ٠

(١٩٨) ابن أبى السرور : النزهة الزهية ورقة ٩٦ ـ ٩٨ ، راجع أيضا : متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣٦٤ ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٧٣ ـ ١٧٥ ، ٢٤٩ ـ ٢٥١ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١١ ـ ٦١٢ ، سعيد عاشور : النهضات

=

والاسلحة وكذلك العبيد أو الرقيق • وكانت البندقية تقـوم بنقل هذه المـواد الى مصر مقـابل السلع التى تأتى من البـلاد الاسلامية وبلاد الشرق الاقصى وبخاصة النسيج والتوابل •

وكانت الامبراورية البيزنطية توعز الى جمهورية البندقية بألا تحمل سفنها الاخشاب الى أسواق مصر حتى لا يشتد سـاعد الاسطول الفاطمى الذى كان يقف ضد البيزنطيين بالمرصاد • ولكنها رغم المحاولات البيزنطية ، تجاوزت كل هذه التحذيـرات وأجازت لتجارها أن ينقلوا الى دور الصناعة المصرية خشب اللبخ والسنديان على ألا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام ، كما أجازت لهم بيع الادوات المصنوعة من الخشب وذلك مقابل حصول البندقية عـلى امتيازات تجارية • وحققت من وراء ذلك الارباح واستطاعت عن طريـق مصر أن تنقل منتجات آسيا الى أسـواق أوروبا (١٩٩) •

ومما سبق يمكن القول أنه لا يصح الفصل فى العلاقات بين البندقية ومصر فى النواحى السياسية والعسكرية والتجارية فى

=

الاوروبية فى العصور الوسطى ص ١١٩ ـ ١٢٠ •
Kantorowicz, Frederick the Second, p. 122; Molmenti, Venice, part, I, p. 116.

(١٩٩) سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٢ •
Lewis, Navy Power and Trade, pp. 218 - 219.

ذلك الوقت ، لالتقاء كل هذه السياسات عند هدف واحد بالنسبة للبندقية وهو رفعتها وعظمتها عن طريق الثراء والرخاء ٠

وجاء عصر الدولة الايوبية فـى وسط الحـروب الصليبية ومعمعتها ٠ وهي الدولة التى قامت عـلى أساس الجهاد ضـد الصليبيين وكانت الامم الاوروبية والقوى البحرية التجارية فى معظم الاحيان طرفا فـى هـذا الصراع فهـى تقف الى جـانب الصليبيين لاعتبارات كثيرة ، ولكنها تحرص فى نفس الوقت على عدم قطع علاقاتها التجارية مع مصر فى عهد الدولة الايوبيـة خصوصا وان ميزان القوى بدأ يتحول فى صالح الجانب الاسلامى بعد تولى السلطان صلاح الدين الايوبى الحكم وبعد أن جعل من مصر مركزا لقوة الاسلام ٠

وكان سلاطين القاهرة من ناحيتهم يستشعرون شيئا مـن الارتباك والحرج اذا منحوا التجار المسيحيين بعض الامتيازات التجارية ٠ ولكن التسامح الدينى عند المسلمين أتاح الفـرص أمام المسيحيين لعمل علاقات تجارية ٠ وسرعان ما اتفق الفريقان على التبادل ، بالرغم ما شعرت بـه النفوس التقية المسيحية من السخط ، وعلى الرغم من توقيع الكنيسة الحرمان الدينى عـلى كل من يشتغل بهذه التجارة « المحرمة » وخاصـة من يعمل على تهريب البضائع وقت الحرب وفى مقدمتها الاسلحـة والرقيق ومواد بناء السفن من خشب وغيره ٠ كما كانت الكنيسة اللاتينية تصدر الاوامر بمصادرة ممتلكات من يقوم بهذه التجارة المحرمة مع المسلمين وتهدده بفقد حريته ، وخاصـة فـى عهد الدولـة الايوبيـة حيث نشط الجهاد ضـد الصليبيين ولحقت الهزائـم

بالقوات الصليبية على يد السلطان صلاح الدين فى كثير من المعارك ، لدرجة أن البابوية وأهل الغربالاوروبى فرضوا ضريبة أسموها « ضريبة صلاح الدين » نسبة اليه، وذلك لمقاومته وغزو الاراضى المقدسة التى كان قد استعادها • فاذا أدركنا ذلك أمكننا تصور طبيعة العلاقات بين البندقية ومصر فى هذا العصر المفعم بروح الجهاد عند الايوبيين والملىء بالحماسة الدينية عند الغربيين .

لقد كانت العقوبات تواجه البنادقة من جهات عديدة ، منها موقف بيزنطه من البندقية ، وموقف الغرب الاوروبى والكنيسة البابوية من البنادقة ، وكذلك موقف الدوله الايوبية منهم ان هم استجابوا لرغبات بيزنطة والبابوية والصليبيين (٢٠٠) وكان عليها أن تكيف سياستها وفقا لمقتضيات الظروف ، وان كانت قد وضعت مصلحتها الذاتية فى الاعتبار الاول •

ومما يدل على عظمة البندقية وما كان لها من علاقات مع مصر ان ديوان الانشاء فى مصر كان يخص الدوج بنوع من المكاتبة يميزه عن غيره من كبار الفرنج ، وهذا دليل تبادل المكاتبات والمراسلات بين مصر والبنادقة • اذ كان رسم المكاتبة اليه فى المراسلات « الدوج الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ، المفخم ••• فخر الملة المسيحية ، جمال الطائفة الصليبية ، دوج البندقية والماسية ، دوج كرال دين بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء وتعريفه ، صاحب البندقية » ثم ذكر

(٢٠٠) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٨ ، ١٢٥ ـ ١٢٦ •

بعد ذلك .. معز بابا روميه صديق الملوك والسلاطين .. (٢٠١)

والدوج عظيم المقـام عندهم « فهـو مختـار الارستقراطية وخادمها ولن تجد حكومة دستورية قيدت رئيسها بأكثر مما فعلت البندقية بدوجها » وهذا المقام الكبير وتلك العظمة يدلان عـلى مكانة البندقية فى المجالين المحلى والخارجى . ومن ثـم حرصت الدولة الايوبية علىأن تكون على علاقة طيبة مع البندقية ، لمـا كانت تتمتع به من مكانة فى الغرب من ناحية ، ولصالح بنى أيوب من ناحية أخرى (٢٠٢) .

وكان عهد صلاح الدين بداية لاقامة العـدل فـى البـلاد والتخفيف عن الناس . كذلك أعطى تسهيلات للاجانب وخاصة تجار البندقية وبيزا وجنوه ، ففى عام ١١٧٣ م / ٥٦٩ هـ وصل الى مصر سفير من قبل بيزا وحضر الى بلاط صلاح الدين من أجل ابرام اتفاق بين البلدين والحصول عـلى امتيازات وتسهيـلات تجارية . وبالرغم من أن موقف البيازنة كان معاديا للمسلمين لانهم كانوا يساعدون الصليبيين على طول الخط ، الا أن صلاح الدين وافق عـلى ابرام معاهدة جديـدة معهم . وتضمنت مـن جديد لاهل بيزا المقيمين بالاسكندرية الحق فى اقامة فندق وحمام وكنيسـة وكذلك حريـة العبـادة وحـق استعمال موازينهـم ومقاييسهم الخاصة تشجيعا لهم على استيراد المواد الحربية مـن الخارج الى مصر وخاصة الحديد والخشب والقطران .

---

(٢٠١) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٨ ص ٤٧ ـ ٤٨ .

(٢٠٢) مارتمان : الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى ص ١٥٧ ـ ١٥٨ ، هامش ١ ، شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٨٥ ـ ٨٦ .

كما تقرر اعفاء البيازنة من الرسوم الجمركية على الذهب والفضة عند الدخول الى البلاد . كما وضع صلاح الدين حدا لجميع تعسفات الموظفين والصعوبات التى كان يتعرض لها التجار البيازنة فى الجمارك ، كما لم يلزمهم ببيع بضائعهم الى الحكومة بسعر أقل من الثمن الجارى • وكذلك أوقف اجبارهم بالرحيل بالقوة وترك لهم الحرية فى ذلك (٢٠٣) •

وبعد هذه السفارة وصل الى مصر فى الفترة من عـام ١١٧٦ الى عام ١١١٨٠/٥٧١ ـ ٥٧٦ هـ ثلاثة سفراء آخرين وهـدف هؤلاء السفراء كان فك أسرى الحرب البيازنة وكذلك الحصول على تأكيدات للامتيازات التجارية لهم فى الاسكندرية لان طبيعة تغير الظروف فى تلك الفترة التى شغلتها الحروب الصليبية كانت تقتضى استمرار تجديد الاتفاقات وتأكيدها من جديد ومن وقت لآخر (٢٠٤) • هذا فى الوقت الذى كانت فيه بيزا تتمتع بالمركز الاسمى لدى السلطات الايوبية فـى مصر قبل أن تنتـزع منها البندقية هذه المكانة •

وفى عهد السلطان صلاح الدين الايوبى استطاعت المـدن التجارية الايطالية البندقية وبيزا وجنـوه الحصول عـلى كـل الامتيازات التجارية فى مصر • وكان الدوج سبستيان زيانى Sebastian Ziani البندقى قد اتفق مع صلاح الدين بهدف تدعيم

---

(٢٠٣) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, p. 397; Cook, Studies in Economic, pp. 66 - 67.

(٢٠٤) Heyd, Histoire du Commerce, Vol I, pp. 392 - 398.

الوجود البندقي التجارى فى مصر (٢٠٥) ودليل ذلك أن صلاح الدين ألزم السفن التجارية للمدن الايطالية الثلاث التي كانت موجودة في ميناء الاسكندرية بضرورة نقل آلاف المسيحيين الذين رغبوا في العودة الى الغرب الاوروبى بعد موقعة حطين وسقوط القدس ، ويقدر المؤرخ وليم هايد « عددهم بخمسة آلاف فرنجى كان السلطان صلاح الدين قد وجههم نحو الاسكندرية في شهر أغسطس ١١٨٧ م / جماد ثانى ٥٨٣ هـ وأمر بأن يرحلوا منها الى أوروبا علىسفن أوروبية وخاصة سفن جنوة وبيزا والبندقية . ولما رفض رؤساء السفن الايطالية نقلهم رفض والى الاسكندرية بدوره أن يسلمهم صوارى المراكب ودفاتها الا اذا وعدوا بنقل هؤلاء الاسرى ومعاملتهم معاملة طيبة . وجرت العادة بالا تقلع سفينة من الميناء الاا اذا دفعت ما هو مقرر عليها من الرسوم (٢٠٦) . وهذا لا يترك مجالا للشك فى أن المدن الايطالية ومن بينها البندقية كانت تتمتع بمكانة عالية فىمصر ، ولها علاقات سياسية قوية ، بالاضافة الى الامتيازات التجارية والا ما استجابت لرأى صلاح الدين فى أن نقل الفرنج الاسرى الى أوروبا بعد أن ألزمهم بذلك . اذ رفض مسئول الميناء أن تقلع سفن البنادقة وجنوه وبيزا فى البحر الا بعد أن تحمل هؤلاء الصليبيين وتعود بهم الى بلادهم بدون أجرة . وكان النظام دقيقا لمنع التلاعب فكان على متولى الميناء أن يأخذ الدقل (٢٠٧) ودفة

(٢٠٥) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, p. 398.

(٢٠٦) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 398 - 399.

(٢٠٧) الدقل : جزء فى مقدمة السفينة وهو سهم السفينة . أنظر : سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

السفينة وذلك لمنع المغادرة الا باذنه ، وبعد الوفاء بكل الالتزامات والتعليمات الصادرة عن الدولة ، وكذلك لعدم وقوع الفوضى ولامكان القبض على التجار اذا اقتضى الامر ذلك من أجل الانتقام أو الثأر من تجار أية دولة اذا كان أحدهم قد أساء الى أحد من المواطنين أهل البلاد • وكان هذا الاجراء سارى المفعول حتى عام ١١٨٨ م / ٥٨٤ هـ • وكان صلاح الدين قد وعد بالغاء هذا القيد لاهل بيزا وخصوصامنذ عام ١١٧٣م / ٥٦٩هـ•

وجملة القول أنه كان لابد للجاليات والتجار من اظهار حسن نواياهم والا تعرضوا للتضييق والتشديد ، وذلك وفقا لطبيعة العلاقات التى كانت قائمة بين المدن والدولة الايوبية (٢٠٨) •

وكان صلاح الدين الايوبى بقوته وحسن سياسته يستطيع جذب أعدائه وان يوقع بينهم الخلاف • فنجده يقيم علاقات طيبة مع امبراطور بيزنطه ، ويرسل خطيبا للجمعة فى مسجد القسطنطينية ويتبادل الرسائل والسفراء مع بيزنطه سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م حيث تقررت بينهما علاقات المودة ، ولكنه فى نفس الوقت يعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطالية ومن بينها البندقية حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع والاسلحة (٢٠٩) •

---

(٢٠٨) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 399 - 400: Cook Studies in Economic, pp. 66 - 67.

(٢٠٩) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٩٤ — ٩٥ ، أبو شامه : الروضتين فى اخبار الدولتين جـ ٢ ص ١٦٠ •

Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 396 - 397.

وكانت علاقات صلاح الدين بالبنادقة تتأرجح بين السلم والحرب والصفاء والعداء . وقد ذكر في رسالته الى الخليفة العباسي عام ١١٨٢ م / ٥٧٨ هـ يقول فيها : « ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبيازنة والجنوية كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم وتطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام في الاموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة ، وما منهم الا من هو الان يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وتلاده وكلهم قد قررت معهم المواصلة وانتظمت معهم المسالمة على ما تريد ويكرهون وعلى ما نؤثرهم لا يؤثرون (٢١٠) .

ومعلوم أن الحملة الرابعة بدأت الدعوة لها في فرنسا وتزعم هذه الدعوة البابا أنوسنت الثالث ، وحدث اتفاق بين القادة الصليبيين للحملة وبين الدوج البندقي هنرى داندولو ، وكان هدفها السرى مصر في حين جدت ظروف أدت الى تحولها عن هدفها والعمل على اخضاع مدينة زارا المسيحية على الساحل الدلماشى ، ثم الهجوم على القسطنطينية نفسها والاستيلاء عليها وتأسيس امبراطورية لاتينية بها .

وكانت للبندقية مصلحة سياسية في الدرجة الاولى فيما اتخذ من خطوات في تلك الحملة ، وكانت تريد الانتقام من البيزنطيين للمهانة التى تعرضت لها من الامبراطور البيزنطى ، وكذلك

---

(٢١٠) أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٢٤٣ ، راجع أيضا : أرنست باركر : الحروب الصليبية ص ٢٣٠ ، العرينى : مصر فيعصرالايوبيين ص ٢٠٢

تعويضا عن خسائرها المادية نتيجة لتوسع الامبراطورية في اعطاء الامتيازات للبيازنة والجنوية في القسطنطينية. كما أن الاستيلاء على عاصمة بيزنطه سوف يمكنها من السيطرة على البسفور . ولم يكن البنادقة في الاصل يرغبون في مهاجمة مصر « وكانت الرغبة في ابعاد الحرب عن مصر تسيطر على عقول البنادقة فتلكأوا وبدأوا يتفاوضون مع اليكسيوس مع أنهم يعلمون أنهم بذلك يجرون على أنفسهم لعنات حرمان بابوى يصدر ضدهم» (٢١١) .

وبالرغم من أن الاهداف الظاهرة تكفى لتبرير تحول الحملة الرابعة الى زارا ثم الى القسطنطينية ، الا أن هناك روايات تاريخية تقول أن السلطان الايوبى الملك العادل أرسل سفارة مصرية الى البندقية عندما علم بتحركات الصليبيين وشروعهم بغزو مصر . وحمل العادل هذه السفارة الهدايا الثمينة وألف مارك ذهبى هدية للدوج . ووصلت هذه السفارة الى البندقية فى الوقت الذى اجتمع فيه الصليبيون فى البندقية استعدادا للرحيل الى الشرق . وتعهد السفراء بتقديم الامتيازات التجارية فى الاسكندرية للتجار البنادقة ، وذلك مقابل ان يقوم الدوج بما له من نفوذ بتحويل الحملة الصليبية عن مصر الى جهة أخرى ، ومما يؤكد صدق هذه القضية أن البنادقة قد استقبلوا فى مصر أحسن استقبال ، فقد منحهم السلطان العادل عام ١٢٠٧ م / ٦٠٤ هـ مميزات سخية كانت تجدد باستمرار فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) .

---

(٢١١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

وكان لمدينة القديس مرقص جالية قوية فى الاسكندرية يدير شئونها قنصل باسم الجمهورية • وذكر أيضا أنه فى اللحظة التى كانت فيها البندقية تساوم الصليبيين حول نقل الصليبيين الى الشرق ، كان سفراء من البندقية قد وصلوا القاهرة وأبرموا اتفاقا تجاريا مع نائب السلطان العادل (٢١٢) •

وهناك رأى آخر يقول ان الاتفاق التجارى قد وقع بين الطرفين فى ١٣ مايو ١٢٠٢ م / ١٨ شعبان ٥٩٨ هـ قبل تحرك الصليبيين « منحهم العادل بموجبه الفنادق فى الاسكندرية فضلا عن العديد من الامتيازات التجارية ، فى حين تعهد الدوج للمبعوثين المصريين بأن البندقية لن تساعد أى حملة موجهة الى مصر •

وثمة رأى يقول ان الاتفاق قد تم فيما بعد فى عهد الدوج بطرس زيانى Peter Ziani (١٢٠٥ ـ ١٢٢٩ م) ولكن يبدو أن الاتفاق تم فى عام ١٢٠٢ م / ٥٩٨ هـ قبل الهجوم على زارا والقسطنطينية • ولا مانع من أن يكون قد جدد فى عهد الدوج زيانى ، وذلك لاستمرار العلاقات الحسنة بين البلدين طيلة عهد الملك العادل الايوبى •

---

(٢١٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٩ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ •

Heyd, Hisoire du Commerce, vol, I, pp. 400 - 401;

Hodgson, The Early History of Venice, pp. 430 - 341;

Pirenne, Medieval Cities, p. 79;

Diehl, Bysantine Empire, p. 148;

Duggan, The Story of the Crusades, p. 205.

وعندما جاء ريتشارد قلب الاسد فى الحملة الصليبية الثالثة ١١٨٩ ـ ١١٩٢ م / ٥٨٥ ـ ٥٨٨ هـ ، وبعد استعادة الصليبيين لمدينة عكا ، فكر الملك الانجليزى فى غزو مصر لانها كانت تمثل مركز الخطر على الوجود الصليبى فى الشام . وقد طلب ريتشارد من قنصل جنـوا فى عكا أن يدخل معه فى اتفاق لتقوم بموجبه جنوا بالاشتراك مع الصليبيين فى هذه الحملة ضد مصر • ولكن جنوه رفضت ذلك العرض ولم تتحقق أحلام ريتشارد فى عـام ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ واضطر الى الدخول فى هدنة مع السلطان صلاح الدين والعودة الى بلاده • الا أن الصليبيين أدركوا أهمية فكرة السيطرة على مصر ولذلك شرعوا فى اعداد الحملة الصليبية الرابعة لتحقيق هذا الغرض •

ومما يدل على وجود علاقات طيبة بين البندقية وصلاح الدين أنه حاول استخدام السياسة لعزل الصليبيين فى الشام ، وحرص على أن يكون على وفاق وسلام مع كل عدو خارجى قبل أن يخوض فى معارك حاسمة ضد الصليبيين • ومن هذا القبيل حسن سياسته مع المدن التجارية الايطالية من ناحية وعلاقاته الطيبة مع بيزنطه من ناحية أخرى • كما أهتم باذكاء التنافس بـين الجمهوريات الايطالية الثلاث جنوه وبيزا والبندقية ، بما يعود على المسلمين فى الشرق الادنى بالنفع والفائدة • ومنذ بداية حكمه نشطت تجارة البنادقة فى مصر ، وبذلك حصل السلطان عـلى ميزتين : الاولى ازدياد موارده المالية لتقوية جيوشه ، لانه كان فى حاجة دائمة للمال لان مصاريفا باهظة تقدر بالاف الدنانير قد تكلفتها العمليات الحربية بين المصريين والصليبيين من ناحية وبين صلاح

الدين الايوبى وبقايا الفاطميين من ناحية أخرى ٠

والثانية محاولته اضعاف النشاط التجـارى للصليبيين لا سيما اذا عرفنا ان صلاح الدين صارت له السيطرة على البحـر الاحمر وهو الطريق الهام لتجارة الشرق الاقصى ، ومن أجل هذا دعم صلاح الدين أسطوله لمواجهة نشاط الصليبيين فى البحرين الابيض والاحمر وأيضا لمواجهة ازدياد نشاط البنادقة وغيرهم من المدن التجارية فى تهريب الذهب من مصر الى بلادهم بهدف افقار الدولة الايوبية من ناحية وحتى يزدادوا هم ثراء من ناحية ثانية ٠

ويتضح اهتمام صلاح الدين بقواته البرية والبحرية فـى رسالة وجهها الى الخليفة العباسى فـى بغـداد سنة ١١٧٤ م / ٥٧٠ هـ يشير فيها الى وجود معاهدات تجارية مع البندقية وجنوه وانهما يحملان الى مصر المواد الحربية ، لان هذه الجمهوريات كانت تحصل على منتجات الشرق بسعر رخيص وبطريق مبـاشر بفضل ما تشيده من مستودعات فى شرق البحر المتوسط ٠ كما كان صلاح الدين يعتمد على التجار كجواسيس يخبرونه بتحركات الصليبيين ٠ وكان التجار الاجانب المقيمين فى الاسكندرية هم الذين حذروه سنة ١١٩٠ م / ٥٨٦ هـ بأن فردريك بارباروسا يعد حملة صليبية لمهاجمة المسلمين (٢١٣) ٠

---

(٢١٣) ابن بعرة الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٤٠ ٠

— Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, p. 400; Pirenne, Medival Cities, pp. 65 - 66, 74;

Runciman : History of Crusades, vol, 37, p. 147; Setton, History of Crusades, vol, 2, p. 161.

ومهما كانت الآراء ، فاننا نرى أن الملك العادل قد أرسل سفارة الى البندقية أيام الحملة الرابعة وقدم الاغراءات للبنادقة بتحويل الحملة الى وجهة أخرى • فـاذا نظرنا الى نتائج الحملة وجدنا ما يدعم هذا الرأى ، وخاصة ازدياد امتيازات البنادقة فى مصر مع تحويل وجهة الحملة الى القسطنطينية بالفعل وعـدم مواصلة سـيرها الى مصر •

ويمكن القول ان الملك العادل قـد أدرك أهميـة الاتصال بالبندقية واغرائها بالامتيـازات طالمـا أن جولتـه الاولى قـد أثمرت بعدم تعرض مصر للغزو ، فلماذا لا يكرر ارسال السفارات سنويا الى البندقية وخصوصا أنه يعلم أن أوروبا لابد وان تجدد المحاولة فى المستقبل ، لاسيما أن الوجود الصليبى كان لا يزال قائما فى بلاد الشام •

وليس هناك ما يمنع من وجـود اتصالات بين الملك العادل والبنادقة ، فقد تم الاتصال بين الطرفين للمرة الثانية فى عـام ١٢٠٦ م / ٦٠٣ هـ وفى عام ١٢٠٧ م / ٦٠٤ هـ • وانتهى عـام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ بتوقيع اتفاقية تجارية ترتب عليها أن أصبح رعايا البندقية لهم حق الاولوية بين الرعايا الاجانب المقيمين فى مصر • كما أصبحوا يعاملون كمواطنين دولة صديقة • وقد منحهم تخفيض فى الرسوم وأعطاهم الحق فى اقامة فندق ثان بالاسكندرية حيث كان لهم فندق آخر من قبـل ، كما منحـوا امتيازات أخرى مقابل تعهدهم بمنع الصليبيين من غـزو مصـر

• عدم تقديم المساعدة لهم (٢١٤) ·

وأوضـح « شارل أومان » مـدى اهتمام البنادقـة بمصر وعلاقاتهم مع الملك العادل « اذ أنهم كانوا على علاقات طيبة جدا مع سلطان مصر وكان هذا السلطان قد منحهم امتيازات تجارية قيمة فـى الاسكندرية جعلت جميع التجـارة مع ممالك الهند البعيدة فى أيديهم . ولذلك كانوا قد عزموا على ابعاد الضربة عن مصر وتحويلها ضد عدو آخـر من العالم المسيحى (٢١٥) · هذا بالرغم من أن هدف الصليبيين الاول هو مصر « وكانوا قـد ساروا الى المينـاء الايطالى الكبير بقصد توجيه ضربة ضد الملك العادل سلطان مصر · وكان البنادقة قد تعاقدوا على مدهم بالسفن اللازمة للحملة الصليبية ، ولكنهم لاسباب خاصة بهم عزموا على توجيـه الهجـوم الى غير الشاطىء الذى كان مقررا أن يوجـه اليه (٢١٦) ·

(٢١٤) الشهابى : الغرر الحسان ورقة ٣٩٤ ، راجع أيضا :
شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٩ ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ ص ٢٠٦ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٣٢ ـ ٩٣٣ ·
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 401 - 404 Hodgson, The Early History of Venice, pp. 429 - 430.

(٢١٥) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٧ ، وانظر أيضا :
Bury, Cambridge Medieval History, pp. 415 - 416; Heyd, Histoire du Commerce, vol, I. pp. 401 - 404.

(٢١٦) روبرت كـلارى : فتـح القسطنطينية ص ٤٩ ـ ٥١ ، أومـان : الامبراطورية البيزنطية ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، راجع أيضا :
Bréhied, l'Eglise et l'orient, pp. 156 - 157;
Duggan, the Story of the Crusades, p. 205;

=

واستفادت البندقية من الحرب الرابعة فى مجالات الفنون والتطور السريع عندما أصبحت تربطها علاقــات صداقة مــع بيزنطه • كما أن الحملة الرابعة تركت مــن الناحية السياسية أثرا عظيما فى توازن القوى الايطالية ، اذ حصلت البندقية على المزيد من الامتيازات التجارية زيادة عن منافسيها بيزا وجنوه بحيث أعطاها ذلك موقفا متوازنا مع غيرها ومركزا وسيطا بين الشرق والغرب • وأصبحت تكون امبراطورية واسعة تعتبر من أقوى الدول البحرية آنذاك (٢١٧) •

وعلى الرغم من معاهدات الملك العادل الايوبى مع البنادقة وتأكيدها وتجديدها بين الحين والحين ، الا أن طبيعة العصر كانت دائما تدعو الى الاضطراب وعدم الاستقرار وذلك نتيجة لاستمرار الحروب الصليبية والصراع الدموى فوق رقعة الشرق الادنــى وارتباط البنادقة والدولة الايوبية بها• كما أن السلطان الايوبى لم يكن يأمن تماما جانب التجار الاجانب فى الاسكندرية ، وكان ينظر الى كثرة عددهم بخوف • وأكد له هذا الخوف ما وقع عام ٦١٢ هـ / ١٢١٥ ـ ١٢١٦ م ، اذ اجتمع هناك حوالى ثلاثة آلاف تاجر فرنجى فى الاسكندرية استغلوا وصول مركب صليبى عليه سيدان كبيران من الغرب الاوروبى ، وكانوا يريدون عمل شىء =

Vasiliev, Histoire de l'Empire Bysantin, vol, 2, p. 458;
Runciman : A History of Crusades, vol, III, pp. 114 - 115.

---

(٢١٧) Vasiliev Histoire de l'Empire Byzantin, vol, 2, p. 458;
Davis, Medieval Europe, p. 213.

ضد المسلمين ، ولكن السلطات المسئولة فى المدينة كانت ترقب الاحوال عن كثب • وارتابت فى نوايا هؤلاء التجار والسيدين المذكورين • وفعلا قام هؤلاء بثورة فى المدينة ، الا أن السلطات المسئولة فى المدينة تمكنت من القبض عليهم والقائهم فى السجن ومصادرة ما يمتلكون من بضائع وأموال (٢١٨) •

ولقد وضح أن تجار الجاليات الايطالية كانوا من بين هؤلاء الثائرين ضد الدولة الايوبية ولذلك اضطرت الدولة الى التشديد عليهم . واستمر هذا التوتر فى العلاقات منذ تلك الحادثة حتى كانت الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٨ ـ ١٢٢١ م / ٦١٥ ـ ٦١٨ هـ •

وكان الصليبيون قد اجتمعوا فى الساحل الشامى هم وقوات أخرى قدمت من الغرب للاستيلاء على دمياط ، مفتاح الديار المصرية • وحوصرت المدينة حتى سقطت فى أيديهم فى ٥ نوفمبر ١٢١٩ م / ٢٥ شعبان ٦١٦ هـ،وكان للعناصر الايطالية ومن بينها البنادقة أثر فعال فى تلك المعارك • وقامت أساطيل جنوه وبيزا والبندقية بدور كبير فى توصيل الامدادات الى الفرنج ونقلهم ، بالاضافة الى المشاركة الفعالة فى القتال الى جانبهم • ولذلك كانت غبطتهم عظيمة بفتح مدينة دمياط ، نظرا لمركزها التجارى والعسكرى الممتاز • ومنها يمكنهم الدخول أيضا الى باقى البلاد المصرية •

---

(٢١٨) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 404 - 405.

وكان وصول البنادقة فى شهر أغسطس ١٢٢٠ م / جمادى الثانى ٦١٧ هـ فى أربعة عشر مركبا الى دمياط لدعم القوات الصليبية ، ولكن عندما حاولت القوات الصليبية الزحف الى داخل البلاد المصرية تعرضت لحصار شديد قامت به القوات الاسلامية التى استطاعت أن تفتح جسور النيل وتغرق القوات الصليبية فى المياه والاوحال بحيث حال ذلك دون وصول الامدادات لهم • وتعذرت عليهم الحركة ، وانقطعت عنهم المساعدات ، فاضطروا الى الاستسلام لشروط الملك الكامل محمد وأولها الانسحاب الشامل من البلاد المصرية ودمياط • ووافق الصليبيون على ذلك ، بينما رفض البنادقة هذا الصلح وعارضوه بشدة حرصا على مكاسبهم فى دمياط ومستقبل تجارتهم مع الايوبيين وخوفهم من انتقام الدولة الايوبية من البنادقة فى الاسكندرية والتضييق عليهم وعلى تجارتهم فيها • الا أن البنادقة اضطروا الى قبول العرض والانسحاب • وسلمت دمياط الى الملك الكامل محمد فى ١٩ رجب ٦١٨ هـ / ٨ سبتمبر ١٢٢١ م وقد تناولنا هذه الناحية بشىء من التفصيل فى الفصل الثانى من الكتاب عند استعراض موقف البندقية من الحملات الصليبية التى تعرضت لها مصر والشام فى العصر الايوبى (٢١٩) •

ويبدو أن البنادقة قد غيروا من سياستهم الطيبة مع مصر فى

(٢١٩) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٠٩ ، وراجع أيضا الفصل الثانى من الكتاب ص ٧٦ – ٧٩ ، ثم أنظر :

Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 405 - 406;

Archer, The Crusades, p. 378;

Runciman, A History of the Crusades, vol, III, p. 165.

عهد الملك محمد وذلك بعد وفاة الملك العادل ، فقاموا بمشاركة القوات الصليبية في الهجوم عى دمياط . ونتيجة للموقف البندقي المتشدد في دمياط والدعم الحربى الذى قدموه للقوات الصليبية فى الحملة الخامسة ضد مصر ، تعرض التجار البنادقة الى التضييق من قبل السلطات الايوبيـــة بسبب موقف دولتهم العدائـــى لمصر الاسلامية . كذلك منعت البندقية ردا على ذلك وصول أية بضائع أو مواد حربية الى مصر ، ومنع أى تاجر يحمل الى مصر الاخشاب اللازمة لبناء السفن والحديد والقطران ، وكل المواد التى تساعد على الحرب . بمعنى أن البندقية فرضت حظرا على توريد المواد الحربية الاستراتيجية الى مصر بقصد اضعافها بما يتيح الفرصة للصليبيين للتفوق العسكرى عليها ، ومن ثم يسهل عليهم الاستيلاء عليها ، وكان من يخالف ذلك من التجار يتعرض للنفى ومصادرة ممتلكاته . وشددت البندقية هذا الحظر فــى عــام ١٢٢٤ م / ٦٢١ هـ، وهددت بمصادرة وعقاب كل من يخالف ذلك من التجار .

وفرض العقاب على كل سفينة تصل الى البــلاد المصرية . ولكن حملة الامبراطور الالمـــانى فردريك الثانى والمعروفة بالسادسة انتهت الى عقد اتفاق مع الملك الكامل محمد بدون قتال تقـــررت بموجبة الهدنة بين الدولــة الايوبية والصليبيين وســاد السلام العلاقات بين الطرفين فترة من الزمن انتعشت خلالها التجــارة وتحسنت بالتــالى العلاقــات البندقيــة الايوبيــة ابــان هــذه الفترة (٢٢٠) .

---

(٢٢٠) العينى : عقد الجمان حوادث ٦٢٦ هـ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، راجع أيضا :

=

وبعد أن أعادت مصر الى التجار الايطاليين وعلى رأسهم البنادقة ما كان لهم من امتيازات فى الاسكندرية نتيجة للسلام الذى ساد العلاقات فيما بين الحملتين السادسة والسابعة ، بدأت البندقية تحتل مركزا هاما فى مصر . وحرص البنادقة على أن يكونوا علاقة طيبة مع أولى الامر فيها . وقبل تحرك الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع توجه أولا الى البندقية يطلب مساعدتها لتقديم السفن اللازمة لنقل الرجال والمؤن والعتاد . وعرض عليها مقابل ذلك اعفائها من الرسوم التجارية وأن يكون لها أحياء وكنيسة وحمام وفرن مع استعمال الاوزان والمقاييس البندقية وذلك فى كل مدينة فى مصر يساهم البنادقة فى احتلالها .

وبالرغم من هذه الاغراءات تشكك البنادقة فى قدرة الملك لويس التاسع فى احتلال مصر ، خاصة وانهم قد مروا بالتجربة فى الحملة الخامسة عندما فشل الصليبيون واضطروا الى الانسحاب من دمياط وما استفادوا شيئا بل خسروا ما كان لهم من امتيازات فى مصر . فخافوا هذه المرة أن تتكرر الكارثة ، ولذلك رفضوا فى بداية الحملة الصليبية السابعة تقديم العون الى الملك لويس التاسع . وكانوا يفضلون ما كان فى حوزتهم من امتيازات عما كان يمكن للمستقبل أن يوعدهم به . كما أعلنوا أنهم لا

=

Kantorowicz, Fredérick the Second, p. 185;

Bréhier, l'Eglise et l'orient, p. 203;

Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 88 , 405 - 408.

يريدون اثارة غضب السلطان الايوبى ، وانهم لا يريدون المغامرة بمصالحهم فى الاسكندرية • وكانوا يتحدثون مع سفراء الملك لويس التاسع بكل صراحة ، وانتهت المفاوضات بين السفراء الفرنسيين والبنادقة الى الفشل ، وهذا بلا شك موقف يدل على حرص البندقية على حسن علاقاتها مع الدولة الايوبية وخصوصا انها رأت ضعف الصليبيين وسوء أحوالهم وعدم قدرتها على التضحية بمصالحها من أجلهم ، وكانت البندقية قد بدأت تنشغل بالمنافسة والصراع مع جنوه فى بلاد الشام والشرق الادنى من أجل التجارة • ولم ترد المساهمة فى فتوحات جديدة بل رغبت فى الحفاظ على ما بيدها ، وكان هذا التفكير من جانب البنادقة صحيحا وموقفا حميدا يتمشى مع سياستها العامة •

فقد فشلت حملة لويس التاسع رغم أنه يبدو أن البنادقة قد شاركوا فيها فيما بعد بطريق غير مباشر وانتهت تلك الحملة الى أسوأ مما انتهت اليه الحملة الصليبية الخامسة • ولكن البنادقة استطاعوا أن يحافظوا على علاقاتهم مع الدولة الايوبية • واستمر مركزهم التجارى فى مصر لانهم أدركوا ضرورة ابقاء العلاقات الحسنة مع المسلمين ، لاسيما أن الدولة المملوكية التى قامت بعد الحملة السابعة كانت أكثر تشددا مع الصليبيين من بنى أيوب وحملت لواء الجهاد من جديد ضد الصليبيين وحلفائهم التتار فى آن واحد (٢٢١) •

(٢٢١) Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, p. 409; Pirenne, Medieval Cities, pp. 62 - 63.

وبالرغم من ذلك فاننـا لا نستبعد أن يكون البنادقة قـد شاركوا في الحملة السابعة عن طريق التجار البنادقة المقيمين في عكا ومدن الساحل الشامي ، لان كافة البلاد اللاتينية في الشام قدمت قواتها لمساندة الملك لويس التاسع أملا في احتلال مصر ، ولكن الدور البندقي كان ضعيفا ، في حين كان لكل من جـنوه ومرسيليا دور أكبر ، فقد قاما بنقل قوات الملك الفرنسـي الى الشرق (٢٢٢) .

وكانت امتيازات البندقية أكثر من غيرها في مصر في العهد الايوبي ، فكانوا يمتلكون - كما أسلفنا - بالاسكندرية فندقين وكانت صيانتهما على حساب الجمرك الايوبي أي على نفقة الدولة المصرية ، وكانا يستخدمان لسكنى التجار وتخزين البضائع . كما كانت لهم كنيسة وحمام خاص ، وجهزوا في أحد فنادقهم مخبزا خاصا بهم يحصلون منه على الخبز اللازم لهم . وكان النبيذ محرما في جميع البلاد الاسلامية ولكن كان مصرحا بدخوله الى فنـادق البنادقة لاستهلاكهم الخاص والبيع منه داخل الفندقين . كما كان من حق الموظفين أو العاملين البنادقة في الفنادق أن يحددوا ساعات فتح واغلاق فنادقهم ، ولكنهم كانوا يتمسكون بالامتثال لعادات البلاد وتقاليدها ويقومون بغلق فنادقهم ومتاجرهم يوم الجمعة أثناء ساعات الصلاه وكان لكل فندق مديره أو المسئول عن ادارته . وكان في خدمته مساعدين . وكل هؤلاء الموظفين كانوا

---

(٢٢٢) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة ٣٨٢ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٣٣ - ٣٣٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٨ ، ٣٦٦ ، جوزيف نسيم : لويس التاسع ص ٦١ .
Heyd, Histoire du Commerce vol, I, pp. 410 - 411.

معفون من الضرائب حتى من ضريبة الرأس أى ضريبة الفرد ٠

وكان قناصل الدول الاجنبية فى مصر يستقبلهم السلطان ويجلسون فى مجلسه ويقومون بعرض مطالبهم شفويا عليه كما وضح فى المعاهدات التجارية التى عقدها البنادقة مع مصر ان لكل بندقى الحق بأن يقدم شكواه رأسا الى السلطان أو ينيب عنه القنصل فى ذلك ٠ وفى هذه الحالة كان يوجه للسلطان شكوى مكتوبة ، وكان على القنصل أن يقوم بجمع أموال المتوفى البندقى وحفظها ، كما كان يوجد قناصل فى غير الاسكندرية ٠

وكان على التجار البنادقة أيضا ضرورة اتباع القوانين فى التحميل والتفريغ بالجمرك وتدوين ما يمتلكون فى كشوف وتقديمها لصاحب الجمرك ٠ كما أعفيت بعض السلع من الجمارك نهائيا ، وذلك بالنسبة للتجار البنادقة ، مثل اللؤلؤ والاحجار الكريمة والفراء والحرير ٠ وكان للبنادقة الحرية فى بيع بضائعهم بالسعر الذى يريدونه أو الاحتفاظ ببضائعهم والخروج بها من الميناء ثانية ، وكان الملك فى عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م قد منح البنادقة الامتيازات والحقوق بحيث كانوا أكثر الجاليات مكانة فى مصر (٢٢٣) ٠

ولقد كانت حكومة مصر كثيرة التقدير والمراعاة لتجار

---

(٢٢٣) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٩ ـ ٦٠ وراجع أيضا:
Wiet, l'Egypt Arabe, p. 343,
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 401, 404, 410 - 412:
Runciman, History of Crusades, vol, III, p, 113;
Cambridge Medieval History, vol, 5, p. 329.

البندقية · فأعفتهم من عدة ضرائب جائرة ومنحهتم حرية مطلقة في الاتجار باللآلىء والاحجار الكريمة والفراء · كما كانت أوامر الحكومة الخاصة بهم في العهد الايوبي أكثر انحيازا لهم · وكان البنادقة من جانبهم حريصون على أن يثبتوا أنهم جديرون بهذه المعاملة الحسنة فلم يتحركوا قط عـن أن يصدروا الى مصر ما تشددت الكنيسة اللاتينية في تحريم بيعه للمسلمين من الاسلحة والذخائر والحديد وأخشاب البناء والرقيق · لان في ذلك ربحا وفيرا لهم وضمانا لبقاء الصلات الطبيعية بينهم وبين السلطات الايوبية ·

وهذا الموقف الايوبي لم يكن غريبا ، فالبندقية كانت أقوى المدن التجارية في هذه الفترة ، وكان لابد لها من الحرص عـلى سلامة العلاقات معها للاستفادة منها من ناحية ولاغرائها عـلى الخروج على تحذيرات البابوية بمنع التعامل مع مصر من ناحية ثانية ·

وعلى الرغم من هذه الامتيازات التي تمتعت بهـا الجاليات التجارية في مصر وفي مقدمتها البنادقة والعلاقـات التجـارية الطيبة التي قامت بينها وبين الايوبيين ، فان الحروب الصليبية بمفهوم ذلك العصر كانت تؤثر تأثيرا كثيرا على هذه العلاقات التي لعبت دورا هاما في مصير الحركة الصليبية ·

وكانت العلاقات بين البندقية ومصر تتأرجح ايجابا وسلبا تبعا لمصلحة كل طرف منهما، ووفقا للظروف والاحوال الموضوعية من سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها خصوصا وأن الشعوب

اللاتينية كانت تتحرج من المتاجرة مع المسلمين ، خاصة بعد أن أشعلت الحروب الصليبية نار الخصومة الدينية ، وبعد أن أصبحت مصر تحت حكم السلطان الايوبى صلاح الدين وغدت المركز الرئيسى للقوة الاسلامية فى منطقة الشرق الادنى ومصدر امدادها بالمال والرجال والمؤن والسلاح • وظهر ذلك واضحا بعد هزيمة الصليبيين فى حطين والقدس ومدن الساحل ، اذ ازداد الحقد الايوبى وبدأ التفكير فى الانتقام • واستخدمت أوروبا المسيحية كل الوسائل المباشرة وغير المباشرة لالحاق الهزيمة بالمسلمين • فعلاوة على الدعوة الى الحرب الصليبية وجمع الضرائب باسم قتال المسلمين ، وعلى الرغم من مشاركة الملوك والامراء وأهل الغرب فى هذه الحروب، لم تكتف الكنيسة المسيحية بذلك ، بل فرضت تحذيرا يحرم على الغربيين التعامل التجارى مع مصر لحرمانها من الكسب المادى من ناحية والحيلولة دون وصول المواد الاستراتيجية اللازمة للحرب اليها من جهة أخرى ، وذلك بهدف اضعاف الجبهة الاسلامية وبالتالى تحقيق الاهداف الصليبية • ولكن قرارات الحرمان وأوامر التحريم هذه لم تكن لتبقى طويلا ، فقد كانت البندقية كما أشرنا من قبل ـ تتحايل على هذه القرارات بكافة السبل والتبريرات • وسرعان ما كانت تعقد بين البندقية والمسلمين فى مصر معاهدات تجارية لمصلحة الطرفين • وأوضحت الجمهورية البندقية للبابا أنوسنت الثالث الذى نادى بمنع هذه الصلات ، ان اقفال سوق لها مثل تلك الاهمية أمام تجارتها الرائجة ، يمثل ضربة قاضية لرخائها • فاضطر أمام هذا الاصرار يرضخ أمامها ، وتنازل عن التشديد لانه فى نفس الوقت كان بحاجة الى رخاء البندقية لان قوتها البحرية كانت ذات

أثر فعال في مساندة الصليبيين يضاف الى ذلك أن الدولة الايوبية كانت حازمة فى التعامل مع التجار الايوبيين ، وطبقت بشـدة مبدأ التعامل بالمثل • فكانت تفرض عـلى التجـار الاجانب أن يأتوا بالمواد اللازمة من أجل الحـرب والا فان تجـارتهم سوف تتوقف .

وفى المقابل أصدر صلاح الدين التعليمات بتشديد الرقابة على الموانىء المصرية وتأكيد تنفيذ أوامره بمنع تصدير المـواد التى تؤثر فى قوة العدو حتى لا يتفوق على المسلمين (٢٢٤) •

وعبثا حاول البابوات نيقولا الرابع (١١٨٨ ـ ١٢٩٢ م) ومن بعده البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ م) وكلمنت الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٤ م) ، بعد سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين منع هذا التعامل التجارى وتحريمه ، وهددوا من يقوم بالتجارة مع المسلمين بأشد ألوان العقاب• وكانوا يأملون من وراء ذلك تخريب بلاد السلطان الايوبى عن طريق اضعافه وحرمانه من الموارد المالية التى يجنيها من التجارة •

وعندما فشلت محاولات البابوات فى منع المدن التجارية ، وخاصة الايطالية ، من المتاجرة مع مصر ، أوعزوا الى فرسـان الاسبتارية والداوية والتيوتونية بمراقبة البحـر ومنع مـرور التجارة المحرمة الى بلاد المسلمين ولو أدى الامـر الى اسـتخدام القوة • الا أن جمهورية البندقية شرعت فى الاحتيال على هـذا

---

(٢٢٤) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٥٨ ، عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٧٥ ، الشيال تاريخ مصر الاسلامية ص ٩٩ •

الحظر ، وأعادت علاقاتها مع مصر فى العهد المملوكى كما كانت فى العهد الايوبى ، بل توسعت فيها فأرسلت مثلا ، عام ١٣٠٢ م / ٧٠٢ هـ الى القاهرة بعثة رسمية تطالب بتحديد امتيازاتها القديمة التى كانت قبل سقوط القدس فى أيدى المسلمين (٢٢٥)٠

ونلاحظ أن الاساطيل الايطالية للجمهوريات الثلاث ، وخاصة البندقية لعبت دورا سياسيا ذى وجهين ٠ فبينما كان البنادقة يرتبطون مع مصر اقتصاديا للحصول على متاجر الشرق الاقصى، نراهم يسهمون فى انجاح الحركة الصليبية منذ بدايتها٠ ونتيجة لمساعدتهم للصليبيين والاساطيل التى قدمتها البندقية والمدن التجارية الاخرى لهم ، تمكن الصليبيون من السيطرة على المدن الساحلية فى الشام والابقاء عليها فترة غير قصيرة من الزمن ٠ وحصلت البندقية فى مقابل ذلك على امتيازات كثيرة (٢٢٦) ٠

لقد كانت التجارة هى الاساس الذى قامت عليه عظمة جمهورية البندقية ، وبذل البنادقة اهتماما فائقا فى سبيل ذلك ٠ ويقول شارل ديل : أن البندقى ما كان يتردد أمام صوت ضميره فى سبيل توسيع ميدان النشاط التجارى ، أو تكبير امبراطورية المدينة الاستعمارية ، أو كسب مالى ، أو جمع الثروة ٠ فما تحرج أن يتجر مع المسلمين ـ ولو خان قضية المسيحية ـ اذا ما عاد عليه

---

(٢٢٥) ابن بعرى الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٧ ـ ٣٨ ، شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٦٠ ـ ٦١ ٠

(٢٢٦) عبادى وسالم : تاريخ مصر الاسلامية ص ١٧٥ ، انظر :
Hodgson, The Early History of Venice, pp. 245 - 257;
Carlton, History of Europe, vol, I, p. 235.

ذلك بالنفع ، وما تحرج كذلك أن ينقل اليهم المواد المحرمة أو أن يشتغل بتجارة الرقيق اذا ما عادت عليه تلك التجارة بالربح الوفير ٠

ولقد أبدى البنادقة عنفا بالغا في سبيل فتح الاسواق الجديدة وحمايتها من اعتداء منافسيهم ، وطابت لهم الوسائل كلها فلجأوا الى القسوة يصبونها على كل من حاول مقاومتهم(٢٢٧)٠ وهذا بلا شك يفسر طبيعة علاقات البندقية مع مصر في العصر الايوبي ٠

فالاصل عند البندقي تقديم مصلحته الخاصة ومصلحة دولته على أية مصالح أخرى ولو كانت دينية ٠ ويقول شارل ديل «وهكذا فان توفر الافراد على العناية بشئونهم الخاصة وخشونة طباعهم في الشئون التجارية ليرتبطان في كل وقت بصالح الدولة الاعلى ويخضعان له ، ومما يجدر ذكره أننا نجد صفة واحدة في كافة مظاهر الخلق البندقي ٠ الا وهي اخضاع المصالح الخاصة عن طيب خاطر لخدمة الجمهورية وعظمتها » (٢٢٨) ٠

ومن هذا المنطلق نرى أن البنادقة كانوا يخدمون مصالحهم في كل مكان وزمان ٠

وبعد ٠٠٠ تلك كانت طبيعة العلاقات السياسية بين البندقية والدولة الايوبية والتي أرتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاقات التجارية ، ذلك لان السياسة العامة للبندقية في ذلك الوقت كانت تضع الكسب المادي فوق أي أعتبار ٠

---

(٢٢٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ١١٩ ٠

(٢٢٨) شارل ديل : المرجع السابق ص ١٢٠ ، راجع أيضا :
Brown, Venetian Repubic, pp. 75 - 76;
Atyia, the Crusade in the Later Middle Ages, p. 114.
Jacob, The Lagacy of the Middle Ages, p. 270, 316 - 317, 462.

الفصـــل الرابـــع

العلاقات التجارية بين البندقية والمشرق الاسلامى فـــى العصر الايوبـــى

- المعاهدات بين الطرفين وما تضمنته من بنود تجارية .
- الرحالة والتجار البنادقة والمصريين .
- طرق التجارة البحرية ومحطاتها ومراكزها .
- الاساطيل التجارية ودورها .
- العملات المستعملة فى كل من مصر والبندقية .

بدأت علاقات البندقية التجارية تزداد نموا واتساعا مع مصر بقيام الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أخريات القرن الخامس الهجرى) وكان من دوافع تلك الحروب ونتائجها أيضا تحقيق الكسب المادى والثراء والتطور الاقتصادى للغرب الاوروبى • وكان من دوافع تلك الحروب ونتائجها أيضا تحقيق الكسب المادى والثراء والتطور الاقتصادى للغرب الاوروبى • وكان البنادقة قد استغلوا قيامها لينقلوا اهتمامهم الى سواحل الشام ومصر مع العمل على اقامة مستعمرات تجارية لهم، وما نتج عن ذلك من قيام المنافسة بينهم وبين القوى التجارية الاخرى مثل جنوه وبيزا ، ووقوع الخلافات مع الامبراطورية البيزنطية التى كانت المجال الرئيسى لتجارتهم فيما قبل الحروب الصليبية وخاصة فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين (القرنان الرابع والخامس الهجريان) (٢٢٩) •

وكان الطريق البحرى بالنسبة للصليبيين القادمين الى الشرق الاسلامى أسهل من الطريق البرى • وكانت البندقية من أقوى الدول البحرية التى تمتلك الاساطيل ، وفى امكانها خدمة الحركة الصليبية فى الوقت الذى كانت فيه علاقاتها التجارية مع مصر طيبة ، وقد استطاعت أن تستفيد من الجانبين الصليبى والاسلامى بما يعود عليها بالفائدة ، تأكيدا لسياستها فى هذا الشأن •

Wiel, The Navy of Venice, pp. 74 - 75;
Hodgson, The Early History of Venice, pp. 165 - 166, 233 - 234;
Lopez, Medieval Trade in The Mediterranean World, p. 33.

وكانت الحـروب تدور بـين الصليبيين والمسلمين ، ولكن التجـارة لـم تتوقف بـين المـدن التجاريـة الايطاليـة وبـين المسلمين (٢٣٠) ، واذا كان للحروب الصليبية الاثر فى تطـور وازدهار تجارة البنادقة ، فان الدولة الايوبية من ناحية ثانيـة قامت من أجل الجهاد والحرب ضد الصليبيين ، فكان لابد أن تتأثر العلاقات التجارية بين مصر الايوبية والبندقية ·

وكان البنادقة من ناحيتهم يحرصون على تأمين تجارتهم فى كل مكان ، كما قضوا من أجل هذا الهدف عـلى قراصنة البحـر الذين يعكرون صفو تلك البحار ، وذلك ليأمنوا عـلى تجارتهم ويؤمنون طريق الحجاج الى البلاد المقدسة (٢٣١) ·

ومع أن البندقية وبقية القوى التجارية الايطالية ساعدت الصليبيين فى فتح كل مدن الساحل الشامى ، فـان اهتمامهـا الاساسى بالتجارة ظل مستمرا فى مصر ، لاتصاله بتجارة الشرق الاقصى من ناحية ، ولان حاجة الصليبيين الى الايطاليين كانت أمرا لابد منه من ناحية أخرى · فقد كان لزاما على معظم المسافرين فى النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى (النصف الاول من القرن السادس الهجرى) المتوجهين من أوروبا الى فلسطين ، وأما أن يركبوا سفنا للبنادقـة أو الجنوية الى القسطنطينية ومنهـا يسيرون عـلى أقدامهم الى فلسطين ، وامـا أن يتخـذوا السفن

---

(٢٣٠) Wiel, The Navy of Venice, p. 325;
Lopez, Medieval Trade, p. 33.

(٢٣١) Wiel, The Navy of Venice, pp. 82 - 83;
Bury, History of the Middle Ages, p. 318;
Cook, Studies in The Economic History, p. 49.

الافريقية التى تلتزم الساحل فى سيرها الى سورية واما أن يركبوا مباشرة من جنوب ايطاليا فى سفن مملكة صقلية • ولكن هذا الطريق الاخير لم يكن منتظما الى سورية حتى السنوات المتأخرة من القرن الثانى عشر الميلادى (آخريات القرن السادس الهجرى) •

وأما عن المدن التجارية فى شمال ايطاليا، فانها كانت ترتبط بعلاقات تجارية مع المسلمين • ومن ثم فانها أبدت تحفظا فى مطلع الحركة الصليبية لان رخاءها كان يتوقف على المحافظة على تلك العلاقات الطيبة • فكلما ساندت حملة صليبية ، معنى ذلك أنها خاطرت بضياع مالها من حقوق تجارية فى الاسكندرية وغيرها من الموانىء الاسلامية • ومع ذلك لولا تعاون المدن التجارية الايطالية مع الصليبيين لتعذر عليهم الاستيلاء على المدن الساحلية الشامية ، بل ولتعذر عليهم المحافظة على كيانهم فيها (٢٣٢) .

وقد ساعد البنادقة الصليبيين رغم ارتباطهم بالفاطميين بعلاقات تجارية وثيقة • ولكنهم كانوا يدركون أن التجارة لا تعيش ما لم يستفد منها كلا الجانبين • فلم تكن السلطات الاسلامية فى مصر بأشد رغبة من الايطاليين فى ألا تنقطع العلاقات التجارية فترة طويلة من الزمن ، لانه فى حالة تعطيل التجارة واغلاق ميناء الاسكندرية فى وجه السفن المسيحية فان البلاد سوف تعانى من توقف التجارة وقلة الموارد المالية الناتجة عنها وبالتالى عدم قدرة

---

(٢٣٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١٠٧ ، أنظر أيضا :
Lewis, Naval power and Trade, pp. 240 - 241.

الدولة على الصمود أمام الفرنج • ولذلك لم يكن تنفيذ العقوبات صارما فى معظم الاحيان (٢٣٣) •

وكانت الامتيازات والتسهيلات تعطى للتجار الاجانب فى مصر فى العصر الفاطمى لان الفائدة تعود على الطرفين • فلما قامت الحروب الصليبية وضعف المسلمون وزال حكمهم فى البحر المتوسط أصبح محتما على السلطات الفاطمية رغم موقف الجاليات والمدن التجارية الايطالية المعادى ـ أصبح محتما عليهم الاستمرار فى تلك العلاقات لانه لا يوجد سبيل لنقل التجارة الى أوروبا الا عن طريق هؤلاء الوسطاء من التجار الايطاليين وخاصة البنادقة ، علاوة على انتهاء السيادة الاسلامية على البحر المتوسط عند هذا الحد الساحلى • فلم يعد بوسع التجار المسلمين مواصلة المسير فى البحر المتوسط الى أوروبا لتسويق تجارتهم خوفا من الاعتداء عليهم من قراصنة البحر أو الصليبيين • ومن ثم كان لابد من التساهل بعض الشىء ، هذا التساهل الذى فرضه الامر الواقع • وكانت المدن الايطالية قد أقامت فى مصر الوكالات التجارية والنزل الخاصة بالتجار مما يدل على اتساع العلاقات التجارية والازدهار الاقتصادى فى مصر الفاطمية (٢٣٤) •

وبانتقال الحكم فى مصر الى الدولة الايوبية قامت دولة قوية بدلا من الخلافة الفاطمية الضعيفة • وكانت مهمتها الاولى الجهاد

---

(٢٣٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٦٠٧ ـ ٦٠٩ •

(٢٣٤) عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ، راجع أيضا :

Molmenti, Venice, part. I, p. 117; Lewis, Naval power and Trade, pp. 178 - 179; Cook, studies in the Economic History, pp. 65 - 68.

ضد الصليبيين ، وبدأت ذلك بتوحيد الجبهة الاسلامية • وأمضى السلطان صلاح الدين حوالى خمسة عشر عاما وهو يجاهد مع العرب والمسلمين تارة بالاقناع وأخرى بالقوة من أجل اقامة جبهة اسلامية متحدة تتصدى للخطر الصليبى الماثل • وأمضى فى ذلك وقتا أكثر من الوقت الذى استغرقه فى حصار الصليبيين فى القدس وحطين وعكا . اذ كانت معظم فتوحاته فى عام ١١٨٧ م / ٥٨٣ هـ • وامتدت الدولة الايوبية الى بلاد اليمن لتشمل البحر الاحمر وعدن وباب المندب لاهمية هذا البحر الاستراتيجية والاقتصادية ، وكان اهتمام الايوبيين باليمن يعنى اهتمامهم بالبحر الاحمر كله • وأنشأ الايوبيون فى اليمن الفنادق والقيساريات تدعيما للنشاط التجارى • ويفهم من ذلك مدى اهتمام المسلمين ، وخاصة فى العصرين الايوبى والمملوكى ، بتلك الجهات ، وذلك بسبب حاجتهم الدائمة الى المال الذى يستغل فى الجهاد ضد الصليبيين وأعداء المسلمين (٢٣٥) •

ومع ازدياد النشاط العسكرى الايوبى ضد الصليبيين ، كان اهتمامهم أيضا بالتجارة من أجل الكسب ومحاولة الحصول على تأييد القوى التجارية الايطالية ومن بينها البندقية بالوقوف الى

---

(٢٣٥) ابن أيبك : درر التيجان ورقة ٤٩٣ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢١ لوحة ٦٤٧ ـ ٦٤٨ ، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ٤٥ ، ٤٧ ـ ٤٨ ، سرهنك : حقائق الاخبار جـ ٢ ورقة ١٥٣ ، السلامى : مختصر التواريخ ورقة ٥٨ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ ، ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٦ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٨ ـ ٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨٧ •

Youssif, J. N., Arab awakening during the Crusades, p. 20;
Cook, Studies in the Economic History, pp. 68 - 69.

جانب مصر الايوبية أو على الاقل البقاء على الحياد فى الصراع بين الطرفين الصليبى والاسلامى ٠

لقد كانت التجارة بالنسبة للبندقيــة هى المصدر الاسامى للثروة ، وهــى سر عظمتها ٠ ولذلك كانت التجــارة والسفن المسيحية اللاتينية تتردد على ميناء الاسكندرية ذهابا وعودة فى أيــام صلاح الدين الايوبــى ، رغــم الحروب المستمرة بــين الصليبيين (٢٣٦) ، كما كان لهم فى نفس الوقت نشاط تجارى وامتيازات ومستعمرات فى الشرق اللاتينى (٢٣٧) ٠

واهتمت مصر فى العصر الايوبى بعقد معاهدات مع البنادقة لاهداف سياسية وعسكرية وتجارية ٠ وحرص صلاح الدين منذ بداية عهده فى مصر على اقامة علاقات طيبة مع البندقية ، وذلك تدعيما للصلات التى كانت قائمة مع الدولة الفاطمية من قبل ٠ وقد وضح ذلك فى رسائله التى وجهها الى الخليفة العباسى مشيرا الى دور البنادقة فى التجارة فــى مصر وخاصة تجــارة المــواد

---

(٢٣٦) سرهنك : حقائق الاخبار ج ٢ ورقة ١٥٦ ، أرشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٢٧٠ ، سعيد عاشور : النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى ص ١١٨ - ١١٩ ، العرينى : مصر فى عهد الايوبيين ص ١٨٠ ، وراجع أيضا :

Brown, Venetian Republic, pp. 35 - 36, 44 - 45;
Heyd, Histoire du Commerce, vol. I p. 399;
Atyia, Crusade, Commerce and Culture, pp. 170 - 171.

(٢٣٧) سعيد عاشور : النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى ص ١١٩ ٠ وانظــر أيضا :

Bury, The Cambridge Medieval History, vol, 5, pp. 312 - 313, 329.

الحربيــة ، كما أن البنادقــة حرصوا مــن ناحيتهم عــلى توثيق علاقاتهم مع صلاح الدين للمصالح المشتركة بينهما ٠

ولمــا آل الحــكم الى الملك العــادل شقيق صلاح الدين كان سياسيا بارعا ومجاهدا صادقا حاول أن يصل الى ما يريد بالسلم ان أمكن ذلك ٠ وبذل من أجل ذلك مساعى كثيرة لعقد معاهدات مع البنادقة ، لان دورهم فى الحروب الصليبية كان خطيرا وخاصة فى الحرب الصليبية الرابعة .

وكان الملك العادل قد أغرى الدوج البندقى بتحويل الحملة الصليبية الى جهة أخرى غير مصر ، ودفع رشوة مالية وقدم لــه بعض الهدايا والاغراءات بالامتيازات التجارية فى مصر وذلك بهدف افساد خطة الصليبيين وحتى تتخلى البندقية عن مساعدتهم ٠ وذكر أن الدوج هنرى داندولو أرسل سفارة الى القاهرة تمكنت من عقد اتفاق مع السلطان العادل وأوضح السفراء البنادقة أن الدوج صديق مخلص للسلطان الايوبى ٠

وبينما كان الصليبيون ينتظرون بفارغ الصبر التقدم نحو مصر لاحتلالها ، تمكن السفراء البنادقة فى ٣١ مايو ١٢٠٢ م / ٧ رمضان ٥٩٨ هـ من الانتهاء من عقد اتفاق أو معاهدة تجاريــة حقيقية مع الملك العادل تضمنت امتيازات كثيرة لهم بحيث أعطتهم حيا فى الاسكندرية ، كما وعدهم السلطان بالامان على أنفسهم وبضائعهم وســلامتهم فى بــلاده ٠ وتضمن الاتفاق توفير الامان للحجاج المسيحيين الذين يذهبون الى الاراضى المقدسة عن طريق البنادقة ٠ ثم ذهب أحد الامراء الايوبيين الى البندقية من أجل التصديق عــلى المعاهدة ٠ وكانت تلك الامتيازات والوعود من

السلطان العادل هي التى قررت مصير الحملة الصليبية الرابعة ٠ وعلى الرغم من ذلك فان المصادر العربية والاجنبية المتوفرة لدينا لم تمدنا حتي الآن بنص كامل لتلك المعاهـدات وانما اكتفت بالاشارة لاهم ما تضمنته من بنود (٢٣٨) ٠

والمعروف أن تحويل البنادقة دفة الحملة الى القسطنطينية بدلا من مصر كان بسبب عدم رغبتهم فى غزو مصر ٠ وجنى البنادقة نتيجة ذلك امتيازات تجارية وعلاقات صداقة أفادت الطرفين فى تحقيق الثراء والكسب المادى ٠ فحصلوا عـلى فندق آخر فـى الاسكندرية كما أمر السلطان عمال الجمـارك بالاعتدال مـع تجـارهم عند تحصيل الجمـارك ، وتشجيع تجارتهم والسماح بالسفر وقتما رغبوا فى كل بلاد مصر ٠ بمعنى أنه أصبح مـن حقهم التجول فى كل البلاد المصرية والمتاجرة معها فى حـين لم يسمح لباقى الجاليات الاجنبية الاخرى بذلك . رغم أن بعض الكتاب قد شككوا فى صحة هذه الاتفاقية وتاريخها فيرى بعضهم أنها كانت فى عام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ ، بينما يرى البعض الآخر انهاعقدت فى مايو ١٢٠٢ م / شوال ٥٩٩ هـ ، الا أن أحوال مصر الاقتصادية والسياسـية فى أواخـر القرن السادس الهجـرى (أخريات القرن الثانى عشر الميلادى) كانت فعلا سيئة ، هذا فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الصليبيون الاستعداد للتحرك يهدف احتلالها ٠ ولذلك نرى أن المعاهدة والمراسلات التى أشرنا اليها قد تمت بين الملك العادل الايوبى والبنادقة فى هذه الفترة ، أى خلال الحملة الصليبية الرابعة ، فى محاولة من الملك العادل لابعاد الصليبيين عن غـزو مصر ٠ ولا يمكن للسلطان أن يزيد مـن

(٢٣٨) Hodgson, The Early History of Venice, p. 429.

الامتيازات والاغراءات للبنادقة الا اذا كان مضطرا الى ذلك ، فى وقت ازداد فيه احتمال غزو مصر بواسطة الصليبيين وخوف السلطان على ضياع البلاد وهلاك العباد • كل ذلك دفعه الى تبادل السفراء مع الدوج فى البندقية كما استقبل سفراء البنادقة فى القاهرة وعقد المعاهدة المذكورة معهم لانقاذ مصر من خطر الحملة الرابعة • كما أن انصراف الحملة فعلا عن مصر دليل على صدق هذا الاتفاق • أما ما جرى عام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ وقبله فانه كان من قبيل التأكيد والتجديد لتلك المعاهدة ، لان طبيعة العصر كانت تدعو الى القلق والاضطراب ، فكان الملوك والسلاطين يجددون التعهدات سنة بعد أخرى (٢٣٩) •

ومما يدل على رغبة الملك العادل فى مسالة الصليبيين فى هذه الفترة أنه فى عام ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م عقد اتفاقا مع الصليبيين فى الشام وتقررت الهدنة بموجبه مدة واشترط الصليبيون على العادل بأن تكون مدينة يافا للصليبيين مع مناصفات اللد والرملة ، فأجابهم الملك العادل الى ذلك ، وما من شك ان ذلك دليل ضعف وتدهور الاحوال فى مصر فى ذلك الوقت مما دفع حاكمها الى تقديم بعض التنازلات • وهذا أيضا

(٢٣٩) ابن أيبك : كنز الدرر جـ ٧ ورقة ١٣٦ ـ ١٣٩ ، ابن الساعى الخازن : الجامع المختصر جـ ٩ ورقة ٤٧ ـ ٥٠ ، الملوانى : تحفة الاحباب لوحة ٧٨ ، العمرى : ذخيرة الاعلام ورقة ١٢٤ ، الذهبى : دول الاسلام ورقة ١٦٢ ـ ١٦٣ ، العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٨ ، المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ٢٩ ـ ٣٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٧٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦ ، البغدادى : كتاب الأفادة والاعتبار ص ٥٨ وراجع أيضا :
Hodgson, The Early History of Venice, pp. 432 - 434.

دليل آخر يعزز عقد اتفاق الملك العادل مع البنادقة فى مايو ١٢٠٢ م / شوال ٥٩٩ هـ ، ثم تجديده بعد ذلك بسنوات ست (٢٤٠) .

ففى عام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ عقدت اتفاقية بين الملك العادل والبندقية حصل بموجبها على امتيازات تجارية فى الاسكندرية وفى وادى النيل وذلك مقابل تعهد البندقية بمنع أى هجوم يقوم به الصليبيون على مصر . وخصوصا وان البابا أنوسنت الثالث كان لا يزال يدعو الى حرب صليبية ضد المسلمين . وترتب على ذلك خروج حملة الاطفال عام ١٢١٢ م / ٦٠٩ هـ (٢٤١) وهذا يدعم الرأى القائل بأن الملك العادل كان يريد تشجيع البنادقة واغرائهم بالامتيازات من وقت الى آخر لان الحملات الصليبية كانت لا تنقطع كأمواج البحر كلما انتهت واحدة قامت الاخرى لتدركها ، خاصة وان تركيز الصليبيين أصبح على مصر بعد أن شعروا بمركزها الحيوى بالنسبة للمسلمين فتوالت الحملات الخامسة والسادسة والسابعة تريد تحقيق هذا الهدف (٢٤٢) .

واذا كانت التجارة فى العصور الوسطى تقوم على الاسفار

---

(٢٤٠) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٦٤ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢٤١) سبق أن أشرنا الى ذلك بالتفصيل فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

(٢٤٢) الفيومى : نثر الجمان ورقة ١١ - ١٢ ، مرعى المقدسى : نزهة الناظرين ورقة ٢٢٥ ، بامخرمه : قلادة النحر ج ٣ لوحة ٨٢٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة ١٠٤ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة ٩٨ . العمرى : ذخيرة الاعلام ورقة ١٢٥ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٧٤٨ - ٧٥٠ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ و ٢٠٦ وانظر أيضا :

Kantorowicz, Frederick the Second, pp. 182 - 188;

Lane - poole, A History of Egypt; pp. 217 - 218.

والرحلات الطويلة ، مع ما يحيط بها من مخاطر الطريق والتعرض للقرصنة وأهوال البحر وسوء الاحوال الجوية أو الاعتداء من قبل البلاد التي يمر التجار بها ، يمكن القول ان الرحلات التجارية كانت عبارة عن مغامرات يقوم بها الابطال من أجل الكشف عن مصادر الثراء والمتاجرة فيها . ونسمع عن التاجر البندقي مارانورومانو Marano-Romano الذى أمضى سنوات طويلة فى الشرق البيزنطي ثم قفل عائدا الى البندقية فى عام ١١٦٩م/٥٦٤هـ، وبقى بها حتى عام ١١٧١م / ٥٦٧هـ عندما ساءت العلاقات بين البندقية والامبراطورية البيزنطية وصادرت الدولة البيزنطية ممتلكات البنادقة وأموالهم وتعرضوا للقتل والسلب والسجن . فنشط هذا التاجر فى انقاذ التجار من ابناء بلاده وذلك بنقلهم فى سفنه الخاصة، وقد فقد عددا من سفنه خلال عمليات الانقاذ . واستغرق العمل ثلاث سنوات من أجل استعادة كيانه وقوته، وفى عام ١١٧٣م / ٥٦٩ هـ بدأ ممارسة نشاطه التجارى من جديد . وسافر الى الاسكندرية ومعه سفن تحمل خشبا باعه هناك مقابل حصوله على الفلفل والبهارات . وفى عام ١١٧٧ م / ٥٧٣ هـ نظم هذا التاجر رحلة تجارية من البندقية الى الاسكندرية ، واعتبارا من عام ١١٧٩ م / ٥٧٥ هـ جعل رحلاته الى مصر وسورية وفلسطين واتسعت أعماله في عام ١١٨٤ م / ٥٨٠ هـ وبنى سفنا جديدة كبيرة الحجم ، ومنذ عام ١١٩٢ م / ٥٨٨ هـ بقى فى البندقية وأرسل ابنه المسمى جيوفانى Giovanni نيابة عنه لقيادة رحلاته التجارية . فتحرك هذا الابن الى الاسكندرية فى عام ١٢٠٠ م / ٥٩٦ هـ فى رحلة تجارية بينما توفى والده فى عام ١٢٠١ م / ٥٩٧ هـ (٢٤٣) .

---

(٢٤٣) Cambridge Economic History, vol, 3, pp. 65 - 66.

وكان البنادقة يرسلون الاساطيل التجارية الى جهات عديدة وفي كل عام يرسلون حوالى خمسمائة سفينة تجارية فى الرحلة الواحدة . واذا عرفنا ان رحلاتهم الى مصر والشام والبحر الاسود والامبراطورية البيزنطية وشمال افريقيا والى انجلترا وبلاد الفلمنك كانت سنوية ، اتضح لنا مدى اتساع تجارتهم وازدياد مغامراتهم (٢٤٤) .

لقد كانت التجارة تجرى فى عروق البنادقة . ويكفى أن أحد الرحالة البنادقة وصل الى الصين فى الشرق الاقصى حوالى عام ١٢٥٦ م / ٦٥٤ هـ ومن أشهرهم ماركوبولو Marco Polo وابنه نيقولا وعمه ماتيو الذين استطاعوا أن يصلوا الى الشرق الاقصى عن طريق الشمال واختلطوا بالتتار وأمكنهم العودة الى أوروبا بعد أن شاهدوا كل ساحل الصين والهند ثم البحر الاحمر ومصر . ولما رجعوا الى البندقية رفض أصدقائهم التعرف عليهم لان أقاربهم أو ورثتهم أعلنوا أنهم ماتوا ، وخصوصا أنهم عادوا الى البندقية بعد أن غلبت عليهم صفات التتار فى الملبس واللغة كما ظهروا بمظهر الفقراء عند وصولهم ، فلم يجدوا تقديرا أو احتراما، وما أن شقوا ثيابهم التتارية وتدفقت منها اللالىء والمجوهرات حتى أقبل عليهم أقاربهم ومعارفهم يحيونهم بحرارة (٢٤٥) .

---

(٢٤٤) Okey, Venice and its story, p. 104.

(٢٤٥) Bury, History of the Middle Ages, pp. 318 - 319; Asheily, Medieval Civilization, pp. 477 - 478; Poias Perose, Travel and Discovery, pp. 14 - 16; Newton, Travel and Travellers, pp. 132 -133 .

واذا كنا نسوق هذه الرواية فللتدليل على أن حياة البندقية وشعبها كانت فى التجارة والبحار . أما عن صفات التجار البنادقة والمسلمين فى هذه الفترة ، فان التاجر كان يحتاج الى نوع من المهارة فى الاعمال ، وان يتوقع القتال أو النزال أو مواجهة الاخطار فى البحر ، ويحتاج الى شيء من الادب واللباقة فى الحديث والمعاملة وان يكون حذرا فى أعماله التجارية ولا يشترى أية بضاعة قبل أن يتم فحصها جيدا ويعلم صفاتها وحالتها وأنواعها . وعليه أيضا اذا ما حل فى البر أن يعيش حياة طيبة وأن يذهب الى الفنادق الجيدة دون أن ينهمك فى الشراب أو الانغماس فى حياة اللهو أو التبذير كما ينصح أيضا بالبعد عن العاهرات أو الدخول فى عراك أو مشاجرة أو لعب النرد لان ذلك يضر بتجارته ويسيء الى سمعته ، وعليه أيضا أن يعرف اللغات الاجنبية للتفاهم مع البلاد التى يذهب اليها ، وعليه ألا يترك دراسة أو معرفة القانون وملاحظة الجمارك المحلية وما يطرأ عليها من تغيرات ، وان يلم ببعض الحساب وعلم الفلك وكذلك بعض المعلومات فى الرسم والتخيل ثم كيف يقرأ الانواء أو أن تكون له دراية فى معرفة النجم والانواء ، لان ذلك هام جدا بالنسبة للملاحة .

ومن المرغوب أيضا أن يبيع بسرعة وبسعر معقول لكى يعود بسرعة لان ذلك يشجع على التجارة والربح ويساعد على اختصار الوقت واستغلاله فيما يعود عليه بالنفع . واذا كان التاجر يملك سفينة فينبغى عليه أن يطليها فى كل خريف للمحافظة عليها من التلف ، وان تكون أدوات السفر والابحار مثل الحبال جاهزة معه للتحرك فى الربيع ، وأن يتأكد من أن يعود الى بلاده بنهاية الصيف . كما ينبغى ألا يساهم فى شراء سفينة الا اذ كانت جيدة .

والتاجر الناجح ينبغى عليه أن يستثمر ربحه فى شركات ، ولكن من الواجب أيضا أن يكون حريصا فى اختيار شركائه لان هذه السياسة سوف تمكنه من اكمال رحلاته وتضمن له ربحا وفير وتجارة رائجة لن تبور • وأن يعلم أن السلامة والامان فى البر أكثر منهما فى البحر (٢٤٦) •

وكان التاجر البندقى نشيطا ، فيه صفات الرجوله والشجاعة والمهارة ، لا يضيع الوقت الا فيما ينفع • وان كل الاخطار والرحلات التى تبدو مغامرات ومخاطرات فى نظر البحارة المحدثين ، كان البنادقة يقومون بها من أجل شرف بلادهم وبكل ثقة فى رجالهم • وكانوا نشطين صادقين طائعين ، وكان رجال التجارة هؤلاء ومن يعملون فى السفن من الاحرار وكانوا يسمون بأسماء تبعث على الامل والفأل الحسن والحظ السعيد (٢٤٧) • والخلاصة أن صفات الفيلسوف والتاجر ورجل الدولة كانت تتجمع فى شخص التاجر البندقى (٢٤٨) .

وكان التجار المسلمون يحرصون على الصدق فى القول وضبط الموعد والامانة وعدم الغش • ويتفق التاجر البندقى مع التاجر المسلم فى الصفات المذكورة •وبالرغم من هذه الصفات كان التجار يتعرضون للسجن والمصادرة والتضييق فى البلاد التى يمرون بها ويتاجرون معها ، وذلك وفقا للظروف الموضوعية فى موقف ما ، كما حدث عندما ساءت علاقات البندقية مع بيزنطه فى

---

(٢٤٦) Molmenti, Venice, part, I, pp. 135 - 136; Cambridge Economic History of Europe, vol. 3, p. 48.

(٢٤٧) Molmenti, Venice, part, I, pp. 135 - 136.

(٢٤٨) Molment, Venice, part, I, p. 137.

العصر الايوبى وخاصة سنة ١١٧١ م / ٥٦٧ هـ (٢٤٩) ·

أما بالنسبة لطرق التجارة في العصور الوسطى فانها تمثل دعامة رئيسية في النشاط التجارى والازدهار لكل من البندقية والدولة الايوبية · كما أن وجود البندقية في موقعها الجغرافي في شمال ايطاليا ،وموقع الدولة الايوبية فى مصر على أهم طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ـ كل ذلك يدفعنا الى الحديث عن أهم الطرق التى سلكتها التجارة البحرية في العصور الوسطى·

فاذا أدركنا أن البندقية كانت ترسل عددا من الاساطيل التجارية الى مختلف الجهات ، أمكننا أن نتصور أن الطرق البحرية ليست طريقا واحدا وانما كانت طرقا عدة أهمها :

١ ـ الطريق من البندقية الى البحر الاسود وذلك للاتجار مع الروس والتتار ، وهو خارج عن نطاق موضوع البحث ·

٢ ـ الطريق من أوروبا الى الشرق عن طريق سوريه ويبدأ من البندقية الى سورية وذلك للاتجار مع سورية وآسيا الصغرى ·

٣ ـ طريق التجارة من البندقية عبر بحر الادرياتيك الى الامبراطورية الرومانية الشرقية الىالقسطنطينية وموانيء بلاد الاغريق ورومانيا ·

٤ ـ الطريق البحرى من البندقية الى مصر ·

٥ ـ الطريق البحرى من البندقية الى بلاد الفلمنك ويصل الى أسبانيا ويمر بمضيق جبل طارق الواقع قرب ساحل مراكش ، ثم يمر بأعلى شواطيء البرتغال وفرنسا ويصل

---

(٢٤٩) Pirenne, Economic and Social History of Europe, p. 92, Heyd, Histoire du commerce, part, I, pp. 404 - 405.

الى انجلترا ٠

٦ ـ الخط المتصل من أوروبا الى الشرق عن طريق انطاكية ٠

والطريق البرى من غربى آسيا الى الشرق وكان يبدأ من بلادالاندلس ثم الى طنجه في المغرب عبر جبل طارق ثم عبر شمال أفريقية حتى يصل الى طرابلس وبرقه ثم مصر ومنها يتجه الى بلاد الشام مارا بالرملة ودمشق ثم الى العراق فالكوفة وبغداد والبصرة ثم الى بلاد فارس مارا بالاهواز ثم كرمان ثم الى الهند والصين (٢٥٠) ٠

وكانت موانيء مصر فى العصر الايوبى ذات أهمية خاصة للتجارة بين الشرق والغرب ، حيث تنقل منها التجارة الآتية من أوروبا الى البحر الاحمر ٠ وكانت آيلة والقلزم وجده من أهم الموانيء التجارية الواقعة على البحر الاحمر وعن طريقها كانت تنقل السلع من الغرب الى الشرق ٠ كما اشتهرت عيذاب وقوص وعدن بتجارة البحر الاحمر ، بالاضافة الى جده ٠

وتسلك التجارة طريق البحر بعد خروجها من عدن الى بحر العرب في اتجاه الشرق وتأخذ طريقا من اثنين : اما أن تسير الى خليج عمان ثم عبر الخليج العربى مارة بمضيق هرمز والى البصرة ثم عبر دجله الى بغداد ومنها الى بلاد الشرق عن طريق قزوين الى

---

(٢٥٠) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٨ ـ ٦١٠ ،
Molmenti, Venice, part, I, p. 134; Hodgson ,The Early History of Venice,pp. 258 - 259; Bloch, Feudal Society, pp. 65 - 66.

بلاد الهند والصين واما أن تسير من عدن الى بحر العرب ثم الى الهند والصين عن طريق المحيط الهندى ٠

فاذا سألنا عن طريق العودة من الشرق الى الغرب نجد أن التجارة كانت تسلك نفس الطريق ٠ فهناك طريق البر من الصين والهند شمالا الى بغداد ثم أنطاكية وآسيا الصغرى ثم البحر المتوسط الى أوروبا والبندقية ٠

وهناك أيضا طريق البحر من الصين والهند الى بحر العرب ثم الخليج العربى ثم بغداد ثم ساحل الشام وآسيا الصغرى وبعضها يتجه الى مصر ٠ وأما أن يستمر من الهند والصين الى عدن والبحر الاحمر ثم القلزم ثم الفرما ثم الاسكندرية ومنها الى أوروبا عن طريق البندقية والاساطيل التجارية الاوروبية الاخرى (٢٥١) ٠

وأما بخصوص المنطقة بين القلزم والفرما فكانت تحمل البضائع على ظهور الابل ودواب الحمل الى الفرما وبالعكس ٠ ثم تقوم الاساطيل التجارية بنقلها فى البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى وخليج العرب (٢٥٢) ٠

---

(٢٥١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ ٠
Hodgson, The Early History of Venice, p. 154;
Atyia, Crusade in the Later Middle Ages. p. 115 note 3.

(٢٥٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، وانظر أيضا .

=

وأما استخدام طريق آسيا البرى الذى يمر بالبحر الاسود وسوريه حتى السند والهند والصين فكان كثير التكاليف وشاقا ولا يتناسب الا مع المواد والادوات الثمينة • ولذلك كان التجار يرتادون طريق البحر عبر سورية من أجل الحصول على التجارة الشرقية (٢٥٣) .

وكانت البندقية وجنوه قد نجحتا فى احتكار تجارة أوروبا مع آسيا وذلك منذ القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) • وكانت البندقية تحتكر تجارة طريق مصر الى الشرق الخاص بالبهارات والتوابل ، وهذا جعل البندقية تحرص على تحسين علاقاتها مع الدولة الايوبية التى نشطت هذه التجارة فى عهدها • وهذا الطريق يبدأ من الصين حتى يصل الاسكندرية عن طريق سيلان والبحر الاحمر • وأبقت البندقية هذا الطريق فى يدها بينما احتكرت جنوه طريق الحرير العظيم ، ويعتمد على القوافل البرية من الصين الى البحر الاسود الى بغداد ثم الى سوريا ثم الى آسيا الصغرى وبعدها الى القسطنطينية (٢٥٤) •

=

رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩٥ - ١٩٦ •

(٢٥٣) Pirenne, The Tides of History, vol, 2, p. 379; Poies Penrose, Travel and discovery, p. 17;
Atyia, Crusade in the Later Middle Ages, p. 115 note 3.

(٢٥٤) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩٥ - ١٩٦ وراجع :
pirenne, The Tides of History, vol, 2, p. 379;
Atyia, Crusade Commerce and Culture, pp. 173 - 177;
Newton, Travel and Travellers, p. 109.

ولقد استطاع التجـار المسلمون احتكار التجارة مع الهنـد والصين عن طريق البحـر الاحمـر ونظموها أحسن تنظيم حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) • وكانت كاليكوت المكان الرئيسى فى سـاحل الهند الغربـى الى الشرق منها ملقا التى كانت تحت حكم المسلمين أيضا وكانتـون داخل بلاد الصين • كما وصلوا الى جـزر الهند الشرقية حيث البهارات التى كانت تشحن بواسـطة السفن الاسـلامية • والى الغرب من كاليكوت كانت هرفر ثم عدن وطريق عـدن البحـر الاحمر كان أكثر أهمية لانها تقع عند مدخل البحر الاحمر المؤدى الى السويس ثم الى الاسكندرية حيث كانت البندقية فى مقدمة الدول التجارية التى تهتم بهذا الطريق وتجارته (٢٥٥) •

تلك هى أهم طرق التجارة البحرية ما بين الشرق والغرب فى هذه الفترة من العصور الوسطـى • ويستتبع ذلك الحديث عن الموانىء والمراكز التجارية الهامة التى كانت تشكل هذه الطرق الملاحية الدولية التى أرتبطت ارتباطا وثيقا بالعلاقات البندقية الايوبية •

ومن الموانىء التجارية الهامة فـى مصر الايوبية مينـاء الاسكندرية وهى من أعظم الثغور وأقدمها وقـال فيهـا سـعد بن مماتى الوزير الايوبى « الاسكندرية أعظمها قدرا (الثغور) وأفخمها أمرا وأكثرها ارتفاعا وهى تشتمل على عدة معامـلات منها ما ذكر مثله فى غيرها فلا حاجة الى ذكره فـى فصلها مثـل

---

(٢٥٥) Penrose, Travel and Discovery, pp. 55 - 56.

الزكاة والجـوالى ودار الضرب وواجب أهل الذمـة والمواريث الحشرية خشية من التكثير وأنفـة لهـذا الكتاب من الشبه الى لتكبير » (٢٥٦) ٠

وقال مؤرخ آخر في وصفها « ثم مدينة الاسكندرية العظيمة الجليلة لا توصف سعة وجلالة وكثرة آثار الاولـين ومن عجائب الآثار التى بها المنارة التى على ساحل البحر عـلى فوهة الميـنـاء الاعظم ٠٠ » (٢٥٧) واما المنار التي بها فهو علامة للمدينة « ولا يزال منار الاسكندرية يهدى السفاين الغادية والرائحة يشاهد عن بعد مائة ميل نهارا وفى الليل ينبعث منه نـور يهتدى بـه الملاحون » (٢٥٨) ٠

وعن مكانتها التجارية العالمية ذكر أنها : « الاسكندرية أجمل ثغور الديار المصرية وأعظمها شأنا فهى تطل عـلى نحر بحر الروم واليها تهوى ركائب التجار فى البر والبحر وتمير من قماشـها جميع أقطار الارض وهى فرضة بلاد المغرب والاندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام ٠ أما أهلها فهم عـلى يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدو الطارق » (٢٥٩) ٠

---

(٢٥٦) سعد بن مماتي : قوانين الدواوين ص ٣٢٥ ، المقدسي : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٧ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤١ ـ ١٤٢ ٠

(٢٥٧) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ـ المجلد السابع ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ٠

(٢٥٨) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١١٣ ، ناصر خسرو : سفرنامه ص ٤٣ ـ ٤٤ ٠

(٢٥٩) ميخائيل عواد : المآصر فى بـلاد الروم والاسـلام ص ٤٨ ـ ٥١ ، ابن بطوطه : الرحلة ج ١ ص ٩ وراجع أيضا :

=

وذكر غرس الدين بن خليل الظاهرى عندما تحدث عن الثغور الاسلامية فقال : « وهو أجل ثغور الاسلام وأعظمه ويشتمل على سورين محكمين بها عدة أبراج يحيط بها خندق يطلق منه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة ٠ وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل باب منها ثلاثة أبواب من حديد وبأعلى الابراج مناجيق ومكاحل وفى وقت الغروب يعلق على كل شرافة قنديل ، وهذا الثغر فى غاية التحصين وعلى كل برج منه أعلام وطبلخاناه وأبواق وحرسيه يشهر ذلك وقت الغروب وهى مدينة مركبة على العمد وشبهها بعضهم لرقعة الشطرنج لان جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها الى بعض وبالثغرة قصر السلاح مملوء بالعدد المتنوعة حتى أن لو جاء اليه أهل الديار المصرية لكفاهم فى اللبوس ٠٠٠ » (٢٦٠) ٠

وكان السلطان صلاح الدين شديد الاهتمام بالاسكندرية ، فقد زارها أربع مرات فى أعوام ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م وكذلك فى عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م وعام ٥٧٢ هـ / ١١٧٧ م وعام ٥٧٧ هـ ١١٨١ م ٠ واختصها برعايته وعمر أسوارها وحصنها واعتنى بالاسطول فجعل له ديوانا خاصا عهد بادارته الى أخيه العادل وذلك

=

Pirenne, The Tides of History, vol, 2, p. 80; Lewis, Naval power and Trade, pp. 167 - 168; Atyia, Crusade Commerce and Culture, p. 181.

(٢٦٠) غرس الدين بن خليل : فريدة كشف الممالك ص ٣٩ ـ ٤٠ ، وانظر المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٦ ـ ١٩٧ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان المجلد الاول ص ٢٥٦ ـ ٢٦٤ ٠

فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ٠ كما اهتم بها خلفاء صلاح الدين اعتقادا وايمانا منهم بأهميتها التجارية والعسكرية ، وانها ثغر مصر الاول ودار رباط وجهاد وقاعدة حربية للغزو ولامداد ثغور الشام بالسلاح والعتاد والرجـال اذا اقتضى الامـر ذلك وقت الشدائد (٢٦١) ٠

ولقد ساد الهدوء مدينة الاسكندرية طوال العهد الايوبى فلم تقع فيها خطيرة كما كان الحال فى العهد الفاطمى باستثناء حركتين لا أهمية لهما أحداهما وقعت سنة ٥٨١ هـ / ١١٨١ م عندما هاجم العوام الميناء ونهبوا ما به من السفن الرومية ، وقد تمكن المسئولون من القبض عـلى عـدد منهم ٠ وقـدم المظفر تقى الدين عمر خصيصا لتفقد الحالة فى الاسكندرية بعد هذا الحادث ٠ وأما الحادثة الثانية ، فقد كانت فى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١٢ م عندما اجتمع بالاسكندرية ثلاثة آلاف تاجر من تجار الفرنج وقاموا بثورة ضد أهل المدينة وحاولوا الاستيلاء عـلى المدينة ٠ ويفهم من ذلك أن التجارة كانت تخدم الامور السياسية والعسكرية والجاسوسية ٠ ولكن الملك العادل أبابكر سـار الى الاسكندرية وقبض على التجار الثائرين واستصفى أموالهم وزج بهم فى السجن (٢٦٢) ٠

(٢٦١) الاصفهانى : الفتح القسى ص ٤١٩ - ٤٢٠ ٠ أنظر أيضا سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ص ٢٣٣ - ٢٤٠ ، ٢٤٣ - ٢٤٥ ، الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية ص ٦١ - ٦٥ ، ٧٢ - ٧٣ ، الشيال : تاريخ مصر الاسلامية ج ٢ ص ٥٢ - ٥٤ ٠

(٢٦٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٥ - ٧٣ ٠ أنظر أيضا : سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ص ٢٧٠ ٠

ومما تقدم نرى أهمية ثغر الاسكندرية للتجارة الدولية في العصور الوسطى وخاصة في العصر الايوبي وكيف كانت تحرص الجاليات الاجنبية وفي مقدمتها البنادقة على أن يكون لها في المدينة جالية تجارية لها حقوقها وامتيازاتها التجارية . ومن ثم كان اهتمام الدولة الايوبية بالاسكندرية وحمايتها من كل خطر . وبيان أهميتها يعني في نفس الوقت مدى الضرر الذى يحدث للدولة الايوبية لو أخذ الصليبيون هذا الميناء ، كما يدل على اهتمام الاعداء به وهو الميناء الرئيسى للبنادقة فيمصر ، وأهم مركز تجارى لسلع الشرق الاقصى وبه يتم التبادل التجارى مع البنادقة وغيرهم من التجار . ومن هنا كان اهتمام البنادقة بالاسكندرية من ناحية ومحاولاتهم باستمرار توثيق علاقاتهم مع الدولة الايوبية من ناحية أخرى .

ومن الثغور والموانىء الهامة في مصر على ساحل البحر المتوسط دمياط التي تقع شمال ثغر الاسكندرية « وهو ثغر جليل يمشى في بساتينه من أولها الى أن يصل المدينة بريد . والثغر المذكور على جانب بحر النيل بالقرب من البحر المحيط وهو من أعظم المين يرد اليه كثير من المراكب وبه الاسماك الطيور مالا يوجد في غيره قط حتى أنه مضمون ويباع صيفا وشتاء ويجلب منه الى سائر الاقاليم بالديار المصرية طريا وقديدا وهناك برجان أحدهما بالثغر المذكور والآخر تجاه ذلك بالبر الغربي على بحر النيل والمراكب الواردة تدخل من بين البرجين وهناك سلسلة موضوعة لئلا يدخل مركب الا باذن صاحب الثغر ويعمل فيه

عسكر كثير يجلب منه الى سائر الاقاليم (٢٦٣) .

وكانت فى دمياط تجهز الاساطيل . وقد لعبت دورا هاما فى العصر الايوبى عندما احتدم الصراع الصليبى الاسلامى اذ كانت هدفا للحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة ، وهاجمها الصليبيون مرات عديدة . وقد وصفها المقدسى بأنها « أطيب وأرحب وأكثر فواكه وأحسن بناء وأوسع ماء وأحذق صناعا وأرفع بزا وانظف عملا وأجود حمامات وأوثق جدارات وأقل اذابات » (٢٦٤) .

وكان السلطان صلاح الدين يهتم بدمياط لانها من القواعد البحرية الهامة على البحر المتوسط ، وبها صناعات مختلفة ولها أهمية فى التجارة الداخلية والخارجية على السواء ، وتهتم بها الجاليات التجارية الاوروبية وخاصة البنادقة الذين حاولوا أثناء احتلال الصليبيين لدمياط فى الحملة الخامسة البقاء بها ورفضوا الصلح مع الملك الكامل حتى أرغمهم الصليبيون على الاستجابة للصلح والانسحاب منها ، ذلك أن البنادقة كانوا يهتمون بدمياط

---

(٢٦٣) غرس الدين بن خليل : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٣٥ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١١٧ ، وراجع أيضا : حسنين ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠١ .

(٢٦٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٢ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٤٣ ، ياقوت الحموى : معجم البلدان المجلد الثانى ص ٦٠٢ - ٦٠٦ ، انظر أيضا :
ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ص ٣٨ - ٤٨ ، حسنين ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٠٢ .

من أجل تجارتهم فحسب (٢٦٥) ٠

واما تنيس فهى ذات أهمية حربية وتجارية وثغر هام من ثغور الاسلام فى مصر « وبتنيس مصانع كثيرة موقوفة ، يعطى ماؤها للغرباء وسكانها خمسون ألفا ويرابط حولها دائما ألف سفينة منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان ٠ ويجلب لهـذه الجزيرة كل ما تحتاج اليه ، اذ ليس بها من خيرات الارض شيء ٠ تجرى المعاملات فيها بالسفن لانها جزيرة ٠ ويقيم بتنيس جيش كامل السلاح احتياطيا حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها » ٠ ويصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرها ٠ ٠ وتذهب السفينة من تنيس الى القسطنطينية فى عشرين يوما » (٢٦٦) ٠ وقد وصفها ناصر خسرو بقوله « تنيس جزيرة ومدينة جميلة وهى بعيدة عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها والمدينة مزدحمة وبها أسواق فخمة وجامعـان وقـد بلغ عـدد الدكاكين بهاعشرة آلاف وكان منها مائة دكان عطار ٠ ٠ » (٢٦٧) ٠

---

(٢٦٥) ابن مماتى : قوانـين الدواوين ص ٣٢٧ ، الشيال : تاريخ مصـر الاسلامية ج ٢ ، ص ٥٢ ـ ٥٤ ، ومجمل تاريخ دمياط ص ١٨ ـ ١٩ ، ٦٦ ـ ٦٧ ٠ راجع أيضا :
Eracles, L'Estoire de Eracles, (R.H.C. occ, tome II) p. 342;
King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 192 - 194;
Michaud, Histoire des Croisades, val, III, pp. 472 - 477.

(٢٦٦) ابن حوقل : صورة الارض ص ١٣٤ ، ناصر خسـرو : سفر نامه ص ٣٩ ـ ٤٠ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ ٠

(٢٦٧) ناصر خسـرو : سفرنامه ص ٣٨ ، شيخ الربوة : عجائب الدهر فى

=

ولا شك أن البندقية كانت تهتم بميناء تنيس لمركزها التجارى • ويكفى أن الدولة الايوبية وضعت الاساطيل حولها حماية لها لانها من الاماكن التى يطمع فيها العدو •

وبالاضافة الى الموانىء المصرية الواقعة على البحر المتوسط فان هناك عددا من الموانىء الهامة الواقعة على الساحل الغربى للبحر الاحمر ومن أهمها ميناء عيذاب فى الصعيد « وعيذاب بليدة على شاطىء بحر جدة تعدى منها المراكب المصرية المتوجهة الى الحجاز على طريق ليلة واحدة فى غالب الاوقات ، فتصل الى جده ومنها الى مكة مسافة يوم واحد » (٢٦٨) •

ووصفها ابن جبير فى العهد الايوبى عندما تحدث عن الطريق من قوص الى عيذاب « ورمنا فى هذا الطريق احصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا ، ولا سيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة الى اليمن ثم من اليمن الى عيذاب ، وأكثر ما شاهدنا من ذلك احمال الفلفل ، فلقد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمة • ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء ، انك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وغيرها من السلع مطروحة لا حارس لها تترك بهذه السبل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الاعذار وتبقى بموضوعها الى أن ينقلها

=

البر والبحر ص ٢٣١ ، وانظر أيضا ابن بعرة الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٠١ •

(٢٦٨) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٥٦٥ ـ ٥٧٨ هـ لوحة ٤٩٨ . ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ •

صاحبها مصونة من الآفـات عـلى كثـرة المـار عليها مـن أطـوار الناس (٢٦٩) .

وهكذا يكشف حديث ابن جبير عن ضبط الامن والاطمئنان الذى ساد البلاد المصرية فى العصر الايوبى ، كما يبين أهميـة عيذاب فى تجارة السلع الهندية . واختص أهل عيذاب بالتجارة ونقل الحجاج والعمل على راحتهم . وما من شك فى أن التجار البنادقة كانوا يصلون الى هذا الميناء ويتاجرون فيه وخصوصا فى عهد الملك العادل عندما أعطاهم امتيازات واسـعة تشمل كـل البلاد المصرية .

وكان الغرب الاوروبى يهتم بالبحر الاحمر لتجارته الرابحة وحاول الصليبيون فى أيام صلاح الدين الاستيلاء عـلى البحـر الاحمر لاهميته التجاريـة والاستراتيجية بالاضافـة الى البحـر المتوسط بهدف قطع تجارة مصر مع الشرق الاقصى (٢٧٠) .

وظلت عيذاب على أهميتها التجارية منـذ عصر الفاطميين وحتى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ثم بدأت عدن فى الظهور حتى أصبحت من أهم موانىء العالم (٢٧١) .

---

(٢٦٩) ابن جبير : الرحلة ص ٤٠ ، ٤٤ ، أنظر أيضا : نيقولا زيادة : الرحالة العرب ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢٧٠) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٢٧١) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص ١٢٧ ، ابن بطوطه جـ ١ ص ٣٠ ، ابن مماتى :قوانين الدواوين ص ٣٢٧ ، ابن جبير : الرحلة ص ٤٢ ـ ٤٣ . نقولا زيادة : الرحالة العرب ، ص ٦٥ ، ابن رسته : الاعلاق

=

وميناء السويس يقع على بحر القلزم وهو ميناء أهل مصر الى مكة والمدينة بينه وبين الفسطاط سبعة أيام (٢٧٢) وكان صلاح الدين شديد الاهتمام بالبحر الاحمر لمنع الصليبيين من غزو الحجاز والوصول الى عيذاب وعدن ، ولذلك أنشأ سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م فى السويس برجا يسع عشرين فارسا ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التى يجلب منها الشب الى بلاد الفرنج (٢٧٣) .

وكان نهر النيل هاما فى التجارة وذكره المقرى بقوله « واما ما يرد على الفسطاط من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى فانه فوق ما يوسف ، وبه مجمع ذلك لا بالقاهرة ومنها يجهز الى القاهرة وسائر البلاد (٢٧٤) . وقال المقدسى عن نشاط النيل التجارى .. « وتسير الرفاق اليه من العراق والمشرق ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم تجارته عجيبة ومعايشة مفيدة وأمواله كثيرة لا ترى أحلى من مائة ولا أوطاه من أهله » (٢٧٥) .

ومن موانىء الساحل الفلسطينى ذات الاهمية فى عصر

=

النفيسة ، المجلد السابع ص ٣٣٥ وراجع أيضا :
Cook, Studies in the Economic History, pp. 67 - 68.

(٢٧٢) ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ص ٥٢ .

(٢٧٣) المقريزى : السلوك جـ ٦ ـ القسم الاول ، ص ٧٢ .

(٢٧٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، ميخائيل عواد : المآصر فى بلاد الروم والاسلام ص ٥٣ ـ ٥٦ ،

(٢٧٥) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٩٨ ـ ١٩٩ .

الحروب الصليبية مدينة غزه وهى « مدينة طيبة بين الشام ومصر على طرف رمال مصر قال صلى الله عليه وسلم أبشركم بالعروسين غزة وعسقلان » (٢٧٦) . وهى مدينة من مراسى الشام الهامة بالاضافة الى يافا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس على امتداد الساحل (٢٧٧) .

ومن المراسى الهامة عسقلان ولم تزل فى حكم المسلمين الى أن أخذها الصليبيون وبقيت في أيديهم خمسا وثلاثين سنة الى أن استردها منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (٢٧٨) .

ويلى عسقلان مدينة عكا ولم تزل فى يد المسلمين حتى أخذها الصليبيون فى سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م وبقيت فى أيديهم الى أن استردها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وشحنها بالسلاح والرجال والميرة . ولكن الصليبيين استردوها ثانية عام ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م وقتلوا من فيها من المسلمين وكانت من الموانىء التجارية الهامة وخاصة بالنسبة للبنادقة . وقال عنها الحموى « وعكا هى قاعدة مدن الافرنج ومحط الجوارى المنشآت في البحر كالاعلام مرفأ كل سفينة والمشبهة بعظمتها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطىء الاقدام » (٢٧٩) .

---

(٢٧٦) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢ .

(٢٧٧) ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٦٦ .

(٢٧٨) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢٢ .

(٢٧٩) القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ ، الحموى : دمشق فى العصر الايوبى ص ٤٧ ، ابن جبير : الرحلة ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ، أنظر أيضا : نقولا زياده : الرحالة العرب ص ٧٧ .

ومن المدن الهامة في النشاط التجارى في العصر الإيوبى دمشق ، وخاصة في فترات السلم بين المسلمين والصليبيين وما استتبعها من انتعاش التبادل التجارى بين البنادقة وبنى أيوب . وتقع على طريق القوافل الآتية من الهند وفارس والعراق تحمل بضائع هذه الاقطار الى الثغور الشامية التى كانت تزدحم بتجار البندقية وبيزا وجنوه .

واستفادت دمشق فائدة كبرى من هذه الحركة الاقتصادية التى أوجدتها الحروب الصليبية . وكان للتجار الاجانب فنادق وقصور في الشام لسكناهم ، وكانت سفنهم تغدو وتروح في البحر المتوسط بالتجارة الشامية كما كانت دمشق مستقر القناصل من أجل النشاط الاقتصادى (٢٨٠) .

وكان من أثر انتعاش النشاط الاقتصادى في العصر الايوبى أن ازدهرت الموانىء والمدن سالفة الذكر ، وأصبحت أسواقا رائجة للتجارة الخارجية والمحلية . وكانت الفرما من المراكز التجارية الهامة وسوقا عالمية . وكانت تعتبر مجمع الطرق ومفتاح الديار المصرية من ناحية البحر المتوسط .

ومن أشهر مراكز التجارة أيضا القلزم التى كانت تعيش على تجارة البحر الاحمر . يضاف الى ذلك الفسطاط . وكانت عامرة بالاسواق والتجار . ومما يدل على نموها الاقتصادى وجود الاسواق التخصصية بها ومن أهمها سوق السلاح لبيع القسى والنشاب

---

(٢٨٠) الحموى : دمشق في العصر الايوبى ص ٤١ ـ ٤٢ .

والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح (٢٨١) وسوق المرحليين وهو معمور الجانبين بالحوانيت المملوءة برحالات الجمال واقتابها وسائر ما تحتاج اليه ، فلو أراد الانسان تجهيز مائة جمل وأكثر في يوم لما شق عليه وجود ما يطلبه من ذلك لكثرته عند التجار في الحوانيت بهذا السوق وفي المخازن أيضا (٢٨٢) • وهناك أسواق متخصصة لبيع اللحوم بأنواعها وأخرى خاصة بالشموع واللجم والاجواخ ، وخاصة المجلوبة من بلاد الفرنج لعمل المقاعد والستائر وثياب السروج وغواشيها (٢٨٣) . وهذا يبين مدى النشاط الاقتصادى في العصر الايوبى من حيث ازدهار التجارة وازدياد التبادل التجارى بين الشرق والغرب الذى كانت مصر والبندقية قطبيه •

واذا انتقلنا الى الطرف الآخر وهو البندقية ، نجد أنه كانت توجد فيها أسواق تعقد في بعض الايام من كل أسبوع ، مثل سوق يوم السبت وسوق ريالتو • وكانت هذه الاسواق تزدحم بالتجار من أهالى البلاد والغرباء • وفى سوق ريالتو كانت توجد بضائع الشرق وأصناف مختلفة من الاطعمة تملأ الدكاكين وكأن المدينة في أعياد دائمة لكثرة ما يرى من أسباب الفرح والسرور (٢٨٤)•

---

(٢٨١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٧ ، أنظر أيضا : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٨ ـ ٥٩٩ •

(٢٨٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٥ •

(٢٨٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٤ ـ ٩٦ ، ٩٨ ، راجع :
Cook, Studies in The Economic History of Middle East, pp. 53 - 54, 72.

(٢٨٤) Molmenti, Venice, part, I, pp. 127 - 129.

ولا شك أن الاساطيل التجارية كانت تلعب دورا هاما فـــى تقدم التجارة وازدهارها ذلك أن السفن هـــى وسيلة التبـادل التجارى فهى التى تقوم بنقل البضائع من ميناء الى آخر ومن قارة الى أخرى ، واذا كان البحر والتجارة البحرية فى البندقية يعتبران المصدر الرئيسى لعظمة البندقية ، نتيجة حصولها على ثروة هائلة بالاضافة الى أجرة السفن التى تقوم بنقل الحجاج والصليبيين الى الشرق ، فقد حصلت البندقية على امتيازات لا حصر لها فى البلاد التى كانت تتعامل معها ، كما استفادت من رحلاتها الطويلة خبرة لا تقدر بثمن عن البحـــار كذلك أتقن البنادقة صناعـة السفن وأدخلوا عليها التحسينات لتلائم التوسع التجارى حتى أصبحت لهم شهرة معروفة فى الملاحة والتجارة وصناعة السفن • وكانت سفن الاسطول تصلح للتجارة والحرب لتتلائم مع طبيعة العصر (٢٨٥) •

واهتمت البندقية بتنظيم صناعة السفن لدرجة انها فى بعض الأحيان كانت تصدر الاوامر بمنع أى صانع للسفن من مغادرة البندقية الى خارج البلاد ، بل ومنعه أيضا من التحول الى عمل آخر أو تغيير مكان عمله بدون الحصول على أجازة أو اذن مسبق من الحكومة • كما كان لا يسمح لاحد ببناء السفن فـــى دولــة البندقية بدون أن تكون مطابقة للمقاييس التى أقرتها الدولة لتلائم المشروعات التجارية أو الحربية التى تريدها البندقية • وهذا يدل على أن البندقية كانت ترى أن الاساطيل وصناعتهـا

---

(٢٨٥) Wiel, Venice, pp. 81 - 82; Molmenti, Venice, part, I, pp. 118, 122 - 123;
Okey, Venice and its Story, p. 104.

تعتبر فنا نـادرا وسرا ينبغى المحافظـة عليه • ولذلك حرصت على احتكار هؤلاء الصناع وعدم السماح لهم بالخروج من البلاد للعمل فى جهة أخرى •

كما أن البنادقة أمكنهم جعل الاساطيل صالحة للحرب والسلم كما ذكرنا • لان البندقية كانت في حالـة حرب ما دامت تهتـم بالتجارة البحرية فى الخارج وخاصة فى فترة الحروب الصليبية • وقد وجدت القوة العسكرية البندقية لتدعيم كيانها التجارى . كما أن قوتها التجارية كانت سببا فـى ظهور قوتهـا العسكرية والسياسية بمعنى أنه لا يمكن الفصل بين هذه النواحى الثلاث عند التحدث عن طبيعة الدور البندقي • وكان في امكان البندقية اعادة تنظيم وبناء أسطولها بسرعة واصلاح ما لحق به من خراب نتيجة للكوارث فى البحر أو الحروب ، بمعنى أنه كان لديها الاستعداد لاسترداد مكانتها التجارية والعسكرية والسياسية بسرعة(٢٨٦)•

وكانت الاساطيل التجاريـة بعضها ملكا للدولـة والبعض الآخر ملكا لعامة الناس والتجار • وكانت هذه الاساطيل تسلك طرقا معروفة محددة وثابتة ، ولذلك أقامت البندقية بعض السفن الحربية لحماية الاساطيل التجارية وذلك على نفقة الدولة ، وكان يوجد بهذه السفن التجارية الذخائر والاسلحة والمواد التموينية ، وبها أيضا مزاد علنى للبيع ، وقضاة لمقاضاة التجـار اذا لـزم الامر ذلك • كما أنها تسير وفقا لتعليمات وأوامر ونظـم فـى

---

(٢٨٦) Molmenti, Venice, part, I, pp. 132 - 133;
Hodgson, The Early History of Venice, pp. 250 - 251;
Brown, Venetian Republic, pp. 76 - 77.

التحميل والتفريغ والابحار، لان لهاطاقم مسئول لادارتها(٢٨٧)٠

وكان عدد السفن كبير جدا فى البندقية ، وبالتالى كان عدد الذين يعملون في البحر حوالى ثلث سكان المدينة المذكورة ، بينما يعمل الباقون فى الحرف والتجارة كما استخدم بعض الاجانب فى الاعمال البحرية فى بعض الاحيان وعند الضرورة (٢٨٨) ٠ كما كانت الدولة فى البندقية تقوم بتأجير السفن للناس بعد التعهد بصيانتها والمحافظة عليها ٠ وكان الفرد يحصل على موافقة الحكومة على ذلك بعد أداء اليمين بأنه فى كل الاحوال سوف يرجع الى البندقية ثانية وأنه سوف يسلك الطرق المعروفة الموصوفة والمأمونة ٠

وكانت السفن التابعة للحكومة تقسم الى قوافل ، كل قافلة مكونة ما بين ثمانية أو عشرة سفن ٠ ولكل قافلة قائد مسئول عن سلامة قافلته حيث كانت البحار مليئة بقراصنة البحر ولا يوجد أمان مطلق فى أى ميناء ٠ وقد يتعرض راكبوا البحر للسلب والنهب أو القتال فى أى مكان وزمان (٢٨٩) ٠

وتطورت صناعة السفن فى البندقية تبعا للتوسع في التجارة وخاصة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى (أواخر القرن السادس الهجرى) ، وفى عهد الدوج زيانى بعد احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م زادت حمولة السفن من مائتى ألف

---

(٢٨٧) Molmenti, venice, part I, p. 133.

(٢٨٨) Wiel, Navy of Venice pp. 327 - 328.

(٢٨٩) Molmenti, Venice, part, I, pp. 133 -134.

ليبرا Libra (٢٩٠) • الى مليون ليبرا تقريبا • كما تطورت الحبال والمراسى تبعا لاتساع السفن وكبر حجمها وتطور صناعتها وكانت كل سفينة ذات حمولة ما ئتى ألف ليبرا لها طاقم بحـارة من عشرين شخصا ، وكان يزاد هذا العدد بمعدل شخص واحد لكل ألف ليبرا • وكان عدد البحارة دائما متكاملا ولم يقبل واحد فى هذا العمل دون الثامنة عشرة من العمر • وكان كل واحد مـن البحارة يحمل أسلحته المعروفة ولم يكن يسمح لاحد من الذين في سفينته أن يحل محله فى عمله • ولم يكن يسمح لاحد بالركوب أو المغادرة فى سفينته الا بعد حصوله على اذن بذلك • كما كان لا يصح لاحد أن يقترف جريمة السرقة ، وعـلى طاقـم السفينة الاخطار عن أى خطر أو تلف فى سفينته (٢٩١) •

وكانت السفن البندقية أنواعا مختلفة • فهناك مـا هـو لاغراض تجارية أو حربية متنوعة ، وقد تكون للحرب والتجارة معا بحيث يسهل تحويلها فى وقت السلم والحرب،وبعضها مخصص لنقل الخيول والمؤن والحصار والتجارة (٢٩٢) •

وأما عن اهتمام الدولة الايوبيـة بالاسطول وخاصة الحربى فكان عظيما • وقد اجتهد صلاح الدين الايوبى فى اعادة بناء الاسطول الحربى وخصص له ديوانا خاصا وعين آخاه العـادل

---

(٢٩٠) الليبرا : وهى تعادل رطل انجليزى
أنظـر :
Bradley, A New English Dictionary, vol, VI, Tome I, p. 242.

(٢٩١) Wiel, Navy of venice, p. 323 - 324.

(٢٩٢) Molmenti, venice part I, pp. 131 - 132.

رئيسا عاما لهذا الديوان • كما منع الاهالى من التعامل مع البلاد المسيحية فى المواد الحربية ، وأصدر مرسوما فى هذا الصدد • واهتم بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية وتحصين الثغور المصرية المطلة على البحر المتوسط والبحر الاحمر ،وبث روح الجهاد فى نفوس المسلمين ، وتهيئة عقولهم لهذا الواجب المقدس• ولم تحل سنة ١١٧٩ م / ٥٧٥ هـ حتى صارت البحرية الايوبية على أتم الاستعداد للقيام بالعمل ، وتزايد عدد السفن الى الضعف فى تلك السنة ، وأصبح حوالى ثمانين سفينة منها ستين شينيا وعشرين طرادة (٢٩٣) . وكانت مصانع الاساطيل بمصر والاسكندرية ودمياط وبيروت وذلك لكثرة الحديد والخشب فى هذه الاماكن • وكان للاسطول عظيم الاثر فى المعارك التى قامت ضد الصليبيين وحماية ساحل مصر والشام والبحر الاحمر بعد أن فقد أهميته فى نهاية العهد الفاطمى (٢٩٤) •

وكانت الاساطيل التجارية أيضا ملكا للتجار والناس فى

---

(٢٩٣) الشينى جمعها شوانى وتستعمل للزورق الكبير وهى سفينة حربية استخدمت فى البحر المتوسط وفى مختلف العصور الاسلامية وفى العصر الايوبى وكانت أهم قطع الاسطول الاسلامى ويجدف فيها بمائة مجداف ، أنظر :
تاريخ البحرية المصرية ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥ ـ أما الطرادة فهى سفينة النقل فى البحر المتوسط معدة لحمل الخيول ، أنظر تاريخ البحرية المصرية ص ٤٠٩ •

(٢٩٤) ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٢١ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٤٥ ، ٦٣ ، أبو شامه : الروضتين جـ ١ ص ٨٠ وراجع أيضا :
العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ١٧٣ ، وراجع أيضا :
عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٧٢ ـ ٢٧٧ ،
Lane Poole, A History of Egypt, p. 155.

معظم الاحيان · وخلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد (القرنان الخامس والسادس الهجريان) كان أصحاب السفن من المسلمين ينتمون الى طبقة الحكام والبيوت الكبيرة والقادة والتجار الاقوياء · ويقدر عدد السفن التى كانت تعمل فى البحر المتوسط والنيل حوالى مائة وخمسين سفينة ، هذا فى التجارة ، علاوة على الاساطيل الحربية التى يمكن أن تعمل فى التجارة فى وقت السلم · كما أن الدولة وضعت نظما محكمة للاساطيل وصناعتها وادارتها (٢٩٥) ·

وخلاصة ما تقدم أن الاساطيل الحربية والتجارية لدى الايوبيين والبنادقة كان لها عظيم الأثر فى طبيعة العلاقات بين البلدين كما أن انتصارات صلاح الدين على الصليبيين كانت تؤثر أحيانا على تلك العلاقات التى أثمرت بحيث كان البنادقة فى مصر يحتلون مركزا فريدا دون الجاليات الاجنبية الاخرى ·

وما دمنا نتحدث عن الموانىء والسفن التى لعبت دورا حاسما فى العلاقات بين البنادقة ومصر فى العصر الايوبى ، يحسن أيضا أن نشير الى وسيلة التعامل بين الطرفين ونعنى بها العملة · لقد أسهمت النقود فى عملية الازدهار التجارى فى البندقية فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ازدادت الضرورة للعملة لتسهيل التبادل التجارى وعمليات البيع والشراء ·

وكان يوجد فى البندقية نوعان من البندقى أو الدوكات

---

(٢٩٥) Cook, Studies in the Economic History of the Middle East, p. 59.

Ducat البندقى الفضى أو الكبير وهو العملة الفضية التى تم ضربها فى البندقية فى عهد الدوج هنرى داندولو ١٢٠٣ م / ٥٨٩ هـ وانتشرت فى الاسواق العالمية ووجدت هذه العملات البندقية فى الاسواق المصرية وكانت قبل ذلك عبارة عن دوكات صغيرة ، ولكن تلك الجديدة كانت كبيرة الحجم نوعا · والبندقى الذهبى وقد ظهر فيما بعد فى عام ١٢٨٤ م / ٦٨٣ هـ تقريبا · وكانت العملة البندقية تحمل صورة للصليب واسم المسيح ولقب الدوج وعائلته والعهد الذى ضربت فيه (٢٩٦) ·

لقد دعت الحاجات المالية للتجارة الشرقية النائية ولشئون الحجاج والفرسان المتنقلين أو المقيمين فيما وراء البحار ، الى نشوء نظام الاوراق المالية الخاصة بتقييد ما للعميل من حساب فى المصارف ، وتأسيس البيوتات المالية والبنوك · ونتيجة للحروب الصليبية والنشاط التجارى للبنادقة الذى صاحب هذه الحروب ، ضربت البندقية عملة للتداول فى الارض المقدسة كانت تعرف باسم العملة البيزنطية العربية Byzantini Saracenati وهى عملة ذهبية يتعامل بها البنادقة مع البلاد الاسلامية ، وكان على هذه النقود نقوش عربية وبعض آيات صغيرة من القرآن الكريم واشارة الى النبى عليه السلام والتاريخ الهجرى حتى عام ١٢٤٩ م / ٦٤٧ هـ حينما احتج على ذلك البابا أنوسنت الرابع

---

(٢٩٦) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٤١ ، أنظر أيضا : شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٦٥ حاشية ١ ، وراجع أيضا :

Molmenti, Venice, part, I, pp. 156 - 157;
Pirenne, Economic and Social History of Europe, pp. 114 - 115: Balzani, Italy, p. 296.

(١٢٤٣ ـ ١٢٦٤ م) الذى رفض التعامل مع المسلمين بهـذه العملات (٢٩٧) ٠ وكان الغرض منها أصـلا تسهيل التعامـل التجارى بين المسلمين واللاتين ٠ وأرسل البابا آنوسنت الرابع رسالة الى نائبه فى حملة لويس التاسع فى الشرق الاوسط يقول فيها بضرورة منع استخدام هذه العملة فى الامارات اللاتينية ، ويخوله سلطة اصدار قرار الحرمان الكنسى ضد كل من تسول له نفسه سك عملة على النسق الاسلامى ٠ وقد تضايقت الجاليات الايطالية فى الاراضى المقدسة وخاصة البنادقة ، من هذا الاجراء لانها رأت أن ذلك سوف يضر بمصالحهـا التجاريـة مع الدولـة الايوبية والمسلمين ، فلجأت الى حيلة دينيـة للتهرب من أوامـر البابوية وعقابها ، وذلك لانها بدلا من أن تضرب عملة اسـلامية بحتة ضربت عملة مسيحية ولكن الكلمات المنقوشة عليها كانت تحمل التاريخ الميلادى وبعض العبارات المسيحية باللغة العربية ٠ والعملات التى عثر عليها من هذا النوع ضربت فى عكا فيما بين عامى ١٢٥١ ـ ١٢٥٥ م / ٦٤١ ـ ٦٥٣ هـ ٠ وهذا يدل على أن دار سـك العملة المذكورة كانت فى عكا ٠ وان هدف البنادقة من استخدام الكتابة العربية كان لدوافع اقتصادية بحتة ، اذ كان المقصود من هذه العملة الجديدة هو استمرار حركة التعامل مع المسلمين ، خاصة وأن البنادقة كانوا يدركون صعوبة التحول الى استخدام عملة مسيحية منقوشة باللاتينية أو الفرنسية القديمة وآثر ذلك على التجار المسلمين بعد أن كان التعامـل بالعملـة

(٢٩٧) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ٣٠ ـ ٣١ ،
ارنست باركر : تراث الاسلام ص ١١٩ ـ ١٢٠ ،
نورمان بنز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٦ ٠

الاسلامية ، فلجأوا الى هذه الحيلة متخذين قطعا تشبه حجم القطع الاسلامى ، ولكن الاختلاف كان فى النقش فقط حتى لا يشعر التجار المسلمون بانتقال فجائى شامل قد يؤدى الى اضطراب العلاقات التجارية بين المسلمين والمسيحيين (٢٩٨) ٠

أما فى العصر الايوبى فقد كان الاهتمام بالتقدم الاقتصادى من أهم المظاهر التى تعبر عن تقدم الدولة فى جميع المجالات وعرف المسلمون منذ وقت مبكر تنظيم الاقتصاد كما ساروا على سياسة الاقتصاد النقدى لان ذلك أكثر يسرا فى التعامل ٠ ووجدت دور لضرب النقود فى مصر منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) وزداد نشاط دور الضرب فى العهد الفاطمى وأهم دور ضرب النقود بالقاهرة تعمل فى العهد الايوبى الى جانب دار الضرب فى الاسكندرية وهما الداران الوحيدتان فى العصر الايوبى ، وقد اهتم الحكام منذ عهد صلاح الدين بالاشراف على هذه الدور اشرافا دقيقا لا شبهه فيه ٠ وذلك لاهميتها فى حياة الناس الاقتصادية ٠

وكان فى الغالب يسند أمر الاشراف على دار الضرب الى رئيس دينى كأحد القضاة لضمان شرعية الدنانير والدراهم التى تصدر من دار السك بأسمائهم من حيث جواز العيار أو الوزن (٢٩٩) ٠

وان دراسة الاوضاع النقدية فى مصر الايوبية تستند فى تفسيرها الى الاحوال الاقتصادية التى عاصرت الحركة الصليبية والمطامع الغربية فى البلاد الاسلامية ٠ وكان النشاط التجارى

---

(٢٩٨) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٢٨ _ ٣٣٠ ٠

(٢٩٩) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٢٨ _ ٣٣ ٠

الهائل بين مصر وجاراتها من دول البحر المتوسط وخاصة الجمهوريات الايطالية وفى مقدمة الجميع البندقية قائما على قدم وساق رغما عن اندلاع نيران الحروب الصليبية ٠

وكانت دول الغرب والبابوية تحاول فى البحر المتوسط والبحر الاحمر قطع تجارة مصر مع الشرق الاقصى وأوروبا على السواء (٣٠٠) ٠ ورغم أن الحياة الاقتصادية أصيبت فى أول عامين من حكم صلاح الدين بضعف واضح ، الا أن الدولة الايوبية بذلت جهودا كثيرة للعمل على استقرار الاوضاع الاقتصادية فى مصر باحياء الصناعة والاهتمام بالزراعة وتنشيط التجارة حتى عاد النشاط التجارى من جديد ٠ ففى عامى ١١٨٧ م و ١١٨٨ م (٥٨٣ و ٥٨٤ هـ) كان فى ميناء الاسكندرية سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من البندقية وبقية الجمهوريات الايطالية وغيرها من دول أوروبا ، فكثرت نتيجة ذلك « دنانير الذهب والمصاغ والجوهر » (٣٠١) ٠

وفى مصر الايوبية كان أيضا التعامل بالدراهم السوداء وكل درهم منها عبارة عن ثلاثة من الدراهم الناصرية ٠ ولكن مصر كانت من بين الاقطار التى يستخدم فيها النقد الذهبى ، وأما الفضة فكانت بمصر تتخذ حليا وفى صنع الاوانى ، وقد يضرب منها الشىء للمعاملات التى يحتاج اليها اليوم لنفقات البيوت ٠

وفى عهد الملك الكامل محمد أمر بضرب عملة اسمها الدراهم السوداء وفيها اليسير من الفضة وأمر بعدم التعامل « بالدراهم المصرية العتق والتى يدعونها أهل مصر الورق ، فهجر الناس الدراهم الورق وتركوا التعامل بها ، اذ الرعية على دين راعيها٠

---

(٣٠٠) ابن بعرة الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٧ ـ ٣٨ ٠

(٣٠١) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١١٣ ٠

وكانت الدراهم الكاملية وهى التى كـان الناس يتعاملون بهـا ثلثيها فضة والثلث نحاس يضاف عـلى المائة من الفضة الخالصة خمسون درهما من النحاس . وراجت هذه الدراهم فى بقية دولة بنى أيوب ثم فى أيام مواليهم الاتراك بمصر والشام رواجا حتى قل الذهب بالنسبة اليها ، وصارت المبيعات الجليلة تبـاع منها وتقوم بهاواليها تنسبعامةأثمان المبيعات(٣٠٢)» . وكانالدرهم ثمانية عشر خروبة ، والخروبة ثلاث قمحـات ، والمثقال أربع وعشرون خروبة ، والصنجة تتفاوت بمصر والشام فتنقص كل مائة مثقال شامى مثقالا وربع بمصر ، وكذلك الدراهـم ، كما استخدم المسلمون الفلوس وهـى ذات قيمة بسيطـة للاستعمال الخفيف والاشياء الحقيرة ، وكان ضربها فى أيام الملك الكامل محمد الايوبى وكانت أصلا كـل درهـم كاملى يساوى ثمانيـة وأربعون فلسا . ويقسم الفلس أربع قطع تقام كل قطعة مقام فلس يشترى به ما يشترى بالفلوس فيحصل بذلك من الرفق لذوى الحاجات مالا يكاد يوصف . واستمر هذا الوضع حتى بعد سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م الى عهد دولة المماليك . فتغيرت الاحـوال وأصبح كل فلس يزن مثقالا والدرهم يعد أربعة وعشرون فلسا . فثقل ذلك على الناس لان فى ذلك خسارة مضاعفة ، فأصبح ما كان قبل يشترى بنصف درهم يشترى بدرهم ، وكانت الفلوس عموما للاشياء البسيطة ونفقات البيوت ولاغراض ما يحتاج اليه من الخضر والبقول ونحوها (٣٠٣) . وهذا التطور النقدى وتنظيمه

---

(٣٠٢) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٩ ـ ٤٠ ، المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٦٢ ـ ٦٦ .

(٣٠٣) المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ص ٦٦ ـ ٧٠ ، ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٤١ .

فى العصر الايوبى يدل بلاشك على حرص الدولة الايوبية على تنشيط التجارة مع العالم الخارجى • كما أن استخدام الذهب فى سك النقود كان عاملا مشجعا للبنادقة وللجاليات الاجنبية على الارتباط مع الدولة الايوبية بعلاقات تجارة كان لها أثرها على تكييف طبيعة العلاقات بين الايوبيين والصليبيين •

أما الدينار فقد استخدم فى مصر فى العصر الفاطمى وكان عملة ذهبية وأصبح استعمال الدنانير شائعا فى البلاد الاسلامية الشرقية • ولكن الدينار كان يختلف من حين الى حين ومن بلد الى آخر • وكان الدينار يساوى أربعة عشر درهما فى العصر الفاطمى فى حين كان فى العصر الايوبى يساوى ستة عشر درهما •

وقد فاضت خزائن الدولة الايوبية بدنانير الذهب المصاغ والجوهر بشكل لا يفى به ملك الاكاسرة ، ولا تتصوره الخواطر ، ولا تشتمل على مثله الممالك ولا يقدر على حسابه الخلق فى الآخرة » (٣٠٤) ، كما أن ما خلفه الملك الكامل الايوبى من الذهب وحده بلغ ستة ملايين من الدنانير المصرية (٣٠٥) •

ولا شك أن الحالة الاقتصادية فى مصر فى العهد الايوبى قد تأثرت بالحروب الصليبية • وقل وجود الذهب فى الاسواق وذلك لاسباب أولهما أن السلاطين الايوبيين لجأوا الى الاحتفاظ بالنقد الذهبى دون غيره ، وثانيهما تسرب الذهب من البلاد الى الخارج نتيجة العمليات التى ارتبطت بها مصر طوال العصر الايوبى (٣٠٦) . وهذا يعطينا مؤشرا جديدا كان يشجع البنادقة

---

(٣٠٤) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ص ٣٩ •

(٣٠٥) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة •

(٣٠٦) ابن بعره الذهبى : كشف الاسرار العلمية ، ص ٤٠ •

على التبادل التجارى مع الايوبيين من أجل الحصول على هذا المعدن الثمين • بمعنى أن وجود الذهب واستخدامه فى سك العملات الايوبية كان عاملا مشجعا للبنادقة على الارتباط بمصر فى هذه الفترة الصعبة بعلاقات تجارية وسياسية طيبة • كما أنها كانت تعطي قدرا عظيما من الهيبة للسلاطين الايوبيين،وعرف المسلمون فى العهد الايوبى أيضا التعامل بالصك وهو أشبه بالشيك الان كما استخدموا المقايضة فى البيع والشراء ، واستعملوا الرطـل والاوقية والدرهم حتى غدت دولتهم قوية مرهوبة الجانب عنـد الاعداء مرفوعة الراية عند الاصدقاء (٣٠٧) •

يتضح مما تقدم تشابك الناحيتين السياسية والاقتصادية ببعضهما فى علاقات البندقية بمصر الايوبيـة • فالعصر عصر احتدم فيه الصراع المسلح بين الغرب اللاتينى والشرق الادنى الاسلامى ، وقد تحملت الدولة الايوبية فى مصر عبء الجهـاد ضد الفرنج الدخلاء • وهى فى نفس الوقت على علاقة طيبة مع أكبر القوى البحرية التجارية الا وهـى البندقية اذ تربط بين الطرفين المصالح المتبادلة ، بينما القوات الصليبية والاسـلامية تتقاتل فوق مسرح الاحداث • ولا عجب فـى ذلك • فقـد كانت طبيعة العصر وظروفه ومفاهيمه وأوضاعه مهيأة لهـذا الصراع الدامى ، فى نفس الوقت الذى كانت فيـه الاتصالات السلمية وعمليات التبادل التجارى قائمة عـلى قـدم وساق بين البندقية والدولة الايوبية متخذة من موانىء مصر والشـام ومن مدنهـا وبحارها وسيلة لهذه اللقاءات •

---

(٣٠٧) المقدسى: احسن التقاسيم ص ٢٠٤ ، أنظر أيضا :
توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ١٣٤ ـ ١٣٥ ، ١٤٥ ـ ١٤٦ ، ١٦٥ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٦ ـ ٦١٧ •

الفصـــل الخامس

الجالية البندقية فى مصر الايوبية

- امتيازات البنادقة فى مصر .
- الفنادق والنزل الخاصة بالبنادقة والاحياء التى ينزلون بها.
- نظم التجارة والقناصل ـ وظيفـــة وكيل التجــار ـ السلع التجارية .
- الصناعات فى كل من مصر والبندقية .
- الصراع بين البندقية والجاليات التجارية الاخرى ، وآثاره على العلاقات بين البندقية ومصر .

أظهر السلاطين الايوبيين استعدادهم لفتح البلاد أمام التجارة الاوروبية • واستهل ذلك التشجيع السلطان صلاح الدين الايوبي مؤسس الدولة الايوبية في مصر والشام ، وحذا حذوه من جاء بعده من ملوك بني أيوب • لقد كانوا يدركون أن التجارة تزدهر في ظل الحرية والامان وتكسد وتضعف بالقيود والتضييق ولذلك سعوا الى انعاشها •

وبما أن الاسكندرية التي كانت تسمى سوق العالمين ، كانت طريقا هامة جدا بالنسبة لتجارة الشرق الاقصى آنذاك ، لذلك أهتم البنادقة بتوثيق عرى التعاون مع الايوبيين من أجل التبادل التجارى . وعقدت من أجل ذلك الاتفاقيات وخاصة في عهد الملك العادل شقيق صلاح الدين • فثمة اتفاق عام ١٢٠٢ م / ٥٩٩ هـ ، واتفاق عام ١٢٠٨ م / ٦٠٥ هـ الذى منح البنادقة بموجبه امتيازات خاصة في الاراضى المصرية ، كما سمح لهم ببناء فندق في الاسكندرية ، ثم جددت تلك الامتيازات في عام ١٢١٥ م / ٦١٣ هـ ، في حين أدى اشتراك البندقية في الحملة الصليبية الخامسة عام ١٢١٩م/ ٦١٧ هـ الى تدهور العلاقات التجارية مع مصر • بمعنى أن تلك العلاقات كانت تتأثر صعودا وهبوطا بمدى مساهمة البنادقة في الحملات الصليبية • ولم تعد تلك العلاقات الى طبيعتها السابقة من التحسن والنشاط الا في عام ١٢٣٨ م / ٦٣٦ هـ عندما أعاد الملك العادل الثاني كافة الامتيازات للبنادقة مرة ثانية (٣٠٨) •

---

(٣٠٨) Molmenti, Venice, part, I, pp. 119 - 120;

=

وكان البنادقة قد سيطروا على بحر الادرياتيك منذ فترة غير قصيرة ، كما سيطروا على أسواق القمح والنبيذ في جنوب ايطاليا ولذلك كانوا فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) يسمون بحر الادرياتيك باسم « خليجنا » • ولم يكتيف البنادقة بذلك ، بل رغبوا في المسير بعيدا بحثا عن المزيد من الربح والتجارة ، ووصلوا الى القسطنطينية والقرم والبحر الاسود •

وكان للبندقية على الساحل الشامى مراكز تجارية في صور وعكا وحيفا وصيدا واللاذقية وبيروت • وهذا الوجود البندقى في تلك الجهات جعل البنادقة يرغبون فى الاتجار مع المسلمين فى الشرق الادنى . وقاموا بتزويدهم بالاخشاب اللازمة لبناء الاساطيل والاسلحة ومواد الحرب ، مع علمهم أن فى ذلك أضرار بالدول اللاتينية الاخرى • وكانت تجارات الشرق الاقصى من الهند والصين تصل الى الاسكندرية عن طريق البحر الاحمر حيث يتم التبادل التجارى في الاسكندرية ووجدت البندقية فيها ميدانا للاستغلال يدر عليها الكسب الوفير ففرض هذا الوضع السعى الدءوب والجهد الكبير فى سبيل الاحتفاظ به ، ولم تقنع البندقية بذلك ، بل توغل تجارها فى حلب ودمشق ووصلوا

=

Okey, Venice and its Story, pp. 59 - 60, 73, 76;
Heyd, Histoire du Commerce, part, I, pp. 142 - 144, Michaud, Histoire des Croisades, vol, II, p. 63; Foucher de Chartres, p. 450.

بغداد وعقدوا مع خليفتها فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) معاهدة تجارية (٣٠٩) .

وكانت قوة البندقية العسكرية والتجارية واتساع نفوذها فى الخارج ، وقوة شعبها عى ادارة أعماله بنجاح - كان كل هذا كفيلا بنمو المدينة وازدهارها ونجاح سكانها فى الحصول على العديد من الامتيازات فى مصر (٣١٠) . وسبق أن ذكرنا أنهم كانوا يحصلون فى الاراضى الصليبية فى الشرق الادنى على امتيازات واغراءات واعفاءات ولذلك وجدت الدولة الايوبية أن الضرورة تحتم عليها تقديم ما يلزم لتسهيل تجارة البنادقة فى أراضيها والعمل على جذبهم اليها وصرفهم قدر الاستطاعة عن مساندة بنى جلدتهم من اللاتين . كذلك حصل البنادقة فى المملكة اللاتينية وفى القسطنطينية على مستعمرات بها الاسواق الخاصة بهم والقضاء وفقا لقوانينهم ، ومحاكم قضاتها من البنادقة . كما نفذت أحكامها وقضائها الخاص بها ليس على البنادقة فحسب وانما على الشعوب الاخرى التى تاجرت معها فى كثير من الاحوال (٣١١) .

---

(٣٠٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣١ - ٣٥ ،
Molmenti, Venice, part, I, pp. 119 - 120;
Okey, Venice and Its Story, p. 76;
Pirenne, Medieval Cities, pp. 58 - 61;
Baynes, The Byzantine Emprie, p. 217.

(٣١٠) Molmenti, Venice, part, I, pp. 122, 157;
Okey, Venice and Its Story, p. 73.

(٣١١) Mowmenti, Venice, part, I, p. 120;
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 148 - 151.

ويكفى أن نعرف أن قيمة حمولة الاسطول البندقـى الذى يذهب الى مصر أو سوريه ، كانت تقدر بحـوالى مائتـى ألف دوكات • وهذا القدر يدل عـلى ضخامة الفائدة التـى يجنيها البنادقة من تجارتهم مع مصر (٣١٢) •

ولمـا شدد الملك العادل سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م عـلى التجار الاوروبيين بعد محاولتهم الثورة فى مدينة الاسكندرية ، تحول هؤلاء التجار عن مصر « وصار وصولهم الى عكا بالبضائع وبيعهم بها فحصل لملك عكا اللاتينى جملة وافرة (٣١٣) .

ومن مظاهر مكانة البنادقة فى مصر تلك الامتيازات التى حصلوا عليها من السلطات الحاكمة والتى تتلخص فيما يلى :

أولا : السماح لتجارهم بالقدوم الى الموانىء المصرية من أجل البيع والشراء وتبادل السلع مع التجار المسلمين وتوفير الامن والحماية لهم •

ثانيا : السماح للتجار البنادقة بالاقامةفى مصر والاتجار داخل الاقليم المصرى كله •

ثالثا : الاعفاء من بعض الرسوم وتخفيض رسوم أخرى يدفعها غيرهم من التجار الاجانب • وان دل ذلك على شىء فانما يدل على تمييز السلطات الايوبية فى مصر لهم عن غيرهم •

---

(٣١٢) Okey, Venice and Its Story, p. 105.

(٣١٣) الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية ص ٩٠ ـ ٩١ •

رابعا : التوصية بحسن معاملة التجار البنادقة فى الميناء والمحافظة عليهم وتجنب الاساءة اليهم •

خامسا : عقد معاهدات بين وقت وآخر معهم تتضمن السماح لهم ببناء الفنادق والحصول على موافقة السلطات المصرية ببناء كنيسة وحمام ومخبز ، وأن يكون لهم حى كامل يعيشون فيه وفقا لقوانينهم وعاداتهم وتقاليدهم •
كما كان عليهم من ناحيتهم ، مراعاة تقاليد وعادات المسلمين فى كل شىء ، فلا يشربون الخمر فى الشوارع أو فى شهر رمضان ولا يقومون بأعمال تمس الشعور الدينى عند المسلمين •

سادسا : موافقة السلطات المصرية باقامة القناصل البنادقة فى مصر للاشراف على العلاقات بين البلدين ، والعمل على حل مشاكل جاليتهم والقضاء بينهم والتدخل لدى السلطان اذا اقتضى الامر ذلك ، وعرض الشكوى عليه •

سابعا : توفير الامن وعدم الاعتداء على البنادقة بحيث أصبحوا وخاصة فى عهد الملك العادل الايوبى ، يتمتعون بالاولوية بين الجاليات التجارية الاخرى فى مصر (٣١٤) .

---

(٣١٤) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٢٩ حاشية ١ ، العرينى : مصر فى عهد الايوبيين ص ٢٠٧ ، وراجع أيضا :
Heyd, Histoire du Commerce, vol, I, pp. 401 - 404;
Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantin, vol, II, p. 458;
Okey, Venice and Its Story, pp. 59 - 60, 73, 76; Runciman,

=

هذا وقد اعتاد المسلمون أن يقيموا الاسواق فـى أوقـات معينة فى المدن التجارية الهامة • والتجـارة تعتمد أساسا عـلى اقامة تلك الاسواق ، وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى قسم من أقسام هذه الاسواق ويمكث رجالها به الى ما بعد الظهر ، ولا يعودون الى منازلهم الا فى المساء • وأسواق المدن كانت تقام فى أيام معينة من الاسبوع • وكانت الدكاكين فى المـدن المصرية والشامية تمتد على طول الشارع من الجانبين • وخصصت فنادق للبنادقة ولغيرهم من التجار الغرباء للاقامة بهـا ، كانت أشـبه بالاسواق الكبيرة • وكانوا يضعون بضائعهم فى الادوار السفلى من هذه الفنادق بينما يقيم التجار فـى الادوار العليا ويغلقون على أنفسهم بأقفال رومية ويطلق على هذه الاسواق أو المخازن الفنادق أو القياسر • وقد انتشرت فى البـلاد الاسلامية تبعـا لتقدم وازدهار الحالة الاقتصادية فيها (٣١٥) •

وكانت الدولة الفاطمية فـى مصر قـد سـمحت للتجـار الايطاليين وغيرهم من الاوروبيين انشاء الفنادق الخاصة بهـم فأصبح لكل جالية أجنبية فندق خاص فى الاسكندرية ، وكانوا فى العادة يختارون أحد أفراد الجالية للاشراف على تنظيم الاقامة فى الفندق وادارته • وقد يقوم بهذا العمل القنصل أو من ينوب

=

History of Crusades, vol, III, pp. 113 - 116; Wiet l' Egypt Arabe, p. 343; Lane - poole, History of Egypt, p. 240; Cambridge Medieval History, vol, 5. p. 411.

(٣١٥) توفيق اسكندر : بحوث فـى التاريخ الاقتصادى ص ١٥٧ ـ ١٥٨ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٠ ـ ٦١١ •

عنه ، والفنادق التى كانت للبنادقة فى مصر فى العصر الايوبى لها وضع خاص دون غيرهم من الاوروبيين ، اذ كان لهم فندقان فى الاسكندرية ، تقوم ادارة الجمارك المصرية التى كانت تعرف باسم « الديوان » بصيانتهما والمحافظة عليهما (٣١٦) • وكان يوجد فى كل فندق المخازن الخاصة بالبضائع وغرف النوم . ومن بين الامتيازات التى منحها سلاطين بنـــى أيوب للبنادقة اقامــة مقبرة لدفن موتاهم (٣١٧) •

وكانت القاهرة أيضا مكانا تجاريا هاما ، وبها الفنــادق المتخصصة للتبادل التجارى ، وبهــا كافة أنــواع السلع الشرقية والمحلية والافريقية والغربية • كما أنشىء فيهــا فــى العصر الايوبى فندق لتجارة الكارم وبعدها انتشرت فــى الاسكندرية وقوص وعدن وتعز وزبيد ومكة والمدينة وجدة ، كمــا تنوعت أسواق البهارات المختلفة (٣١٨) • وكانت توجد فــى القاهرة فنادق للبنادقة بالاضافــة الى فنادقهم فــى الاسكندرية ذلك أن القاهرة كانت مركزا تجاريا هاما وتكثر بها النزل والحانات • ومن أشهرها فى العصر الايوبى فنــدق ابن قريش وكان ملكــا

---

(٣١٦) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٢٩ حاشية ١ ، العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٢٠٧ ، وراجع أيضا :
Lopez, Medieval Trade in the Mediterrenian World, pp. 84 - 85

(٣١٧) جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٢٩ ، حاشية ١ ، أنظـر :
Cambridge Economic History of Europe, vol, 3, pp. 60 - 61.

(٣١٨) Cook, Studies in Economic History, pp. 72 - 73; Atyia, Crusade, Commerce and Culture, pp. 181 - 182.

للقاضى شرف الدين ابراهيم بن قريش كاتب الانشاء وانتقل الى ورثته فى عهد الملك العادل ثـم فى عهـد الملك الكامل محمد • وكذلك خان منكورش فى القاهرة فى العهد الايوبى ، وفنـدق الصالح ، وخان السبيل «وهذا الخان خارج باب الفتوح» • قال ابن عبد الظاهر « خان السبيل بناه الامير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الاسدى خادم أسد الدين شيركوه وتخصيصه لابن السبيل والمسافرين بغير أجرة وبه بئر ساقية وحوض (٣١٩)•

ومن نظم الفنادق فى مصر فى العصر الايوبى أن أبواب هذه الفنادق كانت تغلق فى الليل من غروب الشمس حتـى الشروق وكذلك وقت صلاة الجمعة ويبقى بداخلها النزلاء طوال الليل • وبالرغم من أن هذه الاعمال تبدو شديدة الا أن هذا الاجراء كان احتياطيا وخوفا من حدوث شغب أو مشاجـرات ، لان التعصب الدينى بين الطائفتين الاسلامية والمسيحية كان شديدا وخاصة فى وقت كانت فيه الحروب الصليبية يشتعل أوارها بين وقت وآخر•

وأما الوكالات ، فقد أقيمت منذ العصر الفاطمى فى مصر وازدادت فى العصر الايوبى انتشارا وهى تشبه الفنادق وينزل بها التجار القادمون من الخارج • وبجانب هذه المبانى التى أعدت للتجار وجدت مبانى أطلق عليها اسم القياسر وهى عبارة عـن مجموعة من المبانى العامة وبها حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن يقيم فيها الصناع والتجار بأجر . ولا شـك أنـه كان للجاليـة

---

(٣١٩) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٢ _ ٩٣ ، أنظر أيضا : نقولا زيادة : الرحالة العرب ص ٥٣ ،
Atyia, Crusade in the Later Middle Ages, p. 115 Note I.

البندقية القياصر الخاصة بها فى البلاد (٣٢٠) ٠

وأما الحمامات فانها كانت معروفة فى البلاد الاسلامية فى مختلف العصور وقد أنشأ الايوبيون عددا كبيرا منها ، ووصف البغدادى حمامات مصر بقوله : « واما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا (٣٢١) » ٠

وأما بالنسبة للجمارك المصرية فى العصر الايوبى ، فقد وجهت لها الدولة اهتماما خاصا لصلتها الوثيقة بعمليات التبادل التجارى مع البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية ٠ فالمسئولون عن الجمارك هم الذين يقومون بتأمين دفع الاموال لاصحاب السلع المباعة ٠ وكان يوجد الادلاء أو السماسرة الذين يقومون بتسهيل عمليات البيع والشراء ٠ ولابد للدلال من الحصول على ترخيص من الدولة لممارسة مهنته ، وكان أيضا على القنصل الذى يشرف على كل جالية أن يحضر شخصيا الى السلطان فى حالات التظلم والتقدم بشكواه مباشرة للسلطان أو كتابة أو مشافهة حتى لا يترك شيئا للحظ أو الظروف ٠ كما كان على قناصل الدول الاوروبية أن يجتمعوا مرات عديدة منتظمة فى كل سنة للتباحث

---

(٣٢٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٩٣ ، سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٢٠٣ _ ٢٠٤ ، وراجع أيضا :
Cook, Studies in the Economic History of the Middle East, p. 65.

(٣٢١) البغدادى : الافادة والاعتبار ص ٣٩ _ ٤٠ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٠ ، أنظر أيضا : حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٢ ٠

فيما يعـود عليهـم بالمصلحـة ومناقشـة الشروط التفصيلية للمعاهدات المعقودة بين المدن التجارية الايطالية والدولة الايوبية. واهتم الايوبيون بتنظيم العلاقات مع البنادقة بكل دقة حتى لا تقع أسباب تؤدى الى التصادم أو الاحتكاك وكل مايترتب على ذلك من غضب السلاطين الذين بامكانهم أن يعاقبوا بصرامة وشدة كل من يحاول اساءة التصرف من الغربيين (٣٢٢) .

كما وفرت الدولة الايوبية الطمأنينة والعدل والراحة للتجار، وقامت بتوطيد الامن على طول الطرق الصحراوية البرية ما بين مصر وسوريه والبحر الاحمر ، وأنشأت عـلى نفقتها الخاصـة الخانات والفنادق على طـول الطـرق الرئيسية للتجـارة فـى مصر (٣٢٣) .

وكان للقناصل الاجانب حق الحكم والقضاء وفق قوانينهم، وهم أيضا مسئولون أمام السلطان عن رعاياهم ومـا يفعلون . وكان على التجار الاجانب أن يدفعوا الضرائب للدولة المصرية فى حالة بعض المواد مثل الشب الذى كان محتكرا للدولة ، كما كانت العقوبات تقع على المذنب فقط لدرجة أنه لا يؤخذ بسوء تصرف الآخرين . وكان من حق الاجانب انقاذ سفنهم من أى أذى يلحق بها أو انقاذ حمولتها اذ غرقت وكذلك السفينة التى تكون للامم الصديقة . وان الميت الاجنبى فى أرض السلطان ترد أموالـه لورثته وذلك بالتأكيد على هذا الامر . وكان للتجـار الاجانب

---

(٣٢٢) Atyia, Crusade, Commerce and Culture, pp. 194 - 195; Cambridge Economic History of Europe, vol, 3, pp. 60 - 61.

(٣٢٣) Cook, Studies in the Economic History, pp. 70 - 71.

الحرية في السفر ومعهم بضائعهم اذا لم يعجبهم سعر البيع في مصر ، كما كان لا يحق لاحد القبض على أحد من التجار الاجانب الا بأمر السلطان أو المسئولين ويمنع كل غش أو خداع ونصب وتدليس واذا ثبت أن القنصل يأخذ رشوة مقابل التسامح في القانون ، فانه كان يوسم بالكي بالنار في جبهته وذلك دليل خيانته واظهار جريمته حتى لا يجرؤ غيره على ارتكاب ذلك الجرم. كذلك كان الحال في موانيء البندقية حيث كانت المتاجر والبضائع تفحص بنفس الاسلوب لمعرفة أنواعها وقيمتها ونوعيتها (٣٢٤).

وكان يوجد للبندقية ، اضافة الى فنادقها في الاسكندرية والقاهرة ، جملة من الفنادق في دمشق وبيروت وطرابلس وحلب واللاذقية وكذلك في الاراضي الصليبية (٣٢٥) . وكانت دمشق محطا لاقامة التجار من مختلف الامم « وكان لتجار هذه الامم قصور في الشام لسكناهم وسفنهم تغدو وتروح في البحر المتوسط بالتجارة الشامية » (٣٢٦) وتحدث أبو شامه عن حريق الفنادق والحوانيت في دمشق نتيجة لاختلاف أمراء الايوبيين في الشام في سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م وكان من بينها فندقا للبنادقة (٣٢٧).

---

(٣٢٤) Molmenti, Venice, part, I, pp. 121 - 122;
Okey, Venice and Its Story, p. 105; Cook, Studies in the Economic History of the Middle East, pp. 70 - 72.

- العريني : مصر في عصر الايوبيين ص ٢٠٧ .

(٣٢٥) Atyia, Crusade, Commerce and Culture, pp. 181 - 182;
Lopez; Medieval Trade, pp. 84 - 85;

الشيال : تاريخ مدينة الاسكندرية ص ٨٦ ـ ٨٧ .

(٣٢٦) الحموى : دمشق في العصر الايوبي ص ٤٢ .

(٣٢٧) أبو شامه : تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين ص ١٦ ، ٢٠ .

ويدل ذلك على وجود تجارة للبنادقة فى دمشق التى كانت داخلة فى اطار الدولة الايوبية ٠

لقد رأينا مما سبق أن البندقية كانت تعتبر مدينة تجارية من الدرجة الاولى ، وخاصة فى مجال التجارة البحرية ٠ ففى بداية القرن الحادى عشر (بداية القرن الخامس الهجرى) أنشأت دار الصناعة البحرية التى أخذت تكبر وتتسع بصورة سريعة ، ومع مرور الزمن أصبحت البندقية تتقن حرفة بناء السفن من مختلف الانواع والاستخدامات وأهمها السفن الحربية٠ وأما السفن التجارية فقد كانت تسمى بأسماء مختلفة وكانت أكبر حمولة وأعلى جانبا وأبطأ سيرا ويغلب أن تسير بالشراع أكثر ما تسير بالمجاديف مثل السفن الحربية ٠ وكانت دولة البندقية تقوم بالاشراف على صناعة السفن حتى ما كان يبنى منها لحساب الافراد ، وكان يشترط فى كل سفينة تبنى على أرض البندقية أن يكون لها أبعاد معينة ومواصفات خاصة ، وهكذا أمكن للبندقية الحصول على وحدة فى الانواع تسمح فى وقت الحرب بتحويل السفن التجارية الى سفن حربية ، وكان يمكن تأليف أساطيل عديدة متجانسة تماما ، مما أفاد البندقية أكبر فائدة فى وقت السلم والحرب على السواء (٣٢٨) ٠

ولم تكتف البندقية بذلك ، بل أصدرت منذ عهد بعيد تشريعا دقيقا حدد القواعد التى تسير عليها تجارتها ٠ وحرم على رعايا

---

(٣٢٨) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٧ _ ٢٨ ٠ وقد تعرضنا لهذه الناحية بشىء من التفصيل فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ص (٢٢٥ _ ٢٢٩) ٠

البندقية الشراء والبيع فى بلاد معينة ، كما حرم على سفن البندقية نقل المتاجر الى أية جهة غير البندقية نفسها . وكل من يخالف ذلك كان يقع تحت طائلة الغرامة والعقاب أو المصادرة وكان يوجد عدد كبير من الخبراء البحريين كمراقبى دار الصناعات البحرية وقادة البحر الذين يقودون الاساطيل الحربية والمشرفين البحريين وقباطنة الخليج وغير ذلك من الوظائف التى أنشأتها البندقية، لضمان استمرار قوتها وحماية ثروتها البحرية(٣٢٩) .

وقد اشرفت جمهورية البندقية أيضا على تنظيم حركة النقل اشرافا جيدا . فكانت الاساطيل التجارية الكبيرة تجتمع تحت أمرة أحد ممثلى الدولة وتقوم برحلتين فى العام فى مواعيد ثابتة الى مختلف البلاد التى تقوم البندقية بالمتاجرة معها ، وكانت تعرف تلك الاساطيل بالقوافل ، وعرفت أيضا بأسماء قافلة القسطنطينية أو بلاد الروم ، وقافلة الاسكندرية أو مصر ، وقافلة الشام ، وقافلة طانا فى اقليم البحر الاسود ، ثم قافلة الاراضى المنخفضة لبلاد الغرب الاوروبى . ومن أهم هذه القوافل تلك التى تسير الى مصر مرتين فى العام ، وكان لها وضع خاص عند البنادقة (٣٣٠) . وكان تحرك الاساطيل البندقية الى الشرق يعنى ايذانا بعودة النشاط التجارى وازدياد حركة البيع والشراء وكذلك كانت عودة تلك الاساطيل الى البندقية بحمولتها من بضائع الشرق التى ينتظرها الاهالى بفارغ الصبر غالبا ما تتفق مع موسم الاسواق الكبرى التى كانت تعقد فى عيد الفصح وفى

---

(٣٢٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٨ .

(٣٣٠) نفس المرجع ونفس الصفحة ، أنظر أيضا : =

شهر سبتمبر وعيد الميلاد من كل عام ، والتى جعلت أيضا منذ القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) سـوق ريالتو الكبير من أشهر أسواق التجارة فى البحر المتوسط • وكان كل البنادقة يشاركون فى هذا السوق الذى يعود عليهم بالعظمة والرخاء (٣٣١) •

واهتم البنادقة بتأمين سلامة قوافلهم التجارية وكانت أولى الخطوات فى هذا المجال القضاء على قراصنة البحر ، وقطـاع الطرق ، ثم أخذوا يسيرون قوافل التجارة فـى شكل مجموعات ليكونوا قوة يمكنهم مواجهة قراصنة البحر والذين كانوا يخيفون التجار أكثر من أهوال البحر وتقلبات المناخ • وكانت الاحوال برا وبحرا قاسية على التجار فى مثل الفترة السحيقة من الزمن • وكان البحار قد يضطر وهو عـلى ظهر سفينته الى الدفاع عـن بضائعه وحياته ، وكذلك الحال عند الوصول الى الميناء ، فانه ربما يتعرض للمخاطر وتتعرض أموالـه وتجارتـه للسرقة أو النهب • وقد يضطر الى الهرب بثروته أو يقوم بحمايتها • الا أن هذه الامور لم تكن تحدث فى الموانىء الاسلامية ، وخاصة فـى العصر الايوبى حيث سـاد الامن والاستقرار • وربما يحـدث الاعتداء فى حالة اختلاف الدول أو بسبب وقوع حيف من دولة أخرى على دولة هذا الميناء ، فيكون لها الحق فى الانتقام لنفسها بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التى اعتدى أهلها على رعاياها •

=

Wiel, Navy of Venice, pp 325 - 326

(٣٣١) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٩ •

وتمكن البنادقة بذكائهم أن يحصلوا على امتيازات كثيرة خففت من الضرائب الجمركية التى كان يدفعها التجار الآخرون من الدول الاخرى . وفى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ظهرت مجموعة من النظم الجديدة لخدمة التجارة ومنها أولا تحديد الوزن المسموح به ويخضع ذلك لفحص يقوم به موظفون فى الميناء ، وثانيا شكل العقود وثالثا دفع الضرائب أو الرسوم الجمركية وما شابه ذلك . كما نظمت البندقية مجلسا للاشراف على التجارة وحمايتها وتمكنت أن تزيد من الامان على طول دروب البحر عن طريق عقد معاهدات أو اتفاقيات صداقة وتجارة مع القوى البحرية الاخرى الموجودة فى البحر المتوسط ، ثم أعقبها خطوة أخرى هى الحصول على الامتيازات التجارية(٣٣٢) وكان قائد كل سفينة مسئول عن سلامة سفينته وعليه أن يقسم على ذلك ، وأن يعيدها فى حالة جيدة الى دار الصناعة أو الترسانة بعد عودته . وكان فى كل ميناء يصل اليه البنادقة محطة لاصلاح التلف أو العطب الذى يصيب سفنهم . وكانوا أيضا مرتبطون جميعا بالبقاء على ظهر السفينة ابتداء من بداية رحلتهم حتى بداية نزولهم ليراقبوا سلامة الشحن وينظروا ان طاقم بحارة السفينة أخذوا كل ما يلزمهم من الطعام والشراب (٣٣٣) . وكان

---

(٣٣٢) نورمان بنز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ ، توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ١٥٦ ـ ١٥٧ .
Okey, Venice and Its Story, p. 104;
Wiel, Navy of Venice, pp. 315 - 316, 323 - 324; Hodgson. The Early History of Venice; pp. 340 - 341; Cambridge Economic History of Europe, vol, 3, pp. 49 - 50, 59 - 60.

(٣٣٣) Okey, Venice and Its Story, p. 104, Wiel, Navy of Venice, pp. 323 - 324; Molmenti, Venice, part, I, p. 134.

لقائد كل سفينة الحرية فى اختيار المرشد الخاص وطاقم البحارة من أفضل العناصر ، وكان يعتبر مسئولا عن مقدرة وكفاءة وأمانة الرجال الذين اختارهم . كما أنه ملزم بأن يكون طاقم السفينة دائما تحت السـلاح ، وكان ملاك السفن الخاصة يتعهدون أيضا على أنهم لن يسمحوا بتأجير وبيع سفنهم الا للبنادقة . والهدف من ذلك أن مصلحـة البندقية العامة مقدمة فـى كل الاحـوال والاوقات على المصلحة الخاصة (٣٣٤) . وكانت تلك الاجراءات والنظم تفرض على أولئك الاشخاص الذين يتاجرون أو يشترون سفنا من الدولة ، فلابـد أن يخضعوا للقانون العـام للدولة ، والجميع منهم ملزم بتبليغ الدولة عن بيع السفينة حتى اذا حدث ذلك خارج البلاد ، وعلى البائع أن يحضر اقرارا كتابيـا وعليه قسـم مصدق عليه من الجهة التى يتبعها المشترى ، شريطة أن يكون بندقى الجنسية (٣٣٥) .

ومن نظم التجارة البحرية أنه اذا اقترض شخص ما نقودا على ظهر سفينة وحدث أن فقدت السفينة وضاعت فلا يمكن استعادة النقود المقترضة (٣٣٦) . وكانت الملاحة تتوقف فى الفترة من أول نوفمبر حتى أول مارس من كل عام ، وذلك خوفا من أخطار العواصف وأهوال البحر . وكان للابحار مواقيت معلومة عند البحارة فى كل طريق من طرق التجارة البحرية (٣٣٧) . وعندما

---

(٣٣٤) Wiel, Navy of Venice, pp. 323 - 324;

(٣٣٥) Molmenti, Venice, part, I, pp. 134 - 135.

(٣٣٦) نورمان بنز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٦ .

(٣٣٧) ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٧ ــ ٨ ، أنظر أيضا : نورمان بنز : الامبراطورية البيزنطية ص ٢٨٥ .

تأتى ساعة الرحيل يأتى القائد الى ظهر السفينة أولا ثم من بعده طاقم البحارة بعد أن يعلن نافخوا الابواق ذلك ، ويخيم سكون تام ويكون كل رجل فى مكانه وكل مجداف فى موضعه ، وكل الاسلحة تفحص وتعد اعدادا كاملا . وعندما تعطى اشارة التحرك بواسطة النفير أو البوق تسير القافلة البحرية (٣٣٨) . لقد كان التجار البنادقة يهتمون بمصلحة البندقية أولا وقبل كل شىء ، بل كانوا يقسمون الايمان على ألا يفكروا الا فى مجد الجمهورية والقديس مرقص . وكان البنادقة فى كل مكان من العالم الذى وصلوا اليه قد عنوا جميعا تجارا كانوا أم رجال حرب سياسيين أم جوالين أو كتابا ، بأمر واحد نبيل وهو جمع المعلومات النافعة والملاحظات المفيدة عن عادات البلاد التى يزورونها ويتعاملون معها ، ومعرفة لغاتها وتجارتها وطرقها . وبعبارة أخرى معرفة كل مايمكن أن يزيد بأية وسيلة فى رخاء البندقية وعظمتها (٣٣٩) .

وعرف الايطاليون بعامة والبنادقة بخاصة المشاركة فى الاعمال التجارية ، ووضعوا لذلك نظما دقيقة للتعامل بين الشركاء . وقد ينوب أحد الشركاء عن التاجر فى القيام بأعماله فى الخارج ، والقصد من ذلك تحقيق الربح والرخاء للجميع (٣٤٠) . وكان البنادقة متشددين فى تطبيق القوانين الملاحية والتجارية . وكان لا يسمح لاى شخص بندقى أن يبيع أو يشترى بضائع تجارية أو طعام فى مدن معينة مخصوصة لعلاقاتهم السيئة معها أو يشحن حبوبا

---

(٣٣٨) Okey, Venice and Its Story, p. 105 .

(٣٣٩) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٢٩ .

(٣٤٠) The Cambridge Economic History of Europe, vol. 3, pp. 49 - 50 .

وخشبا الى موانيء أجنبية ولاى جهة غير البندقية • وكانت عقوبة المخالفة لذلك ثقيلة وشديدة ، بالاضافة الى غرامة مالية وأحيانا مصادرة واستباحة البضائع وتهديد صاحبها بالحرمان من السكن أو البيت • وبالرغم من هذه الاجراءات فان غريزة الكسب كانت تدفع بعض الافراد فى بعض الاحيان الى ارتكاب المخالفات المذكورة • فالبعض منهم يرى أن الربح أقوى من الخوف من القانون ومخالفته • وعلى سبيل المثال كان يوجد قانون فى البندقية يحرم ويمنع بيع الاخشاب فى مصر ، لان الخشب كان من المواد الحربية فى ذلك الوقت • وكان شريف بندقى فى طريقه عبر ميناء فى البحر الادرياتى ، فرأى سفينة محملة بالخشب فشك فيها وأنها قد تكون مرسلة الى مصر • فنادى على ربان السفينة وطاقمها وأوقفهم وأجبرهم على حلف القسم من جديد من أنهم سوف يطيعون قوانين البندقية ولا يخالفونها فلا يبيعون هذا الخشب الى مصر ، وذلك حرصا على عدم اتاحة الفرصة أمام الاقتصاد الايوبى للنهوض وحتى لا تتقوى مصر بهذه المواد ضد خصومها اللاتين (٣٤١) •

ولكن يجب أن يكون معلوما أن قوانين البندقية التى كانت تحرم بيع الخشب لمصر حتى لا تستخدمه فى بناء الاسطول الحربى والتجارى ، لم تكن دائما سارية المفعول ، ولم تكن دائما بتأثير من الكنيسة البابوية أو خشية من عقابها ، وانما كانت تنفذ وفقا لرغباتها ومصالحها أولا وقبل أى شيء آخر • فاذا كانت مصلحتها فى منع تصدير الاخشاب الى مصر منعتها، واذا وجدت أن مصلحتها

(٣٤١) Molmenti, Venice, part, I, pp. 122 - 123.

تستدعى بيع الخشب لمصر قامت ببيعه لها ، ومهما يكن ، فقد حاول البنادقة منع التهريب بشدة ، ومن أجل ذلك قاموا بعمليات دورية فى البحر الادرياتى وخصصوا لذلك أسطولا من القوات النهرية التى كانت دائما على استعداد لحماية المرور • ولم تكن الدولة تتراخى فى تأكيد تطبيق قوانينها • وعلى سبيل المثال تجارة الملح واحتكارها وعدم السماح لغير البندقية بالاتجار فى هذه السلعة وتحريم ذلك على غير الحكومة (٣٤٢)• وهذا الاحتكار يدل بلا شك على مدى قوة البندقية فى هذه الفترة ، والى أى حد كانت تتحكم فى تسويق مادة ضرورية لحياة الانسان فى كل مكان وزمان ، واذا وصلت القافلة التجارية البحرية الى الميناء فكان على القنصل التابع لهذه القافلة أن يقوم بفحص الحمولة ومعرفتها والتدقيق فيما هو مسجل فى سجلات المركب بحيث لا يضاف اليه شىء آخر ، وذلك حرصا على سلامة السفينة عند الوصول الى الميناء أو الرحيل منها (٣٤٣) •

وكانت السفينة اذا رست فى الميناء صعد اليها موظفون معينون سماهم ابن جبير الذى زار مصر فى العصر الايوبى باسم « الامناء » ، ومهمتهم « تقييد جميع ما جلب فيها من بضائع ثم يساق التجار بعد ذلك الى مكان التفتيش » • وكانت تلك الاجراءات تهدف الى منع التهريب حتى لا تفلت البضائع والرسوم المقررة عليها • واما القوافل البرية فانها لا تكاد تصل الى حدود البلاد حتى يهرع اليها الامناء لتحصيل الرسوم الجمركية المستحقة

(٣٤٢) المرجع السابق ص ١٢٣ ـ ١٢٤ •

(٣٤٣) Wiel, Navy of Venice, pp. 323 - 324.

عليها ، وكانت الدولة تتقاضى من تجار الروم الواردين على الثغور الاسلامية فى مصر خمس ثمن البضائع والسلع ، « ومن أجناس الروم من يستأدى منهم العشر » • وقد تصل نسبة الرسوم أحيانا الى ٣٥٪ من قيمة السلع ، وقد تنخفض الى ٢٠٪ ، وذلك يرجع الى اختلاف أنواع البضائع وقيمتها وجنسيات التجار ، وما زاد على العشر فى تلك الرسوم رتبه السلطان صلاح الدين لفقهاء الاسكندرية • وعرفت هذه الرسوم الاضافية بصادر الفرنج • واما بالنسبة للتجار البنادقة فقد كانوا يدفعون أقل من باقى الجاليات الاخرى كما لم يدفعوا رسوما اضافية تمييزا لهم عن غيرهم •

ومثلا كان تجار المسلمين الوافدين من الشرق أو الغرب يؤدون رسوما أقل مما يؤديه التجار المسيحيون ، وكان التجار الاوروبيون أيضا لا يعاملون معاملة واحدة • فكانت الرسوم تخفض على بعض الواردات لدور الصناعة من الخشب والحديد وذلك بسبب حاجة الدولة الايوبية الى هذه المواد الاستراتيجية ، كما قد تخفض الرسوم لدولة أوروبية مثل البندقية بسبب الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة بين الطرفين كامتياز خاص تشجيعا لموقف معين أو توثيقا لروابط الصداقة والتعامل التجارى بينهما • هذا عدا الرسوم الاضافية التى يدفعها التاجر مقابل استخدام المترجمين والحمالين وعمليات الوزن (٣٤٤) • وكان

---

(٣٤٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين : ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧ ، راجع أيضا : مشرفه : نظم الحكم فى عصر الفاطميين ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٩ ، سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ص ٢٥٨ ـ ٢٦١ •

النظام أيضا أنه اذا وصلت البضائع الى الميناء وانتهى الامناء من تقدير الرسوم عليها يسمح بنقلها الى الفندق أو الوكالة حيث يجرى تثمينها بواسطة سماسرة تعينهم الدولة • وتأخذ الدولة ما تحتاج اليه من بعض المواد التجارية الهامة مثل الحديد والخشب والقطران ومعلوم أن لكل جالية ـ كما قلنا ـ فندقها الخاص باستثناء البنادقة الذين كان لهم فندقين فى العصر الايوبى فى مدينة الاسكندرية وحدها يدير كل فندق منهما واحد يطلق عليه اسم الفندقى وهو المشرف على الفندق والمسئول أمام الحكومة • وجرت العادة فى الاسكندرية ألا تبحر أى سفينة من السفن الايطالية الا اذا دفعت الرسوم المقررة (٣٤٥) •

وكان من أسس النظام التجارى فى مصر فى العصر الايوبى أنَ الدولة تقوم بتقدير الرسوم الجمركية وفقا لمصالحها وقوة احتمال الاسواق ووفقا لسياستها التجارية • وقد طبق هذا النظام على الجميع من المسلمين والصليبيين والبيزنطيين وغيرهم • كما اتبع ذلك فى جميع الموانىء البحرية والطرق الصحراوية • وكان موظف الدولة المختص هو الامين صاحب السلطة والمسئول عن تنظيم الميناء • ولذلك كان يحصل على صورة من الواردات ومعرفة أصحابها أو جهاتها أو البلاد التى هى منها أو التى تسير اليها وتقدر عليها ، فاذا حدث وتعذر على أحد التجار أن يدفع ما عليه من ضرائب ، فان كان بالامكان التأجيل واستلام المبلغ المطلوب فى العام القادم ، ولكن بعد مضاعفته •

---

(٣٤٥) حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ٦١٩ ـ ٦٢٠ •

وكانت الرسوم الجمركية فى مصر ٢٠٪ وفقا للقانون · ولكن بالنسبة للقوى البحرية التجارية الصديقة من الجمهوريات الايطالية ، وخاصة البندقية ، كانت تخفض تلك الرسوم الى ١٠٪ وذلك على بعض السلع · وهكذا كان التجار الاوروبيون فى بعض الاحيان يعاملون معاملة أفضل من المواطنين والتجار المسلمين وفقا لمقتضيات الظروف والاحوال السياسية والاقتصادية ابان تلك الفترة من الزمن ·

وكان على التاجر بعد دخول الميناء أن يدفع الزكاة خمسة دراهم لكل مائتى درهم بواقع ٢½٪ من رأس المال ، وبعد ذلك يكون حرا فى تجارته وأمواله ويدخل المدينة · فاذا رغب فى مغادرتها لاسباب تجارية لمدة أربع مرات فعليه أن يدفع الضريبة ثانيا · وكانت السنة المالية للحكومة عشرة شهور ، وكان على تجارة بعض الصنائع والبضائع ضرائب شهرية · وللحكومة فى بعض الاحيان أن تعفى التاجر من الرسوم الجمركية سواء أكان مسلما أو أجنبيا ، وذلك استثناء من النظم المعمول بها ، وبذلك يسلم من سلطات الجمارك · كما كان فى مصر تنظيم لنقابات التجار التى كانت تدافع عن حقوق التجار وتساعد أعضائها ، ولم يكن لها حق الاحتكار فى الانتاج أو البيع أو الشراء ·

وكان من حق الدولة فى العهد الايوبى والمملوكى من بعده أن تساهم فى التجارة عندما تكون الدولة فى حاجة الى المال · ومن حق الخلفاء والسلاطين العمل فى التجارة ، ونعلم أن البنادقة كذلك ابتداء بالدوق والامراء وعامة الشعب كانوا يشاركون فى

الاعمال التجارية بدرجة أوسع منها عند المسلمين (٣٤٦) ٠

واذا انتقلنا الى مصر نجد أن صلاح الدين الايوبى كان قد بدأ عهده بعدة اجراءات الهدف منها تيسير عمليات التجارة الداخلية والخارجية ، فقام بالغاء المكوس الخاصة بالبهار ، وكذلك مكس صناعة البز الواردة ومكس الصادر عن البضاعة بمصر ومكس البضائع والقوافل والمكس المفروض على البائعين مقابل استخدام الاماكن المخصصة لهذا الغرض كأسواق الغنم والدواب والسمك والرقيق وغيرها ٠ كما ألغى الرسوم على أعمال البيع والشراء وعلى المتاجر والمصانع والمخازن والتفتيش على السفن بساحل النيل ورسوم حراسة الغلات وغيرها من السلع مما كان يصل الى شواطىء النيل ، ورسوم المسالخ ، ورسوم السمسرة فى عمليات البيع والشراء ، ورسوم المعديات من والى مصر من الجهات المجاورة ، ورسوم استعمال الميزان المسمى بالقبان الى غير ذلك ٠ ويفهم من ذلك ان السلطان صلاح الدين أراد أن يخفف عن المسلمين هذه الرسوم وتلك المكوس وازالة علل الناس واقامة العدل بينهم لان ذلك من أسباب قوته فى جهاده ضد الصليبيين (٣٤٧) ٠ ثم أنه كان عاملا مشجعا للتجار الاجانب والبنادقة بصفة خاصة ، على التعامل مع مصر ٠ وان ما أسقطه صلاح الدين الايوبى من المكوس كان يزيد على « نيف ومليونى دينار ومليونى أردب » وهذا يدل بلا شك على أن الدولة الفاطمية

---

(٣٤٦) Cook, Studies in the Economic of Middle East, pp. 75 - 76.

(٣٤٧) مشرفه : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ١٨ ، الحموى دمشق فى العصر الايوبى ص ٤٧ ٠

كانت تفرض الضرائب على الناس فيدفعونها نقدا أو عينا علاوة على كثرتها وشدتها (٣٤٨) · وكان التجار البنادقة وغيرهم من الايطاليين فى مصر والشام يدفعون ضرائب متنوعة منها ضريبة الصادر والوارد· ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين فتؤخذ مثلا ضريبة الوارد على البضائع التى تباع فعلا ، اما البضائع التى لا تباع ولا تجد لها سوقا فى البلاد فلا يدفع عنها أربابها رسوما ويجوز لهم فى هذه الحالة أن يعيدوا تصديرها دون دفع رسوم شريطة ألا يكون من بين هذه السلع الحديد والخشب والقار التى تحتم عليهم أن يبيعوها للحكومة بسعر السوق· أما ضريبة الصادر فيجرى تحصيلها أيضا عن جميع السلع التى يشتريها التجار الاجانب من مصر وعن الاموال التى تخرج من البلاد (٣٤٩) ·

أما القناصل البنادقة فى الخارج ، فقد كانوا يقومون بواجبات منها حماية مصالح الجالية البندقية فى البلاد التى يقيمون فيها · وكان للبنادقة فى الاسكندرية والقاهرة ودمياط قناصل (٣٥٠) ، وكانوا يقومون بمراقبة سلامة ممتلكاتهم فى الخارج ، كما كانوا يأخذون ضرائب على البضائع البندقية فى الاستيراد والتصدير ، ويباشرون أيضا أعمالهم اما وفقا لتصرفهم واما باستشارة العقلاء من سادتهم · كما أقاموا علاقات صداقة مع الاهالى ومع الاحياء الاخرى المجاورة لهم ، وقاوموا كل

---

(٣٤٨) مشرفه : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ص ٢١٩ ـ ٢٢١ .
الحموى : دمشق فى عصر الايوبيين ص ٤٧ ·

(٣٤٩) العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٢٠٧ ـ ٢٠٨ ·

(٣٥٠) Atyia, Crusade in the Later Middle Ages, p. 115 Notes 2; Cambridge Economic History of Europe, p. 60.

محاولات العنف والثورة والتمرد . وكانوا دائما أمناء ومستعدين لخدمة بلادهم (٣٥١) .

وكما ذكرنا آنفا كانت دمشق فى العصر الايوبـى تزدحـم بالتجار البنادقة . كما كانت مستقر القناصل وخاصة فى عصر الحروب الصليبية التى ازدهرت فيهاالاعمال التجارية للايطاليين. وكان فى خلال هذه المدة يرى التاجر الايطالى يهرع فى أعقاب الفارس الفرنجى (٣٥٢) . وكان منآثار هذا الازدهار التجارى ان ظهرت البنوك والمصارف فى القـرن الثانى عشر الميـلادى (القرن السادس الهجرى) فى البندقيـة ، لتسهيل المعامـلات التجارية . واستخدمت تبعا لذلك الشيكات والكمبيالات بدلا من دفع النقود . وبدأ البنك بمساهمة الدولة فقط ثم شارك النبلاء فى ذلك ، كما عرفوا القروض والسلف (٣٥٣) وكان لكل تاجر وكيل عرف باسم وكيل التجار وهو يمثل التاجر فى أعماله ويقيم فى البلاد الاجنبية بدلا من التاجر ويقوم مقامه مقابل عمولة يحصل عليها . وهذا الوكيل يقوم برعاية الوكالة أو المخازن حيث تخزن البضائع وتبرم الاعمال التجارية . وبعض الوكلاء تخصص فى أشياء معينة ، والبعض الاخر وهم الاكثرية كانوا وكلاء فى عموم الاشياء . وللوكيل صفة رسمية بحيث يحمل لقب وكيل كماحمـل اليهود فى بعض الاحيان هذا اللقب ، حتى أصبح لقب وكيل التجار يشبه الملحق الاقتصادى أوالتجارى فىالسفارات

---

(٣٥١) Molmenti, Venice, part, I, p. 120.

(٣٥٢) الحموى : دمشق فى العصر الايوبى ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٣٥٣) Henry, Historians History of the World, vol, 9, pp. 324-325; Cambridge Economic History of Europe, vol. 3, pp. 53-54.

فى العصر الحديث (٣٥٤) ·

وقد عمرت مصر فى العصر الايوبى بمختلف أنواع السلع والبضائع التى لقيت رواجا فى الخارج · اذ ذكر صاحب « النزهة الزهية »تنوع السلع بقوله «بمصر يزرع البلسان ودهنه يستعمل فى أكثر العلاج والضغط وهو من آلة الحرب التى بها قهر الاعداء ودهن الخروع وزيت الخس ودهن القرطم وزيت السلجم وخشب اللبخ وهو أملح من الابنوس اليونانى · وفى صعيد مصر خشب الابنوس الابلق وسائر العقاقير التى تدخل فى العلاج والطب وكل ما زرع فى أرض مصر ينبت فيها من نبات الهند والصين مثل الاهليليج (٣٥٥) والخيار شنبر (٣٥٦) والتمر هندى وغيره مما لا يوجد فى بلد من البلاد الاسلامية · وبها الشب الالواحى وهو أبلغ من اليمانى والعصفر (٣٥٧) والزجاج والجزع الملون والصوان وهو حجر لا يعمل فيه الحديد ··· فى مصر البز الابيض من الديبقى وغيره الذى يعمل بدمياط وتنيس» (٣٥٨)· وقال أيضا فى مصر « أن أهلها يستغنون عن كل بلد حتى لو ضرب بينها وبين بلاد الدنيا بسور لغنى عنها بما فيها عن سائر بلاد

---

(٣٥٤) Cook, Studies in the Economic History of the Middle East, pp. 61 - 62.

(٣٥٥) الاهليليج : مادة التوتيه ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٢ حاشية ٩ ·

(٣٥٦)الخيار شنبر : شجر له ثمر كالخرنوب يستعمل فى الطب كملين لطيف المنجد ص ١٩٨ ·

(٣٥٧) العصفر : هو صبغ أصفر اللون ــ المنجد ص ٥٣٢ ·

(٣٥٨) ابن أبى السرور : النزهة الزهية ورقة ٩٦ ــ ٩٨ ·

الدنيا وفيها ما ليس فى غيرها » (٣٥٩) . وقال المقدسى « وهو بلد التجارات ... ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والنحل والزبيب ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز وكتان دون ومن بوصير قريدس الكتان الرفيع، ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القفاف والحبال من الليف فى غاية الجودة ولهم القباطى والارز والخيش والعيادانى والحصر والحبوب والجليان ودهن الفجل والزنبق وغيرذلك ... »(٣٦٠).

وكان البنادقة ، بدون شك ، يتاجرون فى معظم هذه السلع لاسيما أنأراضى البندقية كانتفقيرةفى المنتجات الزراعية. وفى أيام السلطان صلاح الدين تنوعت الاشياء بمصر «ومن المستعملات المصرية الذهبية والحريرية والملحم والدبيقى (أنواع تنسب الى مدينة دبيق التى كانت بمصر) والمصمت والمغربى والعراقى ومن نسيج تونه وتنيس كل ثمين ونفيس وما شاكله من أنواع الطيب على النمط والترتيب » (٣٦١) . ويعتبر الشب من المواد التجارية الهامة فى العصر الايوبى ، وهو « حجر معروف يحتاج اليه فى أشياء كثيرة أهمها صبغ الاحمر وللروم فيه من الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة وهو عندهـم مالا بد منه ولا مندوحة عنـه ومعادنه بصحراء صعيد مصر وعادة الديوان أن ينفق فى تحصيل كل قنطار منه بالليثى (٣٦٢) ثلاثين درهما وربما كان دون ذلك ،

(٣٥٩) ابن أبى السرور : النزهة الزهية ورقة ٩٨ .

(٣٦٠) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .

(٣٦١) الاصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى ص ٢٢٥ .

(٣٦٢) وهو رطل توزن به الاشياء فى مصر علما بـأن الرطل يختلف من بلد
=

وتهبط به العرب الى ساحل قوص والى ساحل أخميم والى البهنسا ان كانأتي به من واحـات ويحمل من أى سـاحل كان فيـه الى الاسكندرية ولا يعتد للمستخدمين منه الا بما يصلح بالاعتبار فى متجرها (٣٦٣) • هذا الذى توجبه الحوطة لئلا يؤخذ فى غيرها فينقص أو يهيج به البحر فيغرق ومن خرج على ذلك فقد تعرض للـدرك وتصـدى للخطـر وهـو يشتـرى بالليثـى ويبـاع بالجروى (٣٦٤) • وأكثر ما بيع منه فى المتجر خمسة آلاف قنطار وبيع منه فى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م عندما كان الديوان جاريا فى الاشراف عليه ثلاثة عشر ألف قنطار واخر ما تقرر تحصيل جملة الى المتجر صنفه اثنى عشر ألف قنطار ، فاما سعره فمن خمسة دنانير وربع وسدس الى خمسة دنانير كل قنطار وبلغ ما يباع منه بمصر ومقداره ثمانون قنطار سبعة دنانير ونصف لكل

=

الى أخر من حيث الوزن • أنظر : ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٦٠ حاشية ١٢ وانظر أيضا القلقشندى : صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٤٥ •

(٣٦٣) معنى ذلك أنه لا يجوز المتاجرة فيه الا عن طريق الديوان (الدولة) والمتجر عبارة عما يبتاع للديوان من بضائع التجار الاجانب الواردين مما تدعو اليه الحاجة وتقتضيه فى طلب الفايدة المصلحة ، فان زاد ثمن المبتاع من التاجر شيئا عما يجب عليه من الخمس أعطى به شيئا بحق الثلثى ، وذهبا بحق الثلث واصل ثمن هذا الشب ورد فى جملة ارتفاع المتجر على عادة جرت وقاعدة استقرت (الذى يشترى المتجـر الخشب والحديد وحجارة الطواحين والبياض واما غيره فلم تجر العادة به الا أن يؤمر المستخدمون به) أنظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ •

(٣٦٤) وهو رطل توزن به الاشياء مثل : الجوز واللوز والسكر وما الى ذلك فان كل صنف من السلع له رطل خـاص به • ابن مماتى : قوانـين الدواوين ص ٣٦٠ ــ ٣٦١ •

قنطار • وليس لاحد أن يشتريه أو يبيعه سوى الديوان ومتى وجد شيء من صنفه مع أحد استهلك تغليظا فى عقوبة المعتـدى عليه (٣٦٥) • وكانت الدولة الايوبية محتكرة لتجارته ، وذلك لاهميته الاقتصادية ، خصوصا وان البنادقة كانـوا يضطرون لشراء كميات كثيرة منه لحاجة الغرب الاوروبى اليه اضافة الى البهارات والتوابل • لقد كان الغرب الاوروبى فى حاجة ماسـة ودائمة لهذه السلع ، وكانت الموانىء المصرية مملوءة بها لانها ترد اليها من الشرق الاقصى عن طريق البحر الاحمر • ولذلك كانت الاسكندرية السوق الرئيسية التى يتقابل فيها التجار البنادقة مع التجار الاخرين الذين يحضرون البهارات من الهنـد (٣٦٦) • وكانت مصر تعتبر مستودعا لكل ذلك • ففيها التوابل وجـوز الطيب والقرنفل السند والكافور وسائر منتجات الهند ، والعاج من الهند وأفريقية ، والبخور والتمر من بـلاد العـرب والنيلة واللؤلؤ بالاضافة الى الفلفل والقرفة والمسك اضافة الى منتجات مصر (٣٦٧) • وكانت توابل الهند وعطورهـا من أهـم السلع التجارية فى العصر الايوبى ويؤيد ذلك ما تضمنته المعاهـدات ونصوص المؤرخين القدامى بل لقد بلغ الامر أن أبواب الموانىء

---

(٣٦٥) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٢٧ – ٣٢٩

(٣٦٦) Cook, Studies in the Economic History, pp. 56, 73; Cambridge Economic History, vol, 3, p. 63.

(٣٦٧) توفيق اسكندر : بحـوث فـى التاريـخ الاقتصادى ص ٧٩ – ٨٠ ، شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٥ – ٣٦ ، العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ص ٢٠٤ ، Hodgson, The Early History of Venice, p. 341; Glubb, The Empire of the Arabs, p. 144.

الاسلامية الكبرى كانت عادة تسمى بأسماء السلع الهامة والضرورية فقد كان أحد أبواب الاسكندرية يسمى باب سدره ، عرف أيضا فى العهد الايوبى باسم باب البهار لان بهار الهند والشرق الواصل الى القاهرة عبر البحر الاحمر كان يحمل منها فى سفن تسير فى النيل ثم فى خليج الاسكندرية حيث تفرغه خارج الاسكندرية عند هذا الباب • واذا تعطل المسير فى بعض الاحيان فان قوافل برية كانت تحمل البهار من القاهرة وتسير بالطريق البرى وتدخل الى الاسكندرية أيضا من هذا الباب (٣٦٨) وكانت الدولة الايوبية تهتم بمصادر الاخشاب وحاولت تنمية زراعة أشجار الاخشاب التى تصلح لبناء السفن والاساطيل • وقيل أنه كان بمصر بعض الانواع التى تصلح لبناء السفن • وقال الكندى أنه يوجد بمصر معدن الزمرد وليس فى الدنيا زمرد الا الموجود فيها، ومنها يحمل الى سائر الدنيا • قال وبها حصون الذهب يفوق على كل معدن ، وفيها القراطيس كما كانت للتبر مناجم (٣٦٩) • ومن سلع الشام الهامة فى هذا العصر السكر والزجاج وأشياء أخرى كثيرة ومنسوجات قطنية وحريرية (٣٧٠) •

تلك هى أهم السلع التى كانت مصر تنتجها أو التى كانت ترد اليها من بلاد الشرق الاقصى والتى كان الغرب الاوروبى فى

---

(٣٦٨) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى ص ٨٠ ، ٨٣ ، شارل ديل: البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٥، الشيال: تاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ص ٥١٦ ـ ٥١٧ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٥ ـ ٦١٦ •
Fahmy, Muslim Sea Power, pp. 143 - 146.

(٣٦٩) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ، المجلد السابع ص ٣٣٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ج ٢ ص ١٧٣ •

(٣٧٠) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٠ ـ ١٨٤ •

أمس الحاجة اليها ، وبخاصة البخور والعطور والتوابل والشب والملح والمنسوجات والتى قامت البندقية بعملية نقلها الى موانىء الغرب .

أما أهم السلع والبضائع التى أحضرها التجار البنادقة الى مصر فى العصر الايوبى فهى تلك المواد التى تلزم الحرب والقتال مثل الاسلحة والحديد والاخشاب والقطـران والرقيق . ولقـد كانت البندقية تزود مصر بالاخشاب منذ أيام الدولة الفاطمية واستمرت فى ذلك فى العهد الايوبى ، وقـد اعترض الجهـاز الكنسى البابوى فى الغرب على ذلك فى عصر اشتد فيه الصراع الصليبى الاسلامى . وبقيت هذه الروح العدائية عند الغربيين طوال العصور الوسطى (٣٧١) ، وبالرغم من معارضة البابوية للبنادقة والقوى التجارية الايطالية والاوروبية الاخرى فى بيع المواد الحربية للمسلمين ، فان جمهورية البندقية حاولت الخروج عن هذا التحريم متعللة بمختلف العلل والمعاذير سعيا وراء الكسب خاصـة بعد انتصار صلاح الدين عـلى الصليبيين . فقد ازدادت الاعمال التجارية بين الشرق والغرب ولم تكن المدن التجاريـة الايطالية عـلى استعداد للاستجابة لنـداء البابا أنوسنت الثالث بوقف الاتجار مع المسلمين سواء فى المواد العسكرية أو فى المواد العادية حرصا منها على علاقاتها الطيبة مع المسلمين ورغبة فى

---

(٣٧١) Lewis, Naval Power and Trade, pp. 168 - 189, 208; Lewis, Shipping and Commerce, pp. 224, 445, Fahmy, Muslem Sea Power, p. 79.

الحصول على المزيد من الارباح (٣٧٢) · وكان صلاح الدين الايوبى قد عقد معاهدات تجارية مع البندقية وباقى الجمهوريات الايطالية بغرض الحصول على المواد اللازمة للحرب وخاصة الخشب والحديد والشمع والمعادن التى كانت متوافرة لديهم ومطلوبة بوجه خاص للمسلمين · ولذلك كان السلاطين الايوبيون يرفضون التعامل التجارى فى أى من البضائع الاخرى المطلوبة الى المدن التجارية الاوروبية الا اذا قامت الاخيرة بتزويد مصر بالمواد العسكرية مقابل ذلك · فاضطرت الجمهوريات الايطالية أمام هذا الموقف الحاسم الى الاستجابة لمطالب المسلمين لانها سوف تفقد أرباحها من الاتجار معهم ان هى استجابت للحظر الذى قررته البابوية والكنيسة اللاتينية فى الغرب (٣٧٣) · كذلك جلبت سفن البندقية الى مصر منتجات الغرب الاوروبى ومن بينها الاقمشة الصوفية من انجلترا وبعض المصنوعات من شمال ايطاليا وكميات من مواد الطعام الاخرى التى ترسل الى الشرق وبعض المعادن كالفضة وغيرها (٣٧٤) · وما كانت تحمله البندقية من بضائع الى الشرق من انتاجها المحلى كان ضئيلا فقد حملوا السلع التى كانت تأتى الى البندقية من ايطاليا والمانيا كالفواكه الجافة واللحوم والاسماك المجففة والمعادن الخام والمصنوعة والاخشاب للبناء ولصنع أدوات الحرب والقتال ونسيج القنب والكتان

---

(٣٧٢) Pirenne, Medieval Cities, p. 61;
Coulton, Medieval Panorama, p. 322.

(٣٧٣) ارشيالد لويس : القوى البحرية ص ٢٧ ، عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٧٥ ، ٢٧٣ ·

(٣٧٤) Ashiely, Medieval Civilization, p. 476.

والصوف والاجواخ الصوفية (٣٧٥) وقال هنرى بيرين : « أما المدن الايطالية فكان نشاطها الاساسى مركزا فى حاصلات الشرق، اذ قامت باستيراد التوابل والعاج والحراير والبخور والعطور والمصنوعات الزجاجية وغيرها لتصدرها الى مختلف البلاد الاوروبية (٣٧٦) • ومن أهم التجارات التى أحضرتها البندقية الى مصر الرقيق ، فقد حصلت على الاموال الوفيرة من وراء هذه التجارة ، وكانت البلاد الاسلامية تهتم بشراء الرقيق لاستخدامهم فى الاعمال العسكرية ، خاصة بعد أن يعتنقوا الاسلام • وكانت البندقية تأتى بالرقيق من مختلف الجهات لتبيعه فى مصر • والمعروف أنها باعت بعض الاطفال الاسرى فى الحملة الصليبية المعروفة بحملة الاطفال سنة ١٢١٢م،اذوقع معظمهم أسرىفىأيدى التجارالايطاليين الذين نقلوهم الىمصروباعوهمفىأسواقها• وهكذا كانت موانىء الاسكندرية ودمياط سوقا رائجة لبيع الرقيق الاتى مع السفن الايطالية • واتسعت تجارة الرقيق بأن أحضر التجار البنادقة أطفالا من بلاد القبشاق التتار وباعوهم فىمصر للسلاطين الايوبيين ثم المماليك من بعدهم • ومنحوا مقابل ذلك امتيازت تجارية واسعة ، خاصة وان الرقيق أصبحوا مصدرا للقوة العسكرية فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم المماليك (٣٧٧) •

---

(٣٧٥) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٣٥ ، وراجع أيضا :
Lopez and Raymond, Medieval Trade, p. 116.

(٣٧٦) Pirenne, Economic and Social History, pp. 143 - 145.

(٣٧٧) Okey, Venice and Its Story, pp. 91 - 92; Molmenti, Venice part, I, pp. 124 - 125; Wiel, Navy of Venice, pp. 321 - 322; Newton, Travel and Travellers, p. 108; Atyia, Crusade;

=

كما احتكرت حكومة البندقية تجارة الملح فى البحر المتوسط وعقدت معاهدات مع تلك الاقطار التى تنتج الملح على أن تقوم البندقية بشراء انتاجه ، ثم تقوم بدورها بتسويقه فى العالم بالطريقة التى تراها وبالسعر الذى تريده • وكانت تجارة الملح فى البندقية مصدرا هاما من مصادر الدخل والثروة ، وفى عام ١٢٤٣ م / ٦٤١ هـ انشىء جهاز حكومى للاشراف على تجارته (٣٧٨) ، لان البندقية حريصة على استغلال الاسواق التجارية فى العالم وحرمان غيرها من الاستئثار بهذا الربح •

ومن وسائل ازدهار النشاط الاقتصادى فى البندقية النهضة الصناعية فقد اشتغل البنادقة بالصناعات المختلفة وأقاموا العديد من الصناعات فى البندقية وفى المستعمرات التى انشاوها فى الخارج • ومن اهمها صناعة الاسلحة • وفى عهد الدوج فاليرى تم تأسيس دار صناعة الاسلحة وأدى ذلك الى تطور قوة البندقيه وحصولها على الثروة من ناحية آخرى (٣٧٩) يضاف الى ذلك صناعة الزجاج والاقمشة المذهبة والصناعات الفضية وصناعة

=

Commerce and Culture, p. 182; Torrey, General History of the Christian Religion And Church, pp. 370 - 373; Lewis, Shipping and Commerce, pp. 225, 445; Lewis, Naval Power and Trade. 174; Lopez, Medieval Trade p. 115.

٣٧٨) Molmenti, Venice, part, I, pp. 115, 124; Hodgson, the Early History of Venice, p. 341; Cambridge Economic History, vol, 3, p. 16.

(٣٧٩) Wiel, Venice, pp. 89 - 90.

السفن والاساطيل (٣٨٠) .

وأما فى مصر فى عصر العهد الايوبى فقد نشطت صناعة النسيج وخاصة فى مدينة الاسكندرية ويعمل بهذا الثغر من الاقمشة العجيبة التى لاتوجدفىغيره والاشياء المفردة مما لوأردنا نشرح ذلك لاحتجنا الى عدة مجلدات (٣٨١) . وكذلك اشتهرت تنيس ودمياط بالمنسوجات والثياب على اختلاف أنواعها حتى كان لها شهرة عالمية فى ذلك المضمار (٣٨٢) .

وازدهرت صناعة الزجاج فى العصر الاسلامى وكانت الاسكندرية من أهم أماكن صناعته فى العصر الايوبى بصفة خاصة واشتهر المصريون بمهارتهم فى صناعة الزجاج حتى كان الانسان يرى يده اذا وضعها داخل اناء الزجاج . كما اشتهرت مصر بصناعة الاساطيل الحربية والسفن التجارية والاسلحة ومعدات الحروب بالاضافة الى صناعة السكر والورق . كما وجدت بها صناعات المعادن المختلفة وذلك بسبب وجود المعادن بها مثل الذهب والفضة والياقوت والجواهر (٣٨٣) . ولا بد أن الكثير من هذه الصناعات وبخاصة غير الاستراتيجية ، كانت تجد

---

(٣٨٠) Ashiely, Medieval Civilization, p. 456; Hitt, History of the Arabs, pp. 613 - 614.

(٣٨١) غرس الدين خليل : زبدة الممالك ص ٤١ ، القلقشندى : صبح الاعشى فى صناعة الانشا جـ ٣ ص ٤٠٤ ، راجع أيضا : سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣٨٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٣ ، ابن رسته : الاعلاق النفيسة المجلد السابع ص ٣٣٨ ، أنظر : الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ٦٩ - ٧٠ ، على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٦ .

(٣٨٣) ابن منكلى : الاحكام الملوكية لوحة ٤١ .

طريقها خارج البلاد عن طريق التجار البنادقة الوسطاء • وعلى الرغم من ازدهار التجارة فى العصور الوسطى ووجود علاقات تجارية بين البندقية ومصر فى العصر الايوبى ، فان هناك جملة من العقبات كانت تعرقل أو تقلل من النشاط التجارى فى بعض الاحيان ، وربما تؤدى الى تأزم العلاقات بين الطرفين • وفى مقدمة تلك العقبات هى نظرة الكنيسة اللاتينية الى الاعمال التجارية باعتبار أنها من أعمال الخطيئة وخاصة فى القرون الاولى • وعلى حد قولهم بعبارة أخرى « يمكنك أن تشترى خامات لعملك الخاص اما أن تشترى البضاعة المصنوعة بقصد الاتجار بها فذلك خطيئة » • وهذا بالطبع كان يعوق تقدم التجارة ويحول دون ازدهارها ، بل كان قليل المرونة بحيث لم يسمح حتى بافساح المجال لاحد بأن يقيم حانوتا فى قرية «الامر الذى حدا بالكنيسة اللاتينية الى التراجع عن هذا الموقف الهزيل » لان الامور فى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) بعد نهضة المدن وحكومات القومونات التى ترتكز أساسا على التجارة والصناعة لم تكن تسمح بفرض قيود على التجارة النامية • وكان لابد للكنيسة من أن تطور نفسها وتظهر شيئا من المرونة فى قوانينها والا خرجت الامور من يدها (٣٨٤) • ويتضح هذا بجلاء فى موقف البندقية من قرارات الحظر والتحريم البابوية الخاصة بمنع الاتجار مع المسلمين فى فترة الحروب الصليبية • وبقيام الحروب الصليبية اشتد التعصب الدينى ووقفت الكنيسة اللاتينية

---

(٣٨٤) كولتون : عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ص ٢٨٧ .
Lopez, Medieval Trade, p. 101; Torrey, General History of the Christian Religion and Church, p. 364.

بزعامة البابا موقفا متشددا من المتاجرة مع المسلمين وخصوصا بعد أن أحرز الايوبيون الانتصارات الكثيرة على الصليبيين وتحول المسلمين من الدفاع الى الهجوم بعد أن اجتازوا مرحلة الضعف والانهيار وبدأوا مرحلة التكتل واليقظة والافاقة ٠ ولذلك بدأ التفكير فى أوروبا المسيحية فى فرض حصار اقتصادى على مصر مركز الدولة الايوبية وقاعدة قوتها ، وكان هذا الحصار يهدف الى منع وصول المواد الحربية الى مصر بقصد اضعافها ٠ وخاصة الخشب والحديد والاسلحة والرقيق بالاضافة الى محاولة احتلال مصر عسكريا حتى يمكن للصليبيين السيطرة على بـلاد الشـام والاراضى المقدسة ٠ واستهل البابا أنوسنت الثالث (١١٧٨ - ١٢١٦ م) ذلك بتحريم كل تجارة مع المسلمين ٠ غير أنه ترتب على الاحتجاجات العديدة الموجهة ضد هذا القرار من المدن التجارية الايطالية وخاصة البندقية أن منح البابا بعض التنازلات ، فقصر الحظر المذكور على بيع المواد التى تخدم مباشرة القـوة الحربيـة بمصر ٠ غير أن الكنيسة والبابوية ازدادت صرامة فى قرارها عام ١٢١٥ م / ٦١٢ هـ وأصدرت أوامرها بتشديد الحظر وجعـل الحرمان من الكنيسة جزاء كل من يقوم بالتعامل مع المسلمين ، وخاصة من يقدم لهم الاسلحة والمؤن (٣٨٥) ٠وكان هذا الحظر موجها فى الدرجة الاولى الى الدولة الايوبية فى مصر والشام التى قامت على أساس الجهاد ضد الفرنج الدخلاء ٠ وان تكرار صدور أوامر البابا بمنع التجارة مع المسلمين يدل على أن هذه التجارة كانت ذا أثر فعال ، وانها لم تتوقف بتاتا ٠ وكان كثير من التجار

(٣٨٥) Hodgson, The Early History of Venice, pp. 160-161, 164-165.

لا يلتزمون بهذه القرارات ويؤثرون الكسب والربح على رضاء البابوية ، وخاصـــة البنادقة الذين يهدفـــون الى عظمة بلادهـــم ورفعتها • ولم يكن ثمة الا أقلية من التجار حافظت على ما يربطها بالمسيحية من نصائح وعواطف •

وقد ورد فى قرارات البابوية ما يشير الى التشديد بدليل عدم امتثال التجار لقراراتها • فيقول مرسوم بابوى « كل من يتجاسر على أن يبيع للمسلمين الحديد أو الاسلحة أو الاخشاب التى يجرى استخدامها فى العمائر البحرية أو بناء السفن وكل من يدخل منهم فى خدمة المسلمين قائدا لسفينة ومرشـــدا لهـــا سوف يتعرض للحرمان من الكنيسة ولا يكون جزاؤه الا مصادرة متاعه وضياع حريته الشخصية » (٣٨٦) •

وكان المسلمون أيضا يحرمون بالمثل بيـــع كل المـــواد التى تعين عدوهم على محاربتهم ويتشددون فى ذلك • كما أن الفقهاء وضعوا شروطا للتعامل مع الصليبيين (٣٨٧) • ومن بين عقبات التجارة الاخرى الحروب الصليبية نفسها ، فقد كانت تؤدى فـــى بعض الاحيان الى توقف التجارة بسبب سوء تصرف العـــدو مع التجار المسلمين • وعلى الرغم من ذلك قال ابن جبير ان التجار كانوا يعملون فى تجارتهم رغم اشتداد الحرب وقال «تجار النصارى

---

(٣٨٦) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ٣٢٣ ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٧٩ •

Hodgson, The Early History of Venice, pp. 162 - 163, 434; Setton, History of the Crusades, vol, 2, p. 161; Lewis, Naval Power and Trade, p. 116.

(٣٨٧) ابن دقماق : نزهة الانام لوحة ٢٩ •

أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض ••• وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم • وهي من الامنة على غاية ، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الاحوال وأهل الحرب مشتغلون بحربهم والناس في عافية والدنيا لمن غلب » (٣٨٨) •

وعلى الرغم من الرأى السابق فان التجارة قد تتعطل بسبب ضراوة الحرب،لا سيما اذا كانت بين المسلمين والمسيحيين ولاسباب دينية مثل الحروب الصليبية • كما أن بعض التجار كانوا يقومون بأعمال التجسس • أضف الى ذلك عدم توفر الامن في البر والبحر نتيجة الحروب • مثال ذلك أن أسطولا بندقيا في مايو ١١٢٣ م / صفر ٥١٧ هـ أسر أسطولا تجاريا اسلاميا من عشر سفن محملة بالبضائع • هذا بالاضافة الى خطر القراصنة في البحر حتى اضطر التجار أن يسيروا في شكل قوافل بحرية تبحر في مواعيد معروفة خوفا من أهوال البحر • كما تقوم بحراسة القوافل التجارية البحرية بعض السفن الحربية لحمايتها حتى تم تطهير البحر من القراصنة في أواخر العصور الوسطى ، وأصبحت البندقية تعتبر البحر الادرياتي منطقة نفوذ لها قامت بتطهيرها من القراصنة لتأمين تجارتها (٣٨٩) • وكان من نتيجة تقدم التجارة وازدهارها في عهد الدولة الايوبية أن اشتد الصراع والتنافس بين القوى التجارية وخاصة البندقية وجنوه وبيزا وبيزنطه وبعض الدول الاوروبية الاخرى التي تطل على

(٣٨٨) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٧ •

(٣٨٩) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ٢ ص ١١٥ ـ ١١٦ •

ساحل البحر المتوسط • الا أن المنافسة والصراع بين المدن التجارية الايطالية كان شديدا فى هذه الفترة وكان هذا الصراع ينعكس على العلاقات بين البندقية والدولة الايوبية التى كانت تحرض هذه القوى على المنافسة حتى لا يتفقوا على أمر قد يضر بالدولة الايوبية ومصالحها العليا ، خصوصا انهم جميعا كانوا يتمتعون فى الامارات اللاتينية بالامتيازات الواسعة • هذا فضلا عن أن منافسة هذه الجمهوريات فيما بينها لدرجة الدخول فى معارك حربية كان يؤدى الى ضعف الصليبيين ويمهد لزوال ملكهم من منطقة الشرق الادنى الاسلامى (٣٩٠) •

وخلاصة القول أن الدولة الايوبية كانت دولة جهاد وقتال وفى حرب دائمة مع أعداء المسلمين ، فكان لابد لها من الحذر فى التعامل مع هؤلاء جميعا وخاصة البندقية • فهم تارة يأتون تجارا ، وأخرى يأتون غزاة لا تطاق ضراوتهم ، أو جواسيسا لا يؤمن جانبهم • وان كان هذا لا يمنع من القول بأن البنادقة بذكائهم ودهائهم وسعة حيلتهم وبعد نظرهم أمكنهم الحصول على المرتبة الاسمى بين الجاليات التجارية الاخرى بالنسبة لعلاقاتهم

(٣٩٠) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ص ٤٠ ، ٥١ ، ٥٤ ، جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على بلاد الشام ص ٣٠٢ ، ارشيبالد لويس : القوى البحرية ص ٢٦٦ – ٢٦٧ ، سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٥ ، عبادى وسالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ١٧٣ – ١٧٦ •
راجع أيضا :
Cook, Studies in the Economic History of the Middle East, p. 66, Wiel, Navy of Venice, pp. 322 - 323; Pirenne, Economic and Social History, pp. 10 - 21; Idem, Medieval Cities, p. 63; Setton, History of the Crusades, vol, 2, p. 520.

مع مصر فى العصر الايوبى ويمكن أن نقرر أيضا أن قوة الدولة الايوبية هى التى كانت تفرض على البندقية وغيرها من القوى التجارية الاوروبية موقفا معتدلا فى العلاقات بين الطرفين ، فى حين كان التطرف يأتى من جانب القوى الاجنبية عندما كانت تشعر بضعف الدولة الايوبية . وهذا مصداق للقول الشريف « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » .

الخاتمة

تقع الفترة الزمنية موضوع البحث فى وقت كان فيه العداء بين الشرق والغرب قد بلغ ذروته • فالصليبيون لا زالوا يحتلون جزءا هاما فى الشرق الادنى الاسلامى وبصفة خاصة على امتداد الساحل الشامى ، ويحاولون التوسع واحتلال المزيد من الاراضى الاسلامية لتأمين وجودهم فى الاراضى المقدسة • وكان ضعف المسلمين آنذاك مشجعا لهم على العدوان ، ووضح ذلك من خلال الحملة الصليبية الثانية التى حاولت احتلال دمشق ثم محاولات الصليبيين الاستيلاء على مصر في أواخر عهد الدولة الفاطمية •

وكانت الدولة الايوبية وليدة تلك الظروف الصعبة التى تطلبت من ينهض للجهاد ويعيد الامل الى نفوس المؤمنين • وكانت تلك الدولة هى التى غيرت موازين القوى فى الشرق الاسلامى ، ونقلت المسلمين من موقف الضعف والارتداد الى موقف القوة والهجوم ، وتحرير الارض الاسلامية •

وكان صلاح الدين الايوبى مؤسس تلك الاسرة قد بذل جهدا شاقا فى سبيل اقامة جبهة اسلامية موحدة تقف فى وجه الفرنج الغرباء • والعلاقة بين البندقية ومصر فى العصر الايوبى تأتى فى هذا الوقت حيث اشتد العداء والتعصب بين المسيحيين والمسلمين ، ونتج عن ذلك أن موقف البنادقة أصبح حرجا مع اخوانهم فى الجنس والدين ومع العالم المسيحى بأجمعه والبابوية ، وان كانت تحرص فى نفس الوقت على عدم التضحية بمصالحها التجارية فى مصر التى كانت قائمة ومعززة قبل ذلك

بفترة غير قصيرة . الا أنها كانت تضطر للدخول فى عمل عسكرى مع الصليبيين ضد المسلمين ، لان ما تجنيه من أرباح من ذلك كان يفوق أرباحها من التجارة مع المسلمين .

والحق أن البنادقة لا يمكن دراسة تاريخهم السياسى والعسكرى منفصلا عن التاريخ الاقتصادى والتجارى . اذ أن التلاحم بينهما وثيق والتحركالسياسى والعسكرى ينتهى الى تحقيق الاهداف الاقتصادية والتجارية . والامثلة على ذلك كثيرة منها شروط البنادقة مع الصليبيين فى مقابل مساعدتهم ضد المسلمين . كذلك لا يمكن فصل تاريخهم عن السلطات الاسلامية الموجودة فى الشرق الادنى ابان تلك الفترة من الزمن . فالمصالح المشتركة كانت أحيانا تدفع الفريقين الى الالتقاء والتفاهم والقتال دائر بين الصليبيين والمسلمين .

ويلاحظ من هذه الدراسة أيضا أن ضعف الدولة الايوبية فى بعضالفترات كان يتبعه فى الجانب الصليبى قوة لها أثرها فى ازدياد الارتباط الصليبى بالبنادقة والتعاون معهم ضد المسلمين.

وهنا يتضح أيضا أن مصالح البنادقة كانت فوق أى اعتبار آخر ، فهم يرتمون فى أحضان الفرنج اذا كان فى ذلك مصلحة لهم ، ويتخلون عنهم ويتفاهمون مع الايوبيين اذا وجدوا أن كفتهم هى الراجحة .

ومن الحقائق التى توصلنا اليها أن البندقية لم تشارك فى بعض الحملات ـ أو كان لها موقفا خاصا ، بسبب عدم ثقتها

بامكانية تحقيق الهدف منها مثل الحملة الصليبية السادسة التى قادها فردريك الثانى وكذلك الحملة السابعة بقيادة لويس التاسع فى بدايتها ٠

ولعله مما يتضح مما تقدم أن البنادقة حكومة وشعبا لم يكن تعنيهم المسيحية بالقدر الذى يعنيهم نشاطهم التجارى ٠ ومن ثم لم يكن لهم نشاط الا فى حدود ما يحقق لهم الكسب المادى ٠ وكان موقفهم يتكيف وفقا لهذا الهدف ٠ ولذلك لم يهتموا كثيرا بالاراضى الصليبية الداخلية التى لن يفيدوا منها كثيرا لبعدها عن البحر ، وانما ركزوا نشاطهم وقوتهم على الساحل والموانىء الهامة حيث التجارة والبحر ٠

وهكذا نجد أن الحروب الصليبية جعلت من العلاقات بين الايوبيين والبنادقة علاقات ذات طابع خاص ، فالايوبيون مسلمون وعليهم عبء الجهاد ضد الفرنج والبنادقة مسيحيون ولهم دور فى الحملات الصليبية ، ولكن المصالح المشتركة لكل من الايوبيين والبنادقة جعلتهم يلتقيان ويتفاهمان فى معظم الاحيان بينما الحرب دائرة فوق رقعة الشرق الادنى بين المسلمين والصليبيين والعداء على أشده بين الطرفين ٠ ولكن مصر الايوبية تريد المواد الاستراتيجية اللازمة لجهادها ضد الفرنج والتى تيسر لها البندقية سبل الحصول عليها ٠ والبندقية بدورها تدرك تماما أن تعاملها مع مصر يحقق لها الربح والرخاء ، وانها اذا وقفت موقفا معاديا من مصر فسوف تعرض مصالحها التجارية لخطر محقق ٠ كل هذه الاعتبارات هى التى كيفت موقف كل من البندقية ومصر من الطرف الآخر ٠

والمعروف أن الدولة الايوبيــة واجهت أعبــاء ومسئوليات عديدة فى الداخل والخــارج كانت تجعلهــا تتنــازل عن بعض الامتيازات للبنادقة والمدن التجارية الاخرى لتضمن حيادها من ناحية ولتكون هذه الامتيازات سلاحا بحدين تهددها به اذا مــا حاولت الانضمام الى الجانب الصليبى • وآية ذلك الحملة الرابعة والحملة السابعة • ولقــد استطاعت الدولة الايوبية بالسياسة والحكمة والاتصالات الدبلومــاسية أن تتجنب الحملة الرابعــة ونجحت فى التأثير على البنادقة بتحويلها الى القسطنطينية • هذا بالاضافة الى عوامل أخرى أوقعت الخلاف فى العالم المسيحــى ، مما عاد على الايوبيين بالكثير من الفائدة •

ومع ذلك فقد كانت الدولة الايوبية تلجأ فى بعض الاحيان الى المهادنــة، والحلول السلمية وذلك لاسبــاب داخلية وأخــرى خارجية كانت تدفعها الى اتخاذ مثل هــذه المواقف • مثــال ذلك موقفها من حملة الامبراطور الالمانى فريدريك الثانى ، والدخول فى اتفاق هدنة معه دون اللجوء الى الحرب •

ولا خلاف أن العلاقات بين البندقية والدولة الايوبية ربما كانت لها طبيعة أخرى لو لم تكن الحروب الصليبية قائمة فى تلك الفترة • لان الحروب الصليبية قد أثرت على طبيعة هذه العلاقات بالنسبة لكل من مصر والبندقية ، وكذلك بالنسبة لموقف البابوية من البندقية •

ومن الاستنتاجات التى توصلنا اليها أيضا أن سياسة الغرب الاوروبى كانت دائما تعتمد عــلى المراوغة وكانت سياســة ذات وجهــين مخادعين • فكان البنادقة يتفقون مــع الايوبيين بعــدم

مساعدة الصليبيين فى بعض الاحيـان ، الا أنهـم لا يلبثوا أن يدخلوا فى اتفاق آخر مع الصليبيين يناقض اتفاقهم مع الايوبيين • وبالمثل كانوا أحيانا يتعاونون مع الايوبيين ويوهمون بنى جنسهم أنهم على خلاف مع المسلمين •

ومن الحقائق التى تكشف عنها هذه الدراسة أن الغرب اللاتينى فـى العصر الوسيط كان يناصب المسلمين العـداء وتلتقى آراء الغرب جميعا فى عدم اتاحة الفرصة للمسلمين من أجل النهوض بقوتهم واقتصادهم ولذلك فرض الاوربيون فى عصر الحروب الصليبية حظرا على المواد الحربية وعدم تصديرها للمسلمين كما حاولوا حرمان البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية من أرباح التجارة • وعلاقة البابوية بالبنادقة ابان الفترة موضوع البحث خير دليل على ذلك •

وكذلك من أهم الحقائق التى كشف عنها هـذا البحث أن مصر كانت ولا زالت قلب العالم الاسلامى فى منطقة الشرق الادنى وهى مركز قوته وأمداده بالمـال والرجال والسلاح • وقد بدا ذلك واضحا تماما فى العصر الايوبى بعد يقظة المسلمين وافاقتهم فى بواكير القرن السادس الهجرى (بدايات القرن الثانى عشر الميلادى) • وقد حاول الغرب الاوروبـى قهر مصر واستخـدم الصليبيون فى ذلك وسائل عديدة منها القوة المسلحة والحصـار الاقتصادى • وموقف البابوية من التعامل الاقتصادى مع المسلمين وقراراتها بحظر تصدير المواد العسكرية الى مصر واضح تماما وبخاصة انعكاساته على العلاقات البندقية الايوبية •

لقد كانت الدولة الايوبية تقف بحزم ودون تردد ضد العدو

الصليبى • كذلك كانت واضحة فى موقفها من التعامل مع أعدائها فى التجارة وعدم السماح لهم بالتزود بما يريدون من بضائع ومتاجر الشرق ما لم يقوموا بدورهم بتزويد مصر والمسلمين بما هم فى حاجة اليه من مواد عسكرية وتجارية • ولعل شعار البنادقة (لنكن أولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيين) يعكس هذا الرأى تماما ، ويوضح خروج البنادقة عن القوانين وقرارات الحرمان البابوية فى كثير من الاحيان بسبب التعامل مع الايوبيين جريا وراءالكسب المادى فقط وتجنبا للاضرار بمصالحها التجارية مع المسلمين •

لقد استغلت الدولة الايوبية كل الوسائل فى سبيل تدعيم قوتها العسكرية فىالبر والبحر والحاق الهزيمة بعدوها الصليبى، كما فعل البنادقة كل شىء فى سبيل عظمة البندقية ومجدها وتجاوزوا فى كثير من الاحيان الرأى العام الاوروبى والقرارات البابوية •

وهكذا كانت تتم اللقاءات السلمية بين دولة بنى أيوب فى مصر والشام وبين البنادقة ، سواء فى شكل سفارات أو مكاتبات أو اتصالات تجارية - كانت تتم هذه اللقاءات السلمية التى فرضتها طبيعة الصراع الدامى المرير بين المسلمين والصليبيين قائما على قدم وساق • وكانت المصالح العليا لكل من البندقية والاوروبيين الى جانب المنافع الخاصة تتداخل وتتشابك وتلتقى وتتصارع وفقا لمقتضيات الظروف والاحوال السائدة فى كل من العالمين المسيحى والاسلامى بوجه عام وفى كل من البندقية ومصر على وجه الخصوص •

أولا : المخطوطات والمخطوطات المصورة

ابن أبي السرور : (ت ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م) محمد بن محمد بن أبى السرور زين الدين البكرى :

١ ـ «النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية»·
دار الكتب المصرية ـ رقم ٢٢٦٦ تاريخ ·

٢ ـ « عيون الاخبار ونزهة الابصار » ·
دار الكتب المصرية ـ رقم ٧٢ م تاريخ ·

ابن ابى بكر : (ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م) محمد بن أبى بكر بن على ابن عبد الملك بن حماد بن ركين :
« روضة الاعيان فى أخبار مشاهير الزمان » ·
دار الكتب المصرية ـ الخزانة التيمورية ·

ابن أيبك : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :

١ ـ « درر التيجان وغرر تواريخ الزمان » ·
دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٤٠٩ تاريخ ·

٢ ـ « كنز الدرر وجامع الغرر » ٩ جـ ·
دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٦٤٣ تاريخ ·

ابن بهادر : (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) محمد بن محمد بن بهادر :
« فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر » ·
دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٩٧٧ تاريخ ·

ابن دقمـــاق : (ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٧ م) صارم الدين ابراهيم بن محمد ايدمر العلائى ٠

« نزهة الانام فى تاريخ الاسلام » ٠
دار الكتب المصرية ـ رقم ١٧٤٠ تاريخ ٠

٢ ـ « الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين » ٠
دار الكتب المصرية ـ رقم ١٥٢٢ تاريخ ٠

ابن منكلى : (ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧ م) محمد بن منكلى :
« كتاب الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فـن القتال فى البحر » :
مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ـ تصوير شمسى رقم ٩ م ٠

ابن وصيف شـــاه :
« جواهر البحور ووقائع الامور وعجائب الدهور » ٠
دار الكتب المصرية ٠

ابن الفـــرات : (ت ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ ـ ٢ م) ناصر الدين محمـــد بن عبد الرحيم بن عـــلى بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز بن محمد الحنفى المصرى المعروف بابن الفرات:
« تاريخ الدول والملوك » ـ ١٨ مجلدا ـ
دار الكتب المصرية ـ رقم ٣١٩٧ ـ تصوير شمسى ٠

أبو حامـد : (ت ٨٨١ هـ / ١٤٧٦ م) محمد أبو حامد :
« دول الاسلام الشريفة البهية ٠ وذكر ما ظهر لى من حكم الله الخفية فى جلب طائفة الاتراك الى الديار المصرية » ٠

دار الكتب المصرية .

ابو الفداء : (المنوفى ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) الملك المؤيد عماد الدين :

« التبر المسبوك فى تاريخ الملوك » .

دار الكتب المصرية .

أبو شامه : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن اسماعيل ابن ابراهيم بن عثمان :

« الذيل على الروضتين فى أخبار الدولتين » ٢ جـ .

دار الكتب المصرية ـ رقم ٩٩٣ تاريخ ـ تصوير شمسى

أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي :

« مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » .

دار الكتب المصرية .

بامخرمه : (عاش فى القرن العاشر هـ / السادس عشر الميلادى) أبو حمد بن عبد الله بن أحمد بن على :

« قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر » ٦ جـ .

دار الكتب المصرية ـ رقم ٤٤١٠ تاريخ .

البغدادى : (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) أحمد بن عبد الله :

«عيون آخبار الاعيان ممن مضى من سالف العصر والازمان»

دار الكتب المصرية : رقم ٣٨١٠ تاريخ ـ تصوير شمسى

البكرى : (ت ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م) العلامة محمد بن أبى السرور محمد بن أحمد البكرى الصديقى الوارثى سبط

آل الحسن :
« الروضة الزهية فى ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية » .
دار الكتب المصرية ــ رقم ١٤٥٢ تاريخ .

الذهبى : (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز الذهبى الدمشقى :
١ ــ « دول الاسلام » .
دار الكتب المصرية ــ الخزانة التيمورية .
٢ ــ « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » .
دار الكتب المصرية .

السلامى : (تاريخ الوفاه غير معروف) شهاب الدين أحمد :
« مختصر التواريخ » .
دار الكتب المصرية ــ رقم ١٤٣٥ تاريخ .

العصامى : (ت ١١١١ هـ / ١٦٩٩ م)عبد الملك بن حسين بن عبد الملك :
« سمط النجوم العوالى فى أنباء الاوائل والتالى » .
دار الكتب المصرية .

على دده : (ت ١١٠٧ هـ / ١٥٩٨ م) على دده بن مصطفى بن علاء الدين :
« محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر » .
دار الكتب المصرية .

انعمـــرى : أحمد بن سعد الدين الغمرى العثمانى :
« ذخيرة الاعلام بتواريخ الخلفاء الاعلام » .
دار الكتب المصرية .

العينى : (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)
بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى :

« عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » ٦٩ مجلد .
دار الكتب المصرية . رقم ١٥٨٤ ـ تصوير شمسى .

الفيــومى : (توفى حوالى ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) أحمد بن محمد
بن على :

« نثر الجمان فى تاريخ الاعيان » المجلد الثانى .
دار الكتب المصرية ـ رقم ١٧٤٦ تاريخ .

القرمانـى : (ت ١٠١٩ هـ / ١٦١١ م) أبو العباس أحمد بن
يوسف ابن أحمد :
« أخبار الدول وآثار الاول » .
دار الكتب المصرية .

الكتبــى : (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر بن أحمد بن
عبد الرحمن بن فخر الدين :
« عيــون التواريــخ » .
دار الكتب المصرية ـرقم ١٤٩٧ تاريخـ تصويرشمسى

مرعى المقدسى : (ت ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٤ م) مرعى بن يوسف بن
أبى بكر بن أحمد :

« نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الخلفاء والسلاطين » .
دار الكتب المصرية .

يوسف الملوانى : (عاش فى القرن الثانى عشر الهجرى) :
« تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » .
دار الكتب المصرية : تصوير شمسى .

ثانيا : المصادر الاصلية العربية

ابن أبى السرور : (تاريخ الوفاة غير معروف) الفقيه أبو المعن على بن أبى عبد الله محمد بن أبى السرور عبد الرحمن الروحى :

« بلغة الظرفاء فى ذكرى تواريخ الخلفاء »
الطبعة الاولى ـ مصر ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م

ابن الاثير الجزرى : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م) على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الاثير الجزرى :

١ ـ « التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكية » .
تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ـ القاهرة : دار الكتب الحديثة .

٢ ـ « الكامل فى التاريخ » ١٢ ج .
الطبعة الازهرية ـ ١٣٢٠ هـ / ١٨٤٤ م .

٣ - « أتابكة الموصل (مجموعة الحروب الصليبية والمسلمين ج ٢) .

ابن بطوطه : (عاش فى القرن الثامن الهجرى) أبو عبد الله بن محمد حسن ابراهيم المعروف بابن بطوطه :

« الرحلة المسماه : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار » .

الجزء الاول طبع فى القاهرة - ١٩٥٨ م .

ابن حوقل : (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو القاسم بن حوقل :

« المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » .

والمعروف بصورة الارض

ابن خرداذبه : (ت فى حدود ٣٠٠ هـ) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبه :

« المسالك والممالك » .

مكتبة المثنى بغداد .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد :

« العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

منشورات : دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر بيروت .

ابن جبير : (عاش فى القرن السادس الهجرى) :

«الرحلة: في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية»
تحقيق د. حسين نصار ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ
١٩٥٥ م .

ابن الساعى : (ت ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) أبى طالب على بن
أنجب تاج الدين المعروف بابن الساعى الخازن :

« الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير » .
الجزء التاسع وقد بلغ فيه الى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .
طبع فى بغداد ١٩٣٤ م / ١٣٥٣ هـ .

ابن رسته : أبى أحمد بن عمر بن رسته :

« الاعلاق النفيسه »
طبع فى لندن ١٨٩١ م ـ المجلد السابع .

ابن شاهين : (ت ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م) غرس الدين خليل بن
شاهين الظاهرى :

« كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك » .
أعتنى بنشره وتصحيحه بولس راويس ـ باريس ١٨٩٤م.

ابن شداد : (ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٨ م) أبو المحاسن يوسف بن
رافع بن تميم :

« سيرة صلاح الدين المسماه بالنوادر السلطانية والمحاسن
اليوسفية » .

طبع فى مصر ١٩٠٣ م .

ابن الطقطقى : (ت بعد ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م) فخر الدين محمد بن على بن طباطبا :

« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » .
القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

ابن العماد الحنبلى : (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى بن على بن محمد بن العماد الحنبلى :
« شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » .
طبع فى بيروت .

ابن العبرى : (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) العلامه غريغوريوس المطلى المعروف بابن العبرى :
« تاريخ مختصر الدول » .
المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٨ م .

ابن القلانسى : (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزه بن أسد بن على بن محمد :
« ذيل تاريخ دمشق » .
بيروت ١٩٠٨ م مطبعة الآباء اليسوعيين .

ابن كثير القرشى : (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) عماد الدين

أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشى الدمشقى :
« البداية والنهاية فى التاريخ » ١٤ جـ .
مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ .

ابن مماتى : (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد بن الحظير :

« كتاب قوانين الدواوين » جمعه وحققه د · عزيز سوريال عطيه ·
القاهرة ١٩٤٣ م مطبعة مصر ·

ابن منقذ : (ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م) : أسامة بن مرشد :

« كتاب الاعتبار » ·
طبع جامعة برستون بالولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٣٠ · قام بنشره الدكتور فيليب حتى ·

ابن الوردى : (ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر :

« تتمة المختصر فى أخبار البشر » ٢ جـ ·
القاهرة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ·

ابن واصل : (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين أبو عبد الله بن سليم :

« مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ٢ جـ ·
تحقيق د· جمال الدين الشيال ·
طبع الجزء الاول فى القاهرة ١٩٥٣ م ·
طبع الجزء الثانى فى القاهرة ١٩٥٧ ·

أبو الفداء : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن على :

١ - المختصر فى أخبار البشر ويعرف بتاريخ أبو الفداء
٤ ج - الاستانة - دار الطباعة الشاهانية ١٢٨٦ هـ
٢ - " تقويم البلدان " ٠
طبع فى باريس بدار الطباعة السلطانية عام ١٨٤٠ م ٠

أبوشامه : (ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسى الشافعى :

« الروضتين فى أخبار الدولتين » ٠
الجزء الاول طبع فى القاهرة ١٢٨٧ هـ ٠
الجزء الثانى طبع فى القاهرة ١٢٨٨ هـ ٠

أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى :

« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ٠
طبعة مصورة عن طبعة الكتب المصرية: الناشر وزارة الثقافة والارشاد القومى ٠

أبو اليمن القاضى : (ت ٩٢٨ هـ / ١٤٥٦ م) قاضى القضاه أبو اليمن القاضى مجير الدين الحنبلى :

« الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ٠
الجزء الاول منشورات المطبعة الحيدرية فى النجف والاشرف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ٠ العراق ٠

البغدادى : (ت ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ م) أحمد بن عبد الله عبد اللطيف :

« كتاب الافادة والاعتبار فى الامور المشاهدة والحوادث بأرض مصر » .

طبعة أولى بمصر ١٢٨٦ هـ .

التلمسانى : (١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) أديب المغرب وحافظة الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى :

« نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
الطبعة الاولى ـ مصر ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

الاسحاقى : (عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى) محمد بن عبد المعطى أبى الفتح بن أحمد:

« أخبار الاول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول » .
طبع بالقاهرة ـ ١٣١٠ هـ .

الجركسى : العلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن أياس الحنفى :

« نبذه من نشق الازهار فى عجائب الاقطار » .

السيوطى : (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر جلال الدين السيوطى :

« حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ٢ جـ .
القاهرة ١٣٢٧ هـ .

الشرقاوى : (ت ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) عبد الله بن حجازى بن ابراهيم :

« تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين » .
طبع بالهامش لطائف أخبار الاول فيمن تصرف بمصر
من أرباب الدول للاسحاقى . طبع بمصر ١٣١٠ هـ.

العماد الاصفهانى : (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) أبو عبد الله محمد
بن صفى الدين :

« الفتح القسى فى الفتح القدسى » .
القاهرة - مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ .

القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) أحمد بن على بن أحمد
ابن عبد الله :

« صبح الاعشى فى صناعة الانشا » ١٤ جـ .
طبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر - القاهرة ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ .

القزوينى : (ت ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) أبو عبد الله زكريا بن
محمد بن محمود :

« آثار البلاد وأخبار العباد » .
بيروت - دار الصياد - ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) تقى الدين أبو العباس
أحمد بن على :
١ - « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف
بالخطط المقريزية » .

عدد الاجزاء ٢ طبعة بالاوفست - مؤسسة الحلبى
وشركاه للنشر والتوزيع ١٤ شارع جواد حسنى -

القاهــرة ٠

٢ ـ « السلوك لمعرفة دول الملوك » ٠
نشره وحققه الدكتور محمد مصطفى زياده ٠
الجزء الاول طبعة ثانية ١٩٥٦ م القسم الاول أما
القسم الثانى من الجزء الاول فقد طبع عام ١٩٥٧م

٣ ـ « اغاثة الامة بكشف الغمة » ٠
طبع فى القاهرة ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م ٠

٤ ـ « اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا » ٠
تحقيق ونشر د٠ جمال الدين الشيال ـ دار الفكـر
العربى بمصر ـ ١٩٤٨ م ٠

المقدسـى : (عاش فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)
شمس الدين أبو عبد الله المعروف بالبشارى :

« أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » ٠
طبع فى لندن ١٩٠٦ م ٠

المنـذرى : (ت : ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) الامـام الحافظ زكى
الدين عبد العظيم المنذرى :

« الترغيب والترهيب » ٠
الجزء الثانى ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٦٨ ٠

سرهنـك : اسـماعيل
« حقائق الاخبار عن دول البحـار » ٠
جزءان ـ الطبعة الاولى ببولاق ١٣١٢ هـ ٠

شيخ الربوه (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) شمس الدين أبى عبد الله محمد أبى طالب الانصارى الصوفى الدمشقى :

« نخبة الدهر فى عجائب البر والبحـــر » ·
طبع ليبزج ١٩٢٣ م ·

ناصر خسرو عــلوى :

« ســفرنامه » ·
تعريب د· يحيى الخشاب ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة
القاهرة ١٩٤٥ ·

ثالثا : المصادر الاصلية الاوروبية

Balzani, UGO,

"Early Chroniclers of Europe" Italy.
London - 1883.

Guillaume de Tyr,

Willermi Tyrensis Archiepiscopi, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum. Ed. R.H.C. oce. tome 1, VI. Paris, 1869.

Guillaume de Chartres,

Devita et actibus in clitae recordotionis regis Francorum ludovici noni, etd miraculis quae ad ejus sancti tatis de clarationem contigerunt.

Joinville, Jean de,

Histoire de Saint Louis. Texte original du xive Siécle, accompane d'uné traduction en Français Moderne par M. Natalis de Wailly.
Paris, 1844.

وقد اعتمدنا على ترجمته العربية بعنوان :

« جوانفيل : مذكرات جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام » .

ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى ـ القاهرة ١٩٦٨ م .

Kantorowicz, E.,

"Frederick the second"
"1194 - 1250"
London, 1931.

Mathiew d'Edesse

Chroniques (Doc. Arm, t, I.)

Mathew. Paris,

English History from the year 1235 to 1273, trans from the Latin by J. A. Giles, 2 Vols, London. 1852 - 1853.

Raimond d'Aglies;

Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem.
(R.H.C. occ. T; III.)

Recuéil des Historiens des Croisades, in 16 huge folio vols.
Paris, 1841 - 1906 :

I Historiens occidentaux, 5 tomes (1844 - 1895);
II. Historiens orientaux (Arabs), 5 tomes (1872 - 1906);
III. Historiens (Grecs) 2 tomes (1875 - 1881):
IV. Documents Armenies. 2 tomes, (1869 - 1906);
V. Lois, 2 tomes, (1841 - 1843).

Robert le Moine;

(R.H.C. occ. t. III.)

Rober of Clary;

"La conguete de Contsantinople".
Paris, 1924.

قام بترجمته والتعليق عليه الدكتور حسن حبشي ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م .

Rothelin :

Contiuation de Guillaume de Tyr dite du du manuscrit Rothelin (1299 - 1261).
Paris, 1859.

Villehardouin, Geoffery :

La conquete de Constantinople. 2 vols.
Paris, 1938 - 1939.

رابعا : المراجع الثانوية العربية والمعربة

الحمـوى : محمـد ياسـين :

« دمشق فى العصر الاسلامى » .
دمشق ـ المطبعة الهاشمية ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٦ م .

العبادى وسالم : أحمد مختار العبادى (دكتور) عبد العزيـز سالم (دكتور)
« تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام » .
بيروت ١٩٧٢ .

العرينـى : السيد البـاز العرينى (دكتور) :

١ ـ الاقطاع الحربى عند الصليبيين بمملكة بيت المقدس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى » .
القاهرة ـ مكتبة النهضة .

٢ ـ «مصر فى عصر الايوبيين » .
القاهرة ـ ١٣٦٩ هـ / ١٩٦٠ م .

اسـكندر : توفيق اسكندر :

« بحوث فى التاريخ الاقتصادى » .
القاهرة ـ ١٩٦١ م .

الشهابـى : الامير حيدر أحمد الشهابى :

« كتاب الغرر الحسان فى تواريخ حوادث الازمان » .

٣ ج ـ مطبعة السلام بالقاهرة ـ ١٩٠٠ م

الشيـخ : محمد محمد الشيخ (دكتور) .

« الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها » ·
الاسكندرية ـ ١٩٧٢ ·

الشيال : محمـد جمال الدين الشيال (دكتور) :

١ ـ « تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى » ·
دار المعارف ١٩٦٧ · القاهرة ·

٢ ـ « مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا » ·
الاسكندرية ـ ١٩٤٩ م ·

٣ ـ « تاريخ الدولة العباسية » ·
دار الكتب الجامعية ـ الاسكندرية ١٩٦٨ م ·

أرنست باركـر :

« الحروب الصليبية » ·
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ·

اومـــان :
« الامبراطورية البيزنطية » ·

تعريب د· مصطفـى طـه بـدر ـ دار الفكـر العربـى
القاهرة ١٩٥٣ م ·

باراكلاف وهارتمان :

« الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ·

ترجمة وتقديم د٠ جوزيف نسيم يوسف ٠
دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ــ الطبعة الثانية ٠

بروكلمان : كارل بروكلمان :

تاريخ الشعوب الاسلامية » ٠
الجزء الثانى : « الامبراطورية الاسلامية وأعلامها » ٠
تعريب د٠ نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى :
دار العلم للملايين ــ بيروت طبعة أولى ١٩٤٩ ٠

توينبــى : أرنولد توينبــى :

« مختصر دراسة التاريخ » ٠
ترجمة : فؤاد محمد شبل ٠
القاهرة ١٩٦١ م ٠

توماس : أرنولد توماس :

« تراث الاسلام » ــ تعريب د٠ حسين مؤنس وآخرون ٠
٢ جـ ــ القاهرة ١٩٣٦ م ٠

حافظ أحمد حمدى :

« الشرق الاسلامى قبل الغزو المغولى » ٠
دار الفكر العربى ١٩٥٠ م ــ القاهرة ٠

حبشى : حسن حبشى (دكتور) :

« نور الدين والصليبيون » ٠
دار الفكر العربى ــ القاهرة ــ ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م٠

حسن ابراهيم حسن (دكتور) :

« تاريخ الدولة الفاطمية » .
القاهرة ـ ١٩٥٨ م .

حسين : محمد أحمد حسين :

« صفحة من تاريخ الحروب الصليبية » .
القاهرة ـ ١٩٤٦ م .

جوزيف نسيم يوسف :

١ ـ « العدوان الصليبى والرأى العام الغربى » .

محاضرة وسلسلة المحاضرات العامة للعام الجامعى ١٩٦٨/٦٧ .

مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ .

٢ ـ « علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية » .
مستخرج من مطبوعات جمعية الاثار ـ بالاسكندرية ١٩٧١ م .

٣ ـ « الوحدة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبى » .
دار المعارف سنة ١٩٦٧ .

٤ ـ « العدوان الصليبى على مصر » .
الاسكندرية ـ دار الكتب الجامعية ١٩٦٩ ـ طبعة أولى .

٥ - « العدوان الصليبي على بلاد الشام » .
الاسكندرية - دا رالكتب الجامعية ١٩٧١ م - طبعة ثالثة .

على ابراهيم حسن :

« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » .
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٧ م .

عمر الاسكندراني : وا.ج. سفدج :

« تاريخ مصر الى الفتح العثمانى » .
مطبعة المعارف بمصر ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م .

عــواد : ميخائيل عواد :

« المآصر فى بلاد الروم والاسلام » .
بغداد - ١٩٤٨ .

فاخـورى : عبد الباسط فاخورى :

« تحفة الانام مختصر تاريخ الاسلام » .

مختـار : محمد مختار باشا :

« التوفيقات الالهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية » .
الطبعة الاولى ببولاق بمصر سنة ١٣١١ هـ .

مشرفـه : عطية مصطفى مشرفة (دكتور) :

« نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين » ·
الطبعة الاولى ١٩٤٨ ـ دار الفكر بمصر ·

كوبلاند وفينوجرادوف :

« الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا » ·
ترجمة د· محمد مصطفى زيادة ·
القاهرة ١٩٤٨ م ·

كولوتون : ج·ج· كولتون :

« عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة » ·
ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ·
الطبعة الثانية ١٩٦٧ · دار المعارف ·

نورمان بينز :

« الامبراطورية البيزنطية » ·
تعريب حسين مؤنس ومحمد يوسف زايد ـ طبعة أولى ـ
القاهرة ١٩٥٠ م ·

زيـادة : نقولا زيادة (دكتور) :

« الرحالة العرب » ضمن مجموعة الالف كتاب ·
نشر الهلال ١٩٥٦ · ·

سـالم : السيد عبد العزيز سـالم (دكتور) :

١ ـ «تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى»
دار المعارف ١٩٦٩ م ـ الطبعة الثانية ·

٢ - «دراسة فى تاريخ مدينة صيدا فى العصر الاسلامى»
طبع فى بيروت ١٩٧٠ م طبعة أولى .

سعاد ماهر (دكتورة) :

« البحرية فى مصر الاسلامية وآثارها الباقية » .
القاهرة ١٩٦٧ م .

سـرور : محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

١ - « مصر فى عصر الدولة الفاطمية » .
القاهرة - ١٩٦٠ .

٣ - « سياسة الفاطميين الخارجية » .
دار الفكر العربى - القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م .

رنسيمان ستيفن :

١ - « الحضارة البيزنطية » .
ترجمة د. عبد العزيز توفيق - القاهرة ١٩٦١ .

٢ - « تاريخ الحروب الصليبية » .
ترجمة د. السيد الباز العرينى .
الطبعة الاولى - بيروت ١٩٦٨ .

ديـل (شـارل) :

« البندقية جمهورية ارستقراطية » .
ترجمة د. أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر .
القاهرة ١٩٤٨ .

شـلبى : أحمد شلبى (دكتور) :

١ ـ « الجهاد فى التفكير الاسلامى » .
القاهرة ١٩٦٨ م .

٢ ـ « المجتمع الاسلامى » .
القاهرة ـ ١٩٦٧ م .

رفعت : عبد الفتاح أفندى رفعت :

« الدرر الفاخرة فى تاريخ مصر القاهرة » .
القاهرة ـ ١٣١٢ هـ ـ مطبعة التأليف .

زامبـاور :

«معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى»
الجزء الثانى ـ مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥٢ م .

عابدين : محمود عابدين :

« تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب » .
الطبعة الاولى ١٩٢٥ ـ القاهرة .

عاشـور : سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) :

١ ـ « النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة » .
الطبعة الثانية ١٩٦٠ .

٢ ـ « الحركة الصليبية » ٢ جـ
الطبعة الثانية ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة •
٣ ـ « أوروبا العصور الوسطى » •
جـ ١ الطبعة الرابعة ١٩٦٦ • مكتبة الانجلو القاهرة •

عرجــون : الشيخ محمد الصادق عرجون :

« الموسوعة فى سماحة الاسلام » •
القاهرة ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م •

خامسا : المراجع الثانويـة الاوروبيـة

Archibald R. Lewis,

Shipping and Commerce in Northern Europe. Newjeresy 1958.

Archer, T. & Kings ford, C.,

The Crusades. London, 1894.

Atyia, A. S.,

1 - Crusade, Commerce and Cuiture. New York, 1966
2 - The Crusades in the Later Middle Ages. London. 1938.

Baynes, N. H.,

The Byzantine Empire. London, 1944.

Bernard, Leon And Others,

European History, New - York, 1959.

Bréhier, L.,

L' Eglise et l' Orient au Moyen Ages, Les Croisades. Paris, 1928.

Brawn, H. F.,

Life on the Legoons. Third Edition, London, 1900.

Brawn, H.,

The Venetian Republic. London.

Briton, Ch. W.,

A History of Civilization. volume I, 1961.

Bowle,J.,

The Unity of European History, London, 1948.

Bloch. M.,

Feudal Socity, Translated from the Franch by L. A. Manyon. 2 vols. London, 1967.

Bury, J. B., Bury, M. A.,

The Cambridge Medieval History. Vols. 4, 5, - London, 1936.

Carlton, J. H.,

History of Europe. Fifth Printing. United States of America, 1959.

Chalandon, F.,

Histoire de La Primere Croisade. Paris, 1925.

Cook, M. A.,

Studies in the Economic History of Middle East. London. 1970.

Coultoh, C. C.,

Medieval Panorama. Cambridge, 1949.

Clarke, P. S.,

Short. History of the Christian Church. London, 1941.

Craw ford, F. M.,

Cleanings from Venetian History. vol. I, London, 1905.

Davis, H. W. C.,

Histoire de La Republique de Venice. Tome 1 - 3, Bruxelles, 1840.

Devis, H. W. C.,

Medieval Europe. London, 1941.

Deanesly, M. P.,

A History of Medieval Church. (590 - 1500) London, 1973.

Denys, H.,

The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge, 1961.

Diehl, Ch.,

1 - Buzantine Empire. Princeton, 1925.

2 - Etudes B.

Duggan, A.,

The Story of the Crusades. (1097 - 1291) London, 1963.

Dury, V.,

The History of the Middle Ages. New - York, 1891.

Elton, G. R.,

Medieval Monarchy in Action. London, 1972.

Fahmy, A. M.,

Muslem Sea Power in the Eastern Mediterranean. London, 1948.

Fisher, S. N.,

A History of the Middle Ages. London, 1966.

Gibb, H. And Bruwn, H.,

Islamic Socity and the West. part, I, London, 1957.

Grousset, R.,

Histoire des Croisades et Royaume France de Jerusalem. 3 vols. Paris, 1934 - 1936.

Glubb, J.,

The Empire of The Arabs. London, 1963.

Heyd,

Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. 2 parts. Leipzig, 1885.

Henry, H. M.,

History of Latin Chistianity. The Popes volume 3. London 1854 and volume 4, London 1855.

Hodgson, F. C., Hodgson, M. A.,

The Early History of Venice from the Foundation to the Conquest of Constantinople. A. D. 1204. London, 1901.

Jacob, G. C., Jacob, E. F.,

The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1926.

Joseph, N. Y.,

Arab awaking during the Crusades. Bulletin of The Faculty of Arts. Alexandria University, 1971.

Jorga, N.,

Breve Histoire des Croisades et de leurs Fondation en terre Sainte. Paris, 1924.

Ingram, J. K.,

History of Political Economy. Edinburg, 1888.

King, E. J.,

The Knights Hospitallers in the Holy Land. London. 1931.

Lane - Poole, S.,

1 - Saladin and The Fall of Jerusalem. New - York. London, 1898.

2 - A History of Egypt. London, 1901.

Lavisse, E and Rambaud, A.,

Histoire General. Tome 2, L'Europe Feodale les Croisades. (1095 - 1270). Paris, 1893.

Lewis, A. R.,

1 - Navel Power and Trade. New jersey, 1951.

2 - Medieval Trade in The Mediterranean World. New - York, 1955.

Michoud, J. F.,

Histoire des Croisades. 5 vols. Paris, 1817 - 1822.

Molmenti, P.,

Venice, its Individual Crowth from the Earliest Beginnings to the Fall of Repuplic, part, I, The Middle Ages. London, 1906.

Newton, A. P.,

Travel and Travellers of the Middle Ages. London, 1930.

Okey, T.,

1 - The Story of Venice. London, 1905.
2 - Venice and its Story. London, 1930

Oliphant,

The Makers of Venice. London, 1898.

Penrose, J.,

A Short History of Italian People - London, 1950.

Penrose, B.,

Travel and Discovery in the Renaissance. 1420 - 1620. London, 1952.

Pirenne, H.,

1 - Economic and Social History of Medieval Europe. London, 1961.
2 - Medieval Cities. Newjervsey.
3 - Histoire Economique de L' Occident Medieval, 1951.

Pirenne, J.,.

The Tides of History. vol. 2, London, 1963.

Postan, M. E. and Miller, R. E.,

The Cambridge Economic History of Europe. volume 3, Cambridge, 1963.

Riant, P.,

Histoire de L'Eglise. In Revue de l'Orient Latin. 1900.

Rousset, p.,

Les Origines et les Caracters de La Croisades. Geneve. 1945.

Roscoe, L.,

Medieval Civilization.

Runciman, S.,

A History of the Crusades, 3 vols. Cambridge, 1954.

Schlumberger, G,.

1 - Les Campagnes du Roi Amaury 1 er de Jerusalem en Egypte. Paris, 1906.

2 - Un Emperem Byzantin au dixieme seiele, Nicéphore Phocas. Paris, 1890.

Setton, K.,

A History of The Crusades. 3 vols. London, 1969.

Stephenson, C.,

Medieval Feudalism. New York, 1942.

Stevenson, W. B.,

The Crusades in the East. Cambridge. 1907.

Tout, T. F.,

The Empire and the Papacy. (918 - 1270) London, 1909.

Vasilieve, A.,

History of the Byzantine Empire. 2 vols. Madison, 1961.

Vaughan, C.,

The Great Capitals. London. 1923.

Wiel,

1 - The Navy of Venice. London. 1910.

2 - Venice. London, 1894.

Wiel, G.,

L' Egypte Arab. Paris, 1937.

Venice Past and Present. London, 1799.

Survery London and The Middle East A Political and Economic

and New York. 1950.

محتويـــات الكتـــاب

الفصـــل الثـــالث

الفصـــل الرابـــع

(تم بحمـــد الله)

تورشلو

بورانو

مورانو

البندقية

ميناء الليدو

الليدو

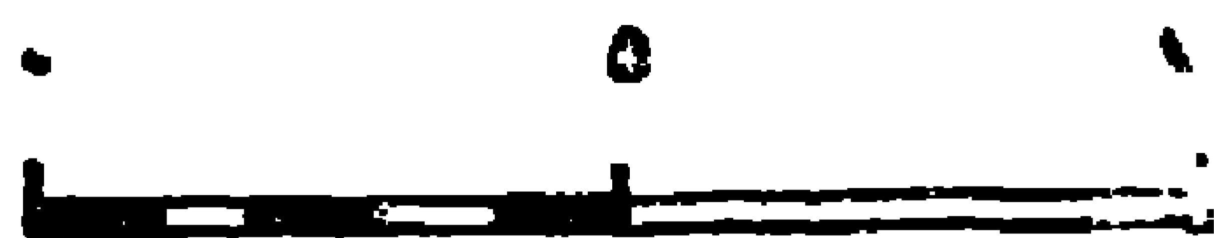
مالاموكو

البحر الأدرياتي

ميناء

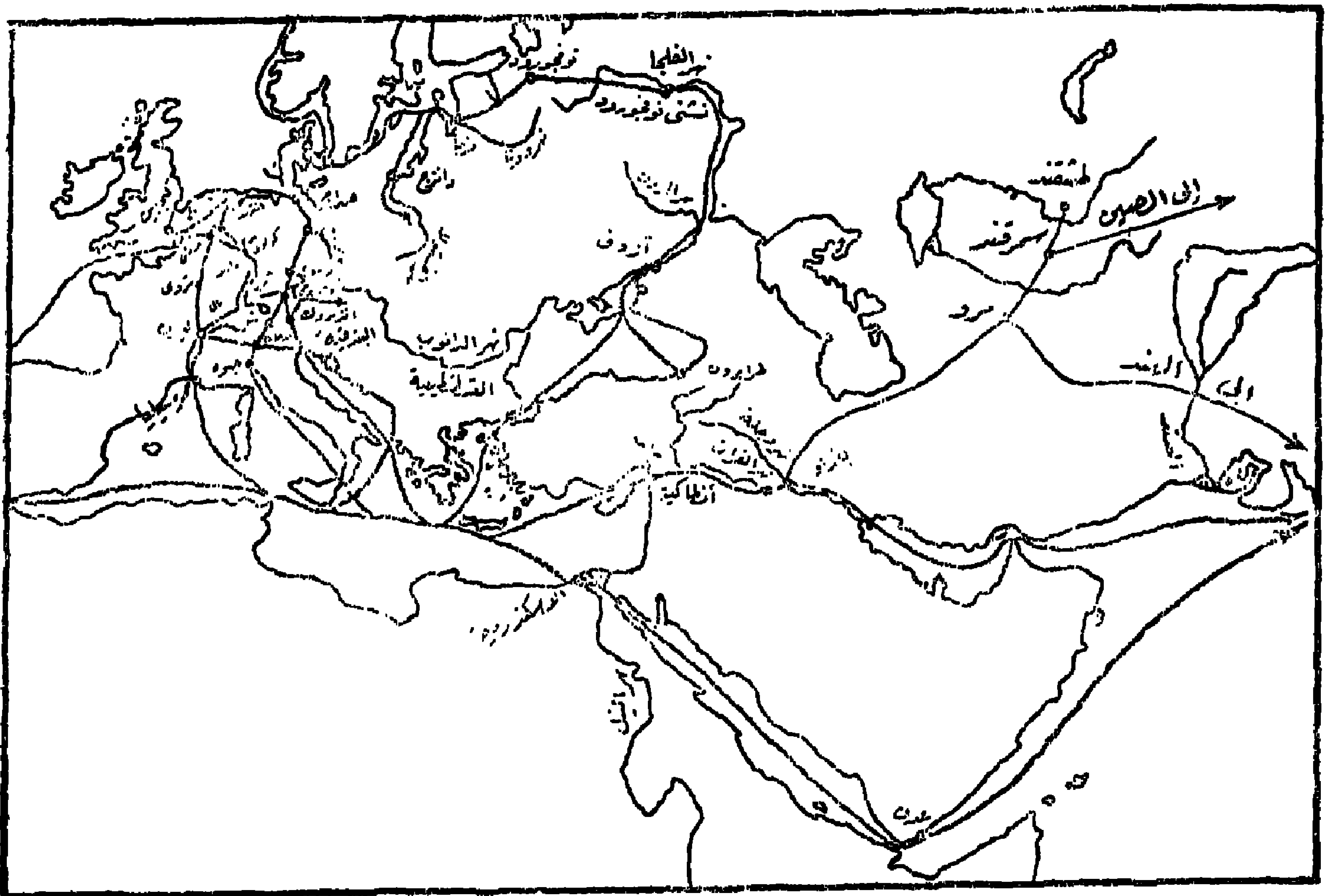
كيوجا

مقياس الرسم



كيلومترا

مدينة البندقية



طرق التجارة والمواصلات الرئيسة في العصور الوسطى

تصويب

الصفحة	السطر	الخطـــا	الصــــواب
٢	١٠	كانن	كانت
٢	٢١	الداعر	الدائــر
١٠	١	وتتناول	ويتناول
١٧	٢٠	المتبالة	المتبادلة
١٧	٢١	ترك	ذلك
٢٨	١	الدولة والايوبية	الدولة الايوبية
٣٥	٨	المنعرجة	المتعرجة
٣٩	ح ١١	Pirtnne	Pirenne
٤١	٤	الاستقراطيين	الارستقراطيين
٤١	١٥	والالمان	الالمــان
٤٥	٦	بارباروسيا	بارباروسا
٤٥	ح ١٩	Legoons	Lagoons
٤٩	١	للبنادقة	البنادقــة
٥١	ح ٣٥	تسعمل	تستعملْ
٥٢	١	نضرب	تضرب
٥٥	ح ٤٥	Crsades	Crusades —
٦١	ح ٥٣	Thravel	Travel
٦١	ح ٥٣	Tldes	Tides
٧١	١٧		(٦٥)
٧٢	ح ٦٦	Crosaders	Crusaders
٧٣	١٥	عليهء	عليهــم
٧٣	ح ٦٧	خبار	اخبــار
٧٤	١	اتشريع	التشريع
٧٤	ح ٧٤	الحليبيون	الحلبيون
٧٧	٨	عظمائه	غلمانه
٨١	١٢	فانقذ	فانفــذ

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصــــواب
٨٧	١٥	–	(٨٧)
٨٧	ح ٨٩	Guillane	Gullaume
٨٩	١٢	٣ ١٢٥٨ م	١٢٥٨ م
٨٩	١٧	ن	أن
٩٥	ح ٩٦	Preciare	Premi.
١٠٩	٦	البنادقة	للبنادقة
١١٦	ح ١٢٠	مقرح	مفرج
١١٨	ح ١٢٤	أبظر	أنظر
١١٩	١٤	لاريجورى	جريجورى
١٢٦	٢	للملكة	للمملكة
١٢٧	١٥	عى	عــلى
١٢٩	ح ١٤٣	Setten	Setton
١٣١	ح ١٤٥	Constinople	Constantinople
١٧١	٤	الامبراورية	الامبراطورية
١٧٦	١٦	فى أن نقل	فى نقل
١٨٢	١٩	لهجامة	لمهاجمة
١٨٤	١	،	و
١٨٧	ح ٢١٩	الكـــاب	الكتـــاب
١٨٨	١	الملك محمد	الملك الكامل محمد
١٩٦	٣	بتحديد	بتجديد
٢٠١	ح ٢٢٩	–	(٢٢٩)
٢٤٠	١٠	وزداد	وأزداد
٢٧٦	١٨	نرد	تــرد
٢٧٩	١٨	الصالج	الصــالح
٢٨١	٥	ن	أن
٣٠٢	٦	تصوير	تصوير

الصفحة	السطر	الخطـــا	الصــــواب
٣٠٥	١٠	المطلى	الملطى
٣١٤	٨	1299	1229
٣١٩	٢	الاسكنديرة	الاسكندرية
٣٢٤	٧	Cuiture	Culture
٣٢٤	١٨	Legoon	Lagoon
٣٢٥	٨	Franch	French
٣٢٦	١	Coultoh	Coultion.

طبـــع بمطبعـــة التقـــدم
٢١ شارع سيزوستريس ـ ت : ٨٠٦٠٥٤ الاسكندرية

قرش جنيه
٥٩٥٠

١/١١٤١٥٥

دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة
الناشر : دار المعارف بالاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول — ٢ ميدان التحرير